الفصل الرابع
من بساطة المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان

تآكل النموذج المادي

لعل التجربة الوجودية والفكرية المحورية في حياتي هي هيمنة النموذج المادي الفلسفي عليَّ بعض الوقت (بعد أن اجتاحني الشك في دمنهور)، ثم إدراكي التدريجي بعدم جدوى النماذج التحليلية المادية في الإحاطة بالظاهرة الإنسانية المركبة (نظراً لبساطة هذه النماذج وسذاجتها واختزاليتها) وإحساسي المتزايد بضرورة تبنِّي نماذج تحليلية مركبة متعددة الأبعاد والمستويات، إن أراد المرء أن يرصد إنسانية الإنسان (لا ماديته أو طبيعته المادية)، وأن يراه في كل تركيبته .

فالإنسان هو أكرم المخلوقات في الكون، مختلف بشكل جوهري عن بقية الكائنات، حتى وإن شاركها بعض صفاتها. فهو يعيش في الطبيعة لكنه منفصل عنها. (طورت فيما بعد مفهوم الطبيعة/ المادة، فأنا أذهب إلى أن صفات «الطبيعة»، في معظم الخطاب الفلسفي الغربي، هي ذاتها صفات «المادة» بالمعنى الفلسفي. ولذا أرى أنه كلما وردت كلمة «طبيعة» يجب أن يحل محلها كلمة «مادة» أو نكتبها «الطبيعة/ المادة». كما طورت مفهوم المسافة التي تفصل بين الإنسان والطبيعة وبين الخالق والمخلوق وبين الجسد والروح. مما يعني أن هناك ثنائية أساسية في الكون، وأن الكون متنوع متعدد غير متجانس، فيه المطلق وفيه النسبي، فيه الثابت وفيه المتحول، قد يتصارعان وقد يتقابلان وقد يتفاعلان، ولكنهما مختلفان. كل هذا يقف على طرف النقيض من الواحدية المادية التي تذهب إلى أن العالم بأسره (الإنسان والطبيعة) جوهر واحد) .

فالعالم (الإنسان والطبيعة) - بالنسبة لي - يتسم بما أسميه الثنائية الفضفاضة. و«الثنائية الفضفاضة» مصطلح يقابل «الواحدية». والثنائية هي الإيمان بوجود أكثر من

www.scantopdf.eu

جوهر في العالم. والثنائية الأساسية (في النظم التوحيدية) هي ثنائية الخالق (المنزَّه عن الإنسان والطبيعة والتاريخ) والمخلوق. وهي ثنائية فضفاضة تكاملية إذ إن الإله مفارق للعالم إلا أنه لم يهجره ولم يتركه وشأنه. وينتج عن هذه الثنائية ظهور الحيز الإنساني الذي يتحرك فيه الإنسان بحرية ومسئولية. وينتج عن هذه الثنائية الأولية ثنائيات تكاملية عدة من أهمها ثنائية الإنسان والطبيعة، والتي تفترض انفصال الإنسان عن الطبيعة وأسبقيته عليها واستحالة رده إليها وتفسيره في إطارها لأن الإله خلقه وكَرَّمه واستخلفه في الأرض. ولكنها لا تعني أن الإنسان هو مركز الكون، فقد وُضع في مركز الكون، ولا تعني أنه مالك الطبيعة، فهو خليفة فيها من قبَل خالقها (أي أن ثمة حيزاً طبيعيّا مستقلاّ عن الإنسان، وإن كان من حق الإنسان أن يتحرك فيه).

والثنائية غير الإثنينية أو الازدواجية. ففي الثنائية ثمة عنصران قد يكونان متكافئين أو غير متكافئين، ولكنهما مع هذا يتفاعلان ويتدافعان. أما في الإثنينية فهما عنصران مختلفان تمام الاختلاف يكادان يكونان متعادلين (مثل إله الخير والنور وإله الشر والظلام في بعض العبادات الوثنية)، ولذا يدخلان في صراع أزلي أو شبه أزلي. وقد يكونان عنصرين متعادلين تمام التعادل، متكاملين تمام التكامل، فنعود للواحدية مرة أخرى.

وبدلاً من الإنسان الطبيعي طرحت فكرة الإنسان/ الإنسان (أو الإنسان الرباني، أو الإنسان السر في السابق)، كائن لا يعلمه في كليته إلا الله، لأنه ليس جزءاً لا يتجزأ من العالم الطبيعي المادي، وإنما هو جزء يتجزأ منه وحسب، إذ إن هناك جزءاً منه يتجه نحو ما هو متجاوز للمادة. ومن هنا وجود الإنسان المأساوي/ الملهاوي: كائن يعيش داخل جسده (المادي)، في الطبيعة المادية، يتحرك جزء منه حسب قوانين الجاذبية والدوافع البيولوجية والغريزية، ولكنه في الوقت ذاته تتوق روحه إلى عالم المُثل والثبات والروح، كائن أقدامه مغروسة في الوحل وعيونه شاخصة للنجوم، يسقط دائمًا ولكنه قادر دائمًا على النهوض ثم التجاوز. (هل حبي للنكتة، في جانب من جوانبه، تعبير عن إدراكي لهذا البعد في الظاهرة الإنسانية؟).

ووجود الله هو الضمان الوحيد لوجود الإنسان الإنسان، بجزأيه الطبيعي وغير الطبيعي، فالله هو التركيب اللانهائي المفارق لحدود المعطى النهائي، هو النقطة التي يتطلع إليها الإنسان ويحقق التجاوز من خلالها، ومن ثم بغيابه يتحول العالم إلى مادة

www.scantopdf.eu

طبيعية صماء، خاضعة لقوانين الحركة والضرورة التي يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها. وينضوي الإنسان تحت نفس النمط، إذ بغياب الله يتحول الإنسان إلى كم مادي يمكن تفسيره في إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة التي يمكن معرفتها والتنبؤ بها.

لم يكن هذا النموذج الإنساني غير المادي متبلوراً وواضحًا في وجداني وعقلي ولكنه كان هناك، كامنًا ودفينًا. إلا أن ثمة عناصر عديدة ساعدت هذا النموذج على التحرك من عالم الإمكانية إلى عالم التحقق. وقد تناولت نشأتي في دمنهور والمجتمع التقليدي الذي عرفته عن قرب، بكل حسناته وسيئاته، كما تناولت موضوع التناقض بين التعاقد والتراحم. ولعل هذه التجارب كانت تشكل الإطار الكلي أو التربة الخصبة التي صبت فيها التجارب الأخرى التي هزت النماذج والأفكار والمقولات المرجعية المادية التي كانت تستند إليها حياتي الفكرية بعض الوقت.

ومما ساعد على ترسيخ النموذج المركب في وعيي الباطن وفي وجداني دراستي للأدب، فالأدب يكاد يكون التخصص الوحيد الذي لا يزال يتعامل مع الإنسان بوصفه إنساناً، أي على أنه كلٌّ مركَّب لا يمكن رده إلى عنصر أو عنصرين في الواقع، ولا يمكن تفسيره في ضوئهما (على عكس الاقتصاد، على سبيل المثال، الذي يدرس الإنسان في إطار المعطيات الاقتصادية وحسب). كما أنني درست الأدب الإنجليزي في الفترة ما بين منتصف الخمسينيات وأواخر الستينيات، وهي فترة كان التيار الإنساني (الهيومانى) خلالها يضع الإنسان في مركز الكون ويؤكد اختلافه الجوهري عن باقي المخلوقات كما يؤكد منظوماته الجمالية والأخلاقية (حتى وإن أنكر منظوماته الدينية). ولم تكن الاتجاهات الشكلانية قد هيمنت بعد، بل إن مثل هذه الاتجاهات، كما هو الحال في النقد الجديد، كانت تحاول أن تجد في القيم الجمالية، مثل المفارقة (irony) والبنية، قيمًا أخلاقية، بل أحيانًا دينية. كما أنني درست الأدب على يد أساتذة في مصر والولايات المتحدة، كانوا في غالبيتهم من المؤمنين بالفكر الهيومانى، لا يقبلون فكرة إسقاط الحدود الجمالية والمعرفية والأخلاقية.

هكذا واجهت العالم بعد تحولي للمادية: نموذج ظاهر مادي، ونموذج كامن يصل إلى الجوهر الإنساني المفارق لصيرورة المادة. ويبدو أن قصة تحولي الفكرية هي أيضًا قصة

www.scantopdf.eu

الصراع الخفي بين النموذجين، إذ كنت أفكر حسب النموذج الظاهر، ولكني في الوقت ذاته كنت أفكر وأسلك وأراقب سلوك الآخرين حسب النموذج الباطن .

وحينما يظهر تناقض بين النموذج المهيمن من جهة، ومن جهة أخرى سلوك المرء وما يلاحظه في الواقع، عادةً ما تحدث أزمات وهزات ومراجعات. وقد حدثت أولى الهزات حينما قررت الارتباط بالدكتورة هدى برغم كل التحليلات الطبقية (التي أسلفت الإشارة إليها). فقد كان هذا يعني وجود تناقض صارخ بين النموذج النظري المادي والمجرد وسلوكي الإنساني المتعين. ولا شك في أن حياة الكثيرين مليئة بالتناقضات بين الرؤية والممارسة، ولكنهم مع هذا يمكنهم التعايش معها. ولكن بالنسبة لإنسان مثلي يحاول أن يعيش فكره قدر استطاعته، نجد أن مثل هذا التناقض يسبب مشكلة حقيقية يحاول حلها بطريقة مختلفة. فعلى سبيل المثال قد يلجأ المرء إلى إعادة النظر في النموذج الحاكم ليكتشف داخله بعض العناصر الهامشية التي قد تفسر سلوكه وتزيل التناقض. ولكن تستمر عملية الاكتشاف والتعديل بشكل تدريجي وربما تراكمي إلى أن يصبح من الحتمي تبني نموذج جديد. وقد اكتشفت أن ماركس عرَّف الزواج بأنه علاقة اقتصادية مفعمة بالحب، أي أنه تبنى مقياسين : واحداً ماديّا والآخر غير مادي (لا يختلفان كثيراً عن نموذجيّ الظاهر والكامن). وقد وجدت أن قول ماركس هذا يريحني كثيراً، ويجعل سلوكي «غير العلمي» و«غير المادي» مقبولاً ماركسيّا، فاستوعب قرار الزواج من د. هدى داخل منظومتي المادية .

ولكن التشققات زادت والتناقضات احتدمت بمرور الأيام، حتى وصلت إلى نقطة تحول فيها التناقض إلى تطاحن. وقد حدثت الهزة القوية الثانية حينما رزقني الله ابنتي نور. كانت لحظة ولادتها لحظة فارقة في حياتي، إذ وجدت نفسي أنا العقلاني المادي وجهًا لوجه مع معجزة جعلتني أغرق في التأمل ؛ طفلة تولد وبعد ولادتها بلحظات تنظر بعينيها الواسعتين حولها، ثم ترتبط بأمها على الفور بطريقة لا أفهم كنهها ؛ أمها - زميلتي في الجامعة والتي كنت أذهب معها إلى السينما والرحلات مع «شلتنا» أو بمفردنا - تتحول بين يوم وليلة إلى أم تطعم الصغيرة بثديها وترتبط بابنتها ارتباطًا جنونيّا لم أر مثله. وتبدأ تتحدث بلغة جديدة تمامًا علي ؛ زميلتي وزوجتي أصبحت أمّا ودخلت عالمًا جديداً أقف أنا على أطرافه دهشًا. في بداية الأمر أصبت بالغثيان، وأحسست بالهجران؛ كيف يمكن لزميلة الدراسة أن تتحول بهذا الشكل وتتركني وحيداً ؟

www.scantopdf.eu

وتدريجيّا تجاوزت هذا الإحساس، وبدأت أتأمل في هذا الكائن الجديد الذي دخل حياتي: هل يمكن أن يكون كل هذا نتيجة تفاعلات كيمياوية وإنزيمات وغدد وعضلات؟ هل هذا الكل الإنساني هو جماع أعضائه المادية وثمرة المصادفة، أو أن هناك شيئًا ما يجاوز السطح المادي؟ هل الإنسان فعلاً جزء من الطبيعة، لا يفصله فاصل عنها، خاضع لقوانينها وأهوائها (كما يقول المنهج المادي الصارم)، أو أن فيه أسرارًا وأغوارًا؟ وفوجئت بأنني، برغم شكوكي الفلسفية وتصوراتي المادية، أكتب قصيدة تحاول استكناه هذا الحدث من خلال صور شعرية دينية، إذ إن الصور المادية لم تعد كافية، فقد أصبحت ظاهرة الإنسان بالنسبة لي ظاهرة غير مادية غير طبيعية؛ معجزة بكل المعايير المعروفة لدي. وهكذا ظهر الإنسان الإنسان، (أو الإنسان الرباني فيما بعد)! (وبينما محمد في غاره حزين - يالجة الضياء قد أرجفت قلبه - وبينما دماؤه تبلل الصليب - أقبلت بالعزاء للمسيح فانتصر - في الغابة الندية اللجيري قاعد - فطار كي يعانق الشموس والقمر - يا إصبع الإله قد أقلقت مضجعي - أولدتها حواء ثم مريما).

وتوالت الأحداث التي كان من الصعب استيعابها داخل النموذج المادي المهيمن. ثمة ليلة في حياتي لن أنساها أبدًا أسميها «ليلة بكاء الطفلة»، إذ استيقظت نور ابنتنا وهي لم تكمل عامين بعد وأخذت تبكي بصوت عال دونما سبب واضح. كان لبكائها تلك الليلة رنين خاص لم ندر كنهه: مزيج من الفزع والحزن. حملتها أمها على كتفها وحاولت أن تهدئ من روعها. فسكتت، ولكن كنت كلما اقتربت منها أجدها تصرخ بأعلى صوتها، فكان عليّ أن أختفي عن ناظريها وظلت أمها معها إلى أن نامت. لا ندري حتى الآن سر بكاء الطفلة، ولكني أذكر هذه القصة لندرك ما في داخلنا من أسرار ومدى احتياجنا للأم، إذ كيف يمكن للموظف «المختص» مهما بلغ من تخصص أن يفهم لغة الطفل ويدرك منحناه الخاص، أفراحه وأحزانه؟

وبعد أن أنجبنا نور، فوجئت بأن زوجتي قررت ألا تستمر في دراستها العليا (برغم اتفاقنا على ذلك من قبل) وأخبرتني بأنها لا تريد أن تحرم ابنتها من حق الاستيقاظ ومن حق ممارسة كل وظائفها البيولوجية بما يتفق مع إيقاعاتها الجسدية ويريحها عصبيّا. فزعت من نفسي ساعتها لأنني لم أفكر في هذا، ولم أفكر إلا في الإنجاز (المادي) والأداء في رقعة الحياة العامة ومساواة الرجل والمرأة ونسيت الطفلة وحقوقها تمامًا. وفزعي من نفسي هذا جعل المزيد من الاقتناعات والمقولات والنماذج التفسيرية، التي تتحكم في عقلي ووجداني، تهتز وأعيد النظر فيها.

www.scantopdf.eu

وحينما رزقنا الله ابننا ياسرًا كنا قد تصورنا، أنا وزوجتي، أننا تدربنا تمامًا على تنشئة الأطفال، وإذا به مختلف تمامًا عن أخته وتطلبت تنشئته مهارات أخرى. فابنتنا نور تحب التجريب ولا تخشاه برغم إصرارها على المعايير الجمالية الدقيقة، التي أسميها أرستقراطية. أما أرستقراطية ياسر الجمالية فهي تنحو منحى آخر، فهو يكره التجريب. لاحظت أنه ظل يشاهد فيلم «كاجاموشا (المحارب الظل)» للمخرج الياباني أكيرا كوروساوا، المرة تلو الأخرى، حتى حفظه تمامًا تقريبًا. فطلبت منه أن يجرِّب فيلمًا آخر، فكان رده: «إن وصلت إلى الأعالي، فلماذا تهبط منها؟». وبينما تتميز نور بمقدراتها اللغوية، فإن ياسرًا كان يعيش في عالم الأرقام، فكان لا يكف عن سؤال أسئلة غريبة تتطلب معرفة وثيقة بالرياضة. سألني مرة وهو بعدُ صبي: إن كان هناك حوت وزنه كذا وضرب بذيله سفينة وزنها كذا فهل ستغرق أم لا؟ كنا نضحك من رغبته العارمة في هذا الاهتمام المجرد بالأرقام والعلاقات الرياضية، ولذا كنا نسميه «الكونت دراكيولا» Count Dracula وكلمة Count الإنجليزية تعني «كونت» ولكنها تعني أيضًا «يحسب أو يعد». ونتيجة للاختلاف بين الابنة والابن ترسخ اعتقادي بالإنسان المعجزة الذي يجاوز الحتميات الطبيعية (في هذه الحالة العوامل الوراثية والبيئية). كما بدأت أدرك أهمية الأسرة في عملية التنشئة، إذ لا يمكن لمؤسسة عامة (مهما بلغت درجة كفاءتها) أن تفي بالاحتياجات النفسية للطفل، والتي تختلف من طفل لآخر.

الدين والهوية

ومن الأمور التي لاحظتها بشكل مباشر، وهزت مقولاتي المرجعية، وكان من الصعب استيعابها داخل النموذج التفسيري الحاكم، أنني اكتشفت إبَّان إقامتي في الولايات المتحدة أن كل أصدقائي من أصل إما كاثوليكي وإما يهودي (باستثناء أستاذي، فكان بروتستانتيًا ولكن من جماعة بروتستانتية هامشية)، وأنا هنا أتحدث عن أصولهم الدينية لا عن انتمائهم الديني الفعلي (فمعظمهم كانوا ملحدين أو غير مكترثين بالدين). وبدأت هذه المسألة تحيرني، إذ إنني كنت قد تعلمت في الدروس الماركسية التي لُقنتها أن الدين إن هو إلا أفيون الشعوب، جزء من بناء فوقي يمكن رده للبناء التحتي. ومن هنا، فإنه لا يصلح أساسًا صلبًا للتصنيف أو للإدراك (فالأساس الحقيقي الوحيد للتصنيف - كما تعلمنا - هو

www.scantopdf.eu

الأساس الاقتصادي). ومع هذا، لاحظت أن المكون الديني هو الطريقة الوحيدة لتفسير انجذابي للكاثوليك (الذين كانت عقيدتهم تشجع على الانتماء للجماعة والإحساس بالآخر). كما لاحظت أن كثيراً من أصدقائي اليهود أتوا من خلفية أوربية تقليدية لم تسد فيها قيم التعاقد الصارمة (على عكس من أسميهم «اليهود الجدد»، فهؤلاء كانوا أمريكيين خُلَّصًا، في رؤيتهم وفي سلوكهم).

وبدأت أُلاحظ أنماطًا من السلوك بين الطلبة، فكنت أقرر أن هذا لابد أن يكون كاثوليكيًا أو يهوديًا أو بروتستانتيًا. وحينما أراجع تخميناتي على الواقع، كنت أكتشف أنني قد وُفقت في التخمين في معظم الحالات. فبدأت أرى أن مقولتي «بروتستانتي» و«كاثوليكي» لابد أن يكون لهما مقدرة تفسيرية كبيرة (لم أكن قد سمعت بعد عن ماكس فيبر وأطروحته الشهيرة عن **علاقة الأخلاق البروتستانتية بالرأسمالية**)، وقد استمرت هذه العادة معي. كنت في ألمانيا لحضور مؤتمر عن الإسلام عام ١٩٩٦، وكانت مرافقتي فتاة صغيرة كانت تعطف عليَّ كأنها ابنتي تمامًا. وببراءة شديدة سألتها: «هل أنت كاثوليكية؟» فردت بالإيجاب وبحنق شديد كأنني أهنتها. وحاولت أن أشرح لها نظريتي عن الشخصية الكاثوليكية، وكيف أن الكاثوليك أقل فردية من البروتستانت لأنهم نظراً لانتمائهم للكنيسة فإن الفرد يدرك نفسه بوصفه عضواً في جماعة، كما أن مؤسسة الأسرة بين الكاثوليك لا تزال أكثر قوة من مؤسسة الأسرة البروتستانت وأنها حينما ساعدتني بهذا الشكل (فقد أصرت مثلاً على حمل حقيبتي) خمنت أنها كاثوليكية. ولكن برغم شرحي المطول لها ظلت حانقة عليَّ، كأنني كشفت سرّاً دفينًا من أسرارها، إذ يبدو أنها كانت تتوهم أنها علمانية تمامًا، وأنها نجحت في التخلص من ماضيها وتوابعه.

وحينما عدت إلى مصر عام ١٩٦٩ قطنت فى مصر الجديدة وأحببتها تماما لمعمارها الإسلامى البلجيكى (خاصة فى منطقه الكربه) وكنائسها المتنوعة، وميادينها، ونافوراتها، وحدائقها، ومقاهيها؛ مثل أمفتريون، وجروبى، وباليرا. كما أعجبت بتداخل المناطق السكنية مع المناطق التجارية، دون أن يقتحم الواحد الآخر. وحينما ذهبت إلى المعادى، لم تلق أى صدى فى نفسى بفيلاتها؛ كل فيلا منعزلة عن الأخرى بأشجار كثيفة. وعقدت دراسة بين الضاحيتين، وبعد أن تأملت قليلا وجدت أن الذى أسس مصر الجديدة من البلجيكيين الكاثوليك (والكاثوليكية تؤكد فكرة الجماعة والمجتمع)، وأن الذى أسس المعادى هم البريطانيون البروتستانت، وبعض أعضاء الجماعة اليهودية من أصول غربية.

www.scantopdf.eu

فكنت أقول ضاحكا: «إنني أفضل الحياة في مصر الجديدة عن أن أعيش في أرض المعادي»، (وهي تنويعة كوميدية على عبارة أرض الميعاد!).

خلاصة الأمر أنني اكتشفت الدين كمقولة تحليلية وليس مجرد جزء (غير حقيقي) من بناء فوقي ليس له أي أهمية في حد ذاته، ويمكن تفسيره (كشفه - فضحه) في إطار العناصر الاقتصادية، وأن المكون الديني ليس مجرد قشرة وإنما هو جزء من الكيان والهوية. وهكذا اهتزت معادلة أن البناء الفوقي «إن هو إلا تعبير عن البناء التحتي»، وزادت الثغرة التي تفصل الإنسان المركب عن الواقع المادي البسيط اتساعًا، وزادت فاعلية الأفكار (عالم الروح) في تفسير ظاهرة الإنسان. وكانت رسالتي للدكتوراه، في أحد جوانبها، هي محاولة لتطبيق هذه الثنائية المتعارضة، حيث قارنت بين وليام وردزورث، صاحب الوجدان التاريخي «الكاثوليكي»، ووولت ويتمان، صاحب الوجدان المعادي للتاريخ البروتستانتي (وهو ما سأتناوله بشكل تفصيلي في جزء لاحق من هذه الرحلة).

وكنت، كما أسلفت، قد بدأت أشعر بأن مقولة الدين ذات فعالية في الواقع المادي الصلب وليست جزءًا مغلقًا من عالم الغيب، أي أن الدين أصبح تدريجيًا في تصوري جزءًا من الكيان الإنساني التاريخي ليس منفصلاً عنه. ولذا، بدأت أتعرف على التجربة الدينية الإسلامية لأفهم منطقها الداخلي. وكانت مقابلتي مع مالكولم إكس الزعيم المسلم لها أعمق الأثر. كان مالكولم **x** يسمَّى مالكولم ليتل Little وحذف اسمه الأخير وأحل محله حرف x (باعتبار أن هذا هو الاسم الذي منحه إياه الرجل الأبيض)، ثم اختار اسم «الحاج مالك الشباز» بعد اعتناقه الإسلام. وبعد وفاته، طلب مني أحد كبار المؤرخين الأمريكيين السود (جون هندريك كلارك John Hendrik Clarke) أن أكتب دراسة عن دور الإسلام في حياته. لم أكن أعرف الكثير عن الإسلام (إلا ما يعرفه أي مسلم يمارس شعائر عقيدته دون تعمق في الأبعاد الفلسفية والمعرفية). ولكن بعد قراءة سيرة مالكوم **x** (الحاج مالك الشباز) أدركت مدى عمق أثر الإسلام فيه كمثالية مجاوزة لعالم المادة، كما أدركت دور الإسلام التنويري التثويري في حياته. كان مالكولم **x** يعمل قوادًا ومهربًا للمخدرات، أي أنه كان يعيش مستوعبًا بشكل شبه كامل في عالمه الأمريكي، خاضعًا تمامًا للدولارية (هكذا كان يشير إلى النظام الرأسمالي). وحينما دخل السجن، قام المسلمون السود بإقناعه بالدخول في الإسلام ففعل. وبدأت حياته في التغير، وبدأ يدرك عالمية الرؤية الإسلامية للإله، والطبيعة الفريدة لله باعتباره بعيدًا كل البعد، قريبًا كل

www.scantopdf.eu

القرب في آن واحد (تتواتر في السيرة عبارة «أعرف أن الله قريب» كلازمة)، كما أدرك الحاج مالك الشباز الطبيعة الجماعية للإسلام (في مقابل الفردية الأنانية في المجتمع الأمريكي) ورفضه للتجسيد والعنصرية. وتصل سيرته الذاتية إلى لحظة القمة، التحول الثوري الكامل، في أثناء حجه إلى مكة، في عالم البراءة الجديد، في مدينة مكة المكرمة، حيث يكتشف نزعات مثالية داخله، كما يكتشف إمكانية تحقيق المساواة دون إلغاء التنوع. وحينما شعر بذلك، تجاوز الحاج مالك كرهه للبيض، وعاد إلى الولايات المتحدة لينظم حزبًا جديدًا يجمع بين البيض والسود في رفضهم للدولارية، فحصدته الرصاصات الغادرة (كان عنوان المقال الذي كتبته «الإسلام كأنشودة رعوية في سيرة مالكوم إكس الذاتية». وقد نشرته في كتابي الفردوس الأرضي وسأتناوله بالتفصيل فيما بعد).

الفردية والنسبية

الحضارة الغربية الحديثة - في تصوري - هي حضارة النموذج العقلاني المادي (لا العقلاني وحسب، كما سأبين فيما بعد). إنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا - العلم - السيطرة على العالم) هي نتاج رؤيتها المادية، التي مكنتها من استبعاد كثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (غير المادية) وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط). ولكن إخفاقاتها التي لا تقل ضخامة (الأزمة البيئية - الحروب العالمية - فقدان الاتجاه وتحول الوسائل إلى غايات - ظهور العبثية والعدمية) هي أيضًا نتاج رؤيتها المادية. وعادةً ما نجد أن الإيمان بقيمها هو في جوهره إيمان بكفاءة النموذج المادي (في تجلياته المختلفة: الليبرالية الفردية أو الفاشية الشمولية أو الاشتراكية الجماعية أو البراجماتية والنيتشوية الداروينية) في تفسير الواقع وفي تحريكه. وبطبيعة الحال لم أشكل - بإيماني بالعقلانية المادية - أي استثناء لهذه القاعدة. فتبني النموذج المادي كان يعني في واقع الأمر تبني النموذج الغربي (الماركسي في حالتي).

والفرق الشاسع الذي يفصل بين ما يبشر به النموذج (مثالياته التي أومن بها) وبين الواقع الغربي كما خبرته، كان يزعزع من قبضة هذا النموذج. فعلى سبيل المثال، كنت أتصور، شأني شأن الكثير، أن الحضارة الغربية هي حضارة الفردية، وأن حضارتنا هي الحضارة الشرقية الجَمعيّة. هكذا تعلمنا، وهكذا أدركنا الكون (وطبعًا كانت هناك

www.scantopdf.eu

الأطروحات «العلمية» الجاهزة التي تفسر هذا : اقتصاد رأسمالي - فكر حركة الاستنارة - المسيحية الغربية . . . إلخ). ولكنني حينما ذهبت إلى هناك، لاحظت أن ثمة نمطية مذهلة في أشكال الحياة، وفي الأنماط الإنسانية. وهو أمر قد رصده علم الاجتماع الغربي، خاصةً بعد ظهور علوم متخصصة في التحكم في السلوك الإنساني، سواء في العمل أو في الحياة الخاصة، التي قامت بترشيد حياة الإنسان وضبطها وفقًا لخطة محددة (نوم - إفطار - عمل) بحيث أصبح كل شيء مجهزاً مسبقًا، حتى الإجازات والأفراح بل والمآتم، مجهزة ومنظمة ومخططة. يوجد الآن وظيفة «مخرج فرح» (وهي وظيفة بدأت تظهر في بلادنا أيضًا)، ينظم لك كل شيء، وصاحب الشأن نفسه لا يستطيع أن يغير أي شيء .

تم أول احتكاك لي بالنمطية الشديدة التي تسم الحياة في الولايات المتحدة، بشكل فجائي، في أواسط الستينيات، حين قمت برحلة بالأتوبيس عبر الولايات المتحدة (من نيويورك إلى منيسوتا) استغرقت يومين. وكان الأتوبيس يقف في محطات بها فروع من مطاعم هوارد جونسون، فكنا ننزل وتأتي الجرسونات ويبتسمن ويقدمن لنا الطعام الذي نطلبه. أكلت الطعام بشهية المرة الأولى، وشكرتهن على الخدمة الممتازة. ولكني لاحظت أن الأتوبيس يقطع مئات الأميال ويقف كل مرة في إحدى المحطات فنذهب إلى فرع مطعم هوارد جونسون، وكان له نفس المدخل ونفس قائمة الطعام ونفس المعمار، فتأتي الجرسونات ويبتسمن نفس الابتسامة ويقدمن نفس الطعام الذي له نفس الطعم. وأصبح كل شيء مضبوطًا تمامًا، يمكن التنبؤ به بكل دقة. في المرة الرابعة، تحققت من حجم كارثة التنميط، فكنت أشيح بوجهي عن الجرسونة، حتى لا أرى ابتسامتها «مدفوعة الأجر»، وأقذف بالطعام البلاستيك في جوفي دون حب أو كره، وذلك حتى لا أموت جوعًا .

وفي حفلات الكوكتيل التي كنت أحضرها، كنت ألاحظ حرص العاملين على أن يخطبوا ود مرءوسيهم بشكل قاتل. بل كان عليهم إثبات أن حياتهم العائلية مستقرة، وأن زوجاتهم يوفرن لهم الاستقرار الكافي في حياتهم حتى لا يعوقوا مسيرة الإنتاج والعمل، أي أن الحياة الخاصة توظف في خدمة الحياة العامة (ولذا كانت زوجات المرءوسين يحرصن على الحديث مع الرئيس أو زوجته ليبرهنَّ على أن كل شيء تمام التمام !) .

وقد حدث العكس تمامًا لي حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩، ودعوت أنا وزوجتي عضوات هيئة التدريس في كلية البنات وأزواجهن لطعام العشاء في منزلي،

www.scantopdf.eu

وفوجئت بأنهن جميعًا تقريبًا حضرن مستقلات. وتناولنا طعام العشاء وتحدثنا في كل شيء. وحينما تأملت في الواقعة وجدت أن حياتهن العامة بالنسبة لهن لاعلاقة لها بحياتهن الخاصة، وأن رقعة الحياة الخاصة لها حرمتها وخصوصيتها وفرديتها وأنه لايجوز بأي حال جرها جرًا للحياة العامة، وبهذا أكدت كل أستاذة فرديتها واستقلالها، وقدسية حياتها الخاصة!

كنت أقابل كثيرًا من الأمريكيين يغيرون ملبسهم ومأكلهم وسلوكهم حسب ما يمليه الإعلام، بل وينسخون ما جاء في بعض الكتالوجات، مما كان يثير ضحكي أحيانًا وحزني أحيانًا أخرى. وهذا دعاني للقول بأن ما يسود في الولايات المتحدة ليس الفردية وإنما البراجماتية. والإنسان البراجماتي يتصور أنه يؤكد ذاته الجوانية ولكنه ينتهي بالتكيف مع ما حوله وبالاستجابة المباشرة لما يأتيه من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية، فيعيد صياغة نفسه بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات. وكما أشرت من قبل عرَّف أحد العلماء الغربيين الحداثة بأنها «المقدرة على أن يغيِّر الإنسان قيمه بعد إشعار قصير». وهذا يتنافى مع ما تعلمناه من أن الإنسان الغربي إنسان فاوستي، بروميثي، يقف وحيدًا في الكون يملي إرادته، عالمه الداخلي من صنعه، وهو يحاول في الوقت نفسه أن يفرضه على العالم الخارجي من حوله. لم أجد شيئًا من هذا (إلا في الأعمال الأدبية أساسًا). بطبيعة الحال، كان هناك الشخصيات الفاوستية النيتشوية، التي تلتهم الآخرين. لكن الغالبية الساحقة من الناس، التي ليست عندها مقدرات نقدية عالية ووعي بالذات، في حالة عدم ثقة بالنفس تستمد صورتها لنفسها من الإعلام الذي كان آخذًا في التوحش والتغول.

وفي تصوري أن معظم المجتمعات الإنسانية في الماضي كانت تحاول إدخال الطمأنينة على قلب الإنسان بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة (وهو توازن فقده بسبب إنسانيته ووعيه). فطور الإنسان عبر تاريخه كثيرًا من الطقوس هدفها هو تأكيد الاستمرار في حياته وتفسير الانقطاعات المختلفة فيها. ولعل الأسرة هي أهم المؤسسات التي طورها الإنسان ليدخل الطمأنينة على قلبه. أما المجتمعات الحديثة (خصوصًا المجتمع الأمريكي) فقد جعلت الإنتاجية والحركية هدفها. ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف النقيض من الفرد المنتج الحركي (فالقلق، كما يقول ماكس فيبر، يولد نزعة إمبريالية في الإنسان تجعله يود غزو العالم وتملكه وهزيمته والهيمنة عليه وعلى نفسه ليثبت لنفسه

www.scantopdf.eu

تفوقه فيحقق شيئًا من الاتزان). والمجتمع الأمريكي هو مجتمع القلق، يتحدث عن الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله في سوق العمالة في مرحلة مبكرة للغاية. وفي سن الثامنة عشرة لابد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه. وطبعًا هناك التآكل الكامل للأسرة التي سماها عالم الاجتماع الأمريكي كريستوفرو لاش «مرفأ في عالم بلا قلب». هذا الفرد المنعزل الذي لا يشعر بأي اطمئنان يترك وحيدًا أمام آلاف الاختيارات والإعلانات، والذي يلتهمه الإعلام الكفء التهامًا، لا يجد أي جماعة مرجعية، موضع ثقته ومصدر شرعيته وتضفي معنى على وجوده، وتساعده على اتخاذ القرار.

قمت بعقد مقارنة (في عقلي) بين الأنماط الأمريكية حولي والأنماط المصرية التي عرفتها في مصر (حتى أواخر الستينيات)، وجدت أن عالم الإنسان المصري أكثر امتلاءً وأكثر صلابة، فهو قادر على الحب وعلى الكره، وعلى التعاون والتآمر، وعلى أن يسترجع ذكرياته وأن يتحمس لوطنه وذاته. وهو لا يصدق كل ما يُقال له بسرعة، بل تجده يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ليتحقق من صدق ما سمع في إذاعة مصر. أما الإنسان الأمريكي، فهو مؤمن تمامًا بكل ما يُقال له، وما يُقال له هو كبسولات إعلامية تزيده تبعية خارجية وهشاشة داخلية.

وحينما درست الأدب الأمريكي (وبخاصة شعر وولت ويتمان)، لاحظت هذه الظاهرة الغريبة: أن كلاً من الذاتية المتطرفة وذوبان الذات في الكل (الطبيعة - الكائنات الأخرى - الولايات المتحدة الأمريكية) يتعايشان، برغم تناقضهما، جنبًا إلى جنب، وهو ما سميته حينذاك التأرجح بين التمركز حول الذات (بالإنجليزية: سوليبسيزم solip-sism) والموضوعية المتطرفة (بالإنجليزية: إكستريم أوبجكتيفيتي extreme objectivity). وبدأت ألاحظ أن المجتمع الحديث الذي يزعم أنه يدافع عن الفردية يقوم في واقع الأمر بهدمها وتذويبها، وباقتحام عالم الإنسان الجواني (وهذه ثنائية أساسية في الحضارة الغربية الحديثة، ظلت عالقة في ذهني تطلب تفسيراً، وأسميها الآن التمركز حول الذات الذي يؤدي إلى التمركز حول الموضوع). وأضرب مثلاً بتقاليع الملابس نصف السنوية (شتاءً وصيفًا)، وكيف أن من يقرر أن يرتدي رداء حسب «آخر موضة» هو إنسان متمركز حول ذاته يود تحقيقها بكل قوة، ولكن المفارقة أنه حين يفعل ذلك يكون قد تخلى عن فرديته تمامًا لأن عليه أن ينفذ أوامر مصمم الأزياء بحذافيرها لأن «الموضة كده السنة دي»، أي أنه

www.scantopdf.eu

يتمركز حول الموضوع. وفي إحدى دراساتي عن العلمانية الشاملة أبين أن هذا نمط أساسي في الحضارة الغربية الحديثة. وأضرب أمثلة من كثير من المجالات الفكرية والاجتماعية. وهكذا، اهتزت مقولة ثالثة أو رابعة من مقولاتي المرجعية (وقد تدعمت كل تخميناتي حينما بدأت أقرأ أعمال هربرت ماركوز وبعض علماء الاجتماع الغربيين الذين يدرسون ظاهرة التنميط والاغتراب والإنسان ذي البُعد الواحد، وهم كلهم لا يرون علاقة ضرورية بين التحديث والفردية، بل يرون أن التحديث في بعض مراحله ودرجاته يقضي على الفردية). وقد وصف ماركوز المجتمعات الغربية المتقدمة بأنها مجتمعات يسود فيها ضرب من «غياب الحرية في إطار ديمقراطي سلس معقول» (بالإنجليزية: سموث ريزنابل ديموكراتيك أن فريدم smooth reasonable democratic unfreedom)، أي أنها مجتمعات شمولية نجحت في أن تجعل الجماهير تستبطن الرؤية السائدة في المجتمع، وتسلك حسبها دون قمع بوليسي براني، بحيث يرى الإنسان أن الهدف من الحياة هو زيادة الإنتاج والاستهلاك.

وفي محاولة تفسير هذه الظاهرة وجدت أن النسبية المعرفية والأخلاقية التي كان من المفروض فيها أنها ستحرر الإنسان وتفسح له المجال لتأكيد فرديته، أدت إلى العكس. فالنسبية تنزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) وتجعل كل الأمور متساوية، ومن هنا فالظلم مثل العدل، والعدل مثل الظلم، والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له. فيصبح من العسير للغاية، بل من المستحيل، على الإنسان الفرد أن يتخذ أي قرارات بشأن أي شيء، ويصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسيّا. فالنسبية قوضت الإنسان/ الفرد من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أي قرار وإن كانت، في الوقت ذاته، قادرة على تسويغ أي شيء، وكل شيء.

لقد فرغت النسبية الإنسان الأمريكي من الداخل وتركته في مهب الريح، فإن قرر الفرد شيئًا كأن يجاهد أو حتى أن يحب فتاة، فإن الشك يزحف إلى قلبه على الفور، ويبدأ في التساؤل عما إذا كان القرار الذي اتخذه سليمًا مائة بالمائة، أم ماذا؟ وكيف ستكون استجابة الآخرين له؟ وكل هذا يصيبه بالشلل الكامل ويقع في الغالب في مخالب ما أسميه «الإمبريالية النفسية» التي جعلت من الإنسان النسبي المتردد فريسة سهلة لمخططاتها (والتي سأتناولها فيما بعد). وبدلاً من أن تجعل النسبية من الإنسان شخصية ثورية،

www.scantopdf.eu

جعلته شخصية محافظة رجعية قادرة على التكيف في الأعم والأغلب. ولكن في بعض الحالات تظهر - كما أسلفت - شخصيات نيتشوية تجعل من نفسها البداية والنهاية، ولكن هذا الأمر ينطبق على المثقفين أكثر من غيرهم، أما بالنسبة لعامة الناس، فتآكل المعايير الأخلاقية والاجتماعية السائدة في مجتمعاتهم، تتركهم بلا معيارية، فتميد الأرض تحت أقدامهم فيزدادون تعصبًا وانغلاقًا على ذاتهم، بحثًا عن مركز ثابت وعن قدر من اليقين. (بل وأذهب إلى أن السعار الجنسي والاستهلاكي في المجتمع الحديث هما في بعض جوانبهما تعبير عن رغبة إنسانية في الوصول إلى نقطة ثبات يقينية في عالم النسبية السائل). وهذا الوضع هو الذي يفسر هيمنة فلسفة رجعية مثل البراجماتية وسيادة الجو السياسي المحافظ في الولايات المتحدة، بل وعدم الاكتراث بالعملية السياسية (إذ يتبادل الجمهوريون والديموقراطيون سدة الحكم، برغم عدم وجود اختلافات نظرية وعملية بينهما).

ويمكن تشبيه ما يحدث للإنسان الغربي الحديث في عالم النسبية بما كان يحدث لي حينما أذهب للسوبر ماركت لشراء مستلزمات المنزل (في حالة انشغال زوجتي). كانت زوجتي تعطيني قائمة المشتريات، فأذهب لسوبر ماركت حجمه حجم مدينة دمنهور، يحوي سلعًا لا حصر لها ولا عدد. فإن قررت تكشف الجديد أضيع تمامًا، فالجديد مسألة يومية. وإن اخترت بحزم عدم الضياع وتنفيذ ما جاء في القائمة بحذافيره، تنشأ مشكلات جديدة، من بينها معرفة مكان السلعة في هذا الخضم العميق، فكان عليّ أن أذهب لقراءة اللافتات على الممرات التي تخبرك أن هذا الممر خاص مثلاً بالمعلبات، وهذا خاص بالمنظفات . . . إلخ. ولكن إن فشلت في تصنيف السلعة (وهذا عادةً ما كان يحدث) أضطر للذهاب لمكتب الاستعلامات الذي عادةً ما يعطيني هذه الإجابة المبهمة: «إن كانت عندنا فستجدها في ممر رقم ٥» على سبيل المثال (معظم العاملين في السوبر ماركت من طلبة المدارس الذين يتقاضون الحد الأدنى، ولا يعملون بشكل دائم وليس عندهم خبرة). فأذهب إلى هناك وأبدأ في البحث عنها، فإن وجدتها فسأكون من المحظوظين. ولكن هناك مشكلة أخرى، وهي أن «الجديد» يكون قد ظهر، وزوجتي لا تواكب التطور لأنها كانت هي ذاتها تدرس. فكانت إن طلبت سيريال cereal معينًا، وتذكر لي الماركة أذهب لأجد الصنف وقد انقسم فجأة إلى عدة أقسام: محلى بعسل النحل أو مضاف له فيتامين، وهذان مقسمان بدورهما إلى صنف عادي، وصنف متميز محبب للأطفال. ولكن هذا

www.scantopdf.eu

الأخير قد ينقسم إلى عدة أقسام : على شكل حروف أبجدية أو على شكل ديناصورات. وكان شراء الزيتون مشكلة حقيقية، فتبدأ بشراء برطمان زيتون، وبعد شهر تجد أنه أصبح سوبر زيتون، وبعد شهر آخر يصبح إكسترا سوبر زيتون، وهكذا إلى أن يخيل لك أن حجم الزيتونة أصبح بحجم رأس الإنسان أو ربما الكرة الأرضية. أمام هذه الاختيارات الكثيرة، كنت أقع في حيرة شديدة. فأجد نفسي مضطراً للاستماع لصوت ما داخلي (هو عادةً صوت آخر إعلان سمعته) أو أختار أي شيء بشكل عشوائي أو أهاتف زوجتي لتصدر لي الأوامر وتعفيني من مسئولية الاختيار. وهكذا بدلاً من أن تحقق لي الوفرة حرية الاختيار، سلبتني إياه وأذعنت وتكيفت دفاعًا عن نفسي.

والقصة التالية تلقي مزيداً من الضوء على هذه المشكلة. يوجد محل للأطعمة في نيويورك يسمَّى زابارس Zabars عنده قسم خاص للقهوة : جميع أنواع القهوة التي تطرأ ولا تطرأ لك على بال، عددها ما يقرب من أربعين. ذهبت مرة لشراء قهوة منه أنا وصديقي كافين رايلي وأخذنا نتناقش في أي قهوة نختار، واكتشفنا أنه يمكن اختيار نوعين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ونخلطها. فقلت : لمَ لا نجرب كل الخلطات ؟ وبالطبع نسينا القهوة وجلسنا ندرس الاحتمالات المختلفة فوَجدنا أنه كي يجرب الإنسان كل الأنواع ويقارنها ليختار النوع الأمثل له، فإنه سيحتاج لحياته كلها. ولكن المشكلة أنه بعد أسبوع واحد من الدراسات المقارنة المكثفة فإنه سينسى طعم القهوة رقم ١ وعلاقتها برقم ٢ وعلاقتهما برقم ٣ وعلاقة كل هذا برقم ٥ - ٦ - ٧، فما بالك بحياته بأسرها ! إلى جانب أن الإنسان المتذوق نفسه يتغير مذاقه بتغير حالته الجسدية والذهنية. فكأن اختيار أحسن قهوة ممكنة مسألة مستحيلة، وعلى المرء أن يقبل بما يعرف أو بما يخبره به معارفه وأصدقاؤه، «واسأل مجربًا ولا تسأل طبيبًا»، بدلاً من «اللي يعيش ياما يشوف واللي يجرب يشوف أكتر».

وتظهر هذه النسبية بشكل طريف في علاقتي بصديقي كافين رايلي حين نود الخروج معًا في نيويورك. ونبدأ بمناقشة هل نذهب إلى السينما أو المسرح، فإن كان المسرح فأي المسرحيات، ومزايا كل واحدة منها وهكذا. مرة قررنا الخروج لتناول طعام العشاء، وبدأ يتحدث عن البدائل المختلفة ومزايا كل : الأكل الهندي والأكل الصيني والأكل الإسباني، بل هناك سلسلة من المطاعم في شارع برودواي تقدم أكلاً صينيًا، إسبانياً، إذ يبدو أنه مع هجرة أعداد كبيرة من البشر من أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة هاجر معهم أعداد

www.scantopdf.eu

من الصينيين الذين كانوا يعيشون في أمريكا اللاتينية وطوَّروا هذا النوع من الطعام. ثم تطرق ثانيةً إلى الفرق بين الأكل الصيني والهندي والتايلاندي، وبدأ يتحدث عن طعام مملكة نيبال، وتوجه نحو مكتبته ليُحضر كتابًا في الموضوع. فصرخت زوجته فينا أنها جائعة، وأنها ترغب في أكل أطعمة بحرية، بدأ كافين يتحدث عن البدائل مرة أخرى، ولم تُحسم المسألة إلا حينما قررت زوجته أننا سنذهب إلى أقرب مطعم!

وقد بيَّن الطب النفسي أن كثرة الاختيارات قد تؤدي إلى مشكلات نفسية. إذ يبدو أنه حينما يواجه الإنسان بمثل هذا الموقف، فعليه أن يحدد بدقة ما يريد وأن يختار بين سلع الفرق بينها طفيف، وهو يحدده بمفرده. كل هذا يتطلب جهداً نفسيّاً كبيراً، يشكل ضغطًا حقيقيّا على الإنسان لا قِبَل لكثير من البشر به.

ومن القصص الكوميدية التي تبين مدى تقويض النسبية للإنسان الغربي قصتي مع «ميس إيزو Eizo» التي حضرت معي مؤتمراً لحماية البيئة في مدينة فولكاكيير (بالقرب من مارسيليا). وكنا نتجاذب أطراف الحديث عن أشكال القهر في العالم مع مجموعة من المؤتمرين. فقالت الآنسة إيزو إنها تشعر بالاضطهاد لأنها لا يمكن أن تُختار بابا Pope (أي رئيسًا) للكنيسة الكاثوليكية في الڤاتيكان لأنها أنثى. فقلت (مازحًا بطبيعة الحال) أنا الآخر أشعر بنفس الإحساس بالاضطهاد لأنني لا يمكن أن أعيَّن بابا للكنيسة الكاثوليكية لأنني مسلم. وبدلاً من أن يضحك الحاضرون، التزموا الصمت، وإذ بي أجد أن الآنسة إيزو تعبِّر عن تعاطفها معي، ولم أدر ماذا أفعل. ولحسن حظي، تركت الآنسة إيزو المكان، فتشجع بقية الحاضرين وتساءلوا: «ألم تزد الآنسة إيزو عن حدها قليلاً؟» أي أنهم حتى أمام موقف في غاية الوضوح والتطرف، لا يتحمل أي إبهام، لم تواتهم الشجاعة الكافية ليعبِّروا عن رأيهم.

كنت مرة أجلس أمام التليفزيون البريطاني وشاهدت برنامجًا من برامج الأحاديث (توك شو talk show). وكان يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما، مع إضافة بسيطة للغاية وهو عشيق الرجل (نعم عشيقه لا عشيقته) الذي يعيش معهم تحت سقف نفس المنزل، ولكن بموافقة الزوجة والأطفال. وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقية، وهي أن جميع أعضاء الأسرة موافقون على هذا الوضع الشاذ. فمن ناحية توجد الموافقة (وهي الشرط الأساسي والوحيد لأي علاقة جنسية في العالم الغربي [ولذا يُشار إليه

www.scantopdf.eu

بعبارة «كونسسوال سكس consensual sex » وهي من كلمة «كونسنسوس consen-sus» وتعني «إجماع»] أو ربما من كلمة «كونسنت consent » بمعنى «اتفاق» [والكلمتان على كلٍّ من نفس الأصل]، فهي ممارسة جنسية تتم باتفاق الطرفين، ولذا فهي شرعية لا شأن للمجتمع بها). ومن ناحية أخرى، يوجد الشذوذ الذي يسم هذا الوضع ! ولكن لا توجد أرضية متجاوزة (دينية أو أخلاقية أو إنسانية) يؤمن بها الجميع ويمكن الوقوف عليها والإهابة بها، ويمكن أن تزودهم بمعيارية ما. لكل هذا كلما كان أحد الحاضرين يحتج على شيء، كان الزوج، الذي أحضر عشيقه ليعيش معه يرد بكل ثقة، بأن زوجته موافقة وسعيدة وأن أولاده أيضًا موافقون وسعداء، وأي تدخل في شئونهم سيكون إهدارًا لحريتهم وحقهم في الاختيار. ويبدو أنهم في الغرب يشجعون الآن قيمتين أساسيتين، حولوهما إلى معيارين : الحساسية واتساع الأفق، بمعنى أن الإنسان يجب أن يكون حساسًا تجاه الآخرين (بالإنجليزية : سنستف senstive) فلا يؤذي مشاعرهم بأي شكل، بل عليه أن يتحلى بسعة الأفق (بالإنجليزية : برودمايندیدنس broad-mindedness) وأن يتقبل كل أشكال السلوك مهما كانت غرابتها وشذوذها. وغني عن القول إن مثل هذه المعايير تفتح الباب على مصراعيه لتقبل كل شيء أو أي شيء، فمن يُحب أن يوصف بأنه غليظ الطبع ضيق الأفق ؟! ظل النقاش دائرًا على شكل حلقتين كل حلقة فيهما مغلقة على نفسها، إلى أن اكتشف أحد الحاضرين الأطفال وأنهم ليسوا في سن يسمح لهم بالاختيار، وبالتالي، فإحضار الأب لعشيقه ليعيش مع أسرته فيه تدمير لحقهم في الاختيار. وتنفس الجمهور الصعداء، إذ وجدوا أرضية فلسفية تستند إلى حرية الاختيار، ولكنها في الوقت نفسه تعطيهم الحق في الهجوم على الشذوذ، فشنوا هجومهم بشجاعة بالغة، ولزم الرجل وعشيقه الصمت. ولكن المذيع، حتى يستعيد المنظور النسبي، قال: «برغم كل شيء لابد أن نهنئ فلانًا وفلانًا على شجاعتهما وقبولهما الحضور لهذا البرنامج».

وقد صاحب النسبية شيء مناقض تمامًا، وهو الرغبة العلمية الصارمة المتطرفة في أن يصل المرء إلى اليقين العلمي الموضوعي الكامل بخصوص كل شيء، بما في ذلك الأمور الإنسانية، وألا يقنع بقدر إنساني معقول من المعرفة. وتفترض هذه الصرامة العلمية أن يكون في إمكان المرء أن يعبِّر بدقة عما يريد، وأن يعرّفه بصرامة بالغة، فما لا يمكن التصريح به لا يوجد، فالتعبير عن العواطف هو مجرد جمل «شبه إخبارية» (كما يقول

www.scantopdf.eu

الوضعيون المنطقيون) لا يمكن تصديقها أو تكذيبها. (وهذه ازدواجية أساسية أخرى في الحضارة الغربية الحديثة: التأرجح بين الشك الكامل واليقين الكامل، وبين اللغة الأيقونية الخاصة واللغة العلمية الرياضية). وقد تم ترشيد اللغة الإنجليزية بحيث أصبحت لغة دقيقة ومنطقية وصلبة للغاية لا يوجد فيها مجال للأسرار أو المناطق الرمادية. أذكر مرة أن جاءتني إحدى صديقات زوجتي وكانت على وشك الطلاق من زوجها، وأرادت أن تأخذ رأينا في الموضوع. وجلست وعرضت حالتها بطريقة لا مجال فيها للتردد أو للظلال، ولا تبين هل هي إنسان يتعذب، أو إنسان يشعر بالسعادة التي تأتي من التحرر من عبء يثقل كاهله. ولذا لم يكن هناك ما أقوله سوى أن أشير إلى أن مهارتها اللغوية وتملكها لناصية اللغة الإنجليزية قد جعلاها تلخص حالتها بطريقة لا تدع مجالاً للاستئناف أو الاجتهاد. فعرضها كان أشبه بمرافعة المحامي الحاذق منه بحديث إنسان لا يزال متردداً في اتخاذ قراره يبحث عن النصح والمشورة.

ونفس ارتباط النسبية المعرفية (السائلة) بالوضعية المنطقية الصارمة (الصلبة) يظهر في هذه القصة التي توضح ما أرمي إليه. كنت في حفل زفاف إحدى صديقات زوجتي، وكان من ضمن الحاضرين فتاة بلغت بها النسبية والوضعية المنطقية مبلغًا كبيراً ومتطرفًا. وحاولت أن أبيِّن لها أن التواصل الإنساني لا يتطلب دقة في الحديث تحول لغة الحوار الإنساني إلى معادلات رياضية، فالتواصل يتطلب سماحة الآخر وكرمه. كما أن أي حوار يستند إلى مجموعة من التعميمات المشتركة التي لا يبوح بها أحد برغم وجودها. ولكن الفتاة أصرت على أن كل شيء يجب أن يتم تقريره بوضوح.

في اليوم التالي، تصادف أن كنت أمام مكتبة الجامعة واستوقفتني نفس الفتاة دون أن تتذكرني أو تتذكر حوار الليلة السابقة وسألتني عن الوقت مستخدمة العبارة التالية: «هل تعرف الوقت؟ دو يو هاف ذا تايم؟ Do you have the time» فأجبتها: «نعم أعرف الوقت»، وسرت إلى حال سبيلي وهي حائرة من سلوكي هذا. وبعد عدة خطوات توقفت، وعدت إليها، ثم قلت ضاحكًا: «إن الدقة البالغة في التعبير تؤدي إلى مثل هذا في الأمور الإنسانية، فقد سألتني عما إذا كنت أعرف الوقت أم لا، فكانت إجابتي على قدر سؤالك». ثم بينت لها أنه في إطار الدقة البالغة المطلوبة، هذه الإجابة تكفي، بل إن أكثر من هذا يعد تطفلاً. ولذا كان ينبغي عليها أن تقول «إن كنت تعرف الوقت، فهل يمكن أن تخبرني به؟» ساعتها وساعتها فقط كان يمكن أن أخبرها بالوقت، وضحكنا ثم افترقنا.

www.scantopdf.eu

وقد أدى الغلو في النسبية إلى أن تصبح مفاهيم إنسانية فطرية وأساسية مثل الإحساس بالسعادة أو البؤس هي الأخرى محل تساؤل بسبب اختفاء المعايير وفقدان المقدرة على الحكم. وقد نشرت مجلة تايم أخيرا مقالة بعنوان «صحيح الجسم، وثري، وغير سعيد» ورد فيه أن السؤال التالي طُرح على الأوربيين : هل أنت سعيد ؟ فظهر أن أكثرهم ثراءً وتقدمًا الألمان، هم أكثرهم بؤسًا، وأن أكثرهم فقرًا الأيرلنديين والبرتغاليين، هم أكثرهم رضًا. وقد قامت إحدى شركات استطلاع الرأي بتطوير ما سمته «مؤشر الأمل Hope Index». فوجدت أن التشاؤم بخصوص المستقبل يسود أوربا، خاصةً في البلاد التي تقع على شاطئ الراين (في ألمانيا حيث يصل معدل دخل الفرد ٢٨ ألف دولار) على حين وجدوا أن ٤٢٪ في جنوب إفريقيا و٦٤٪ في البرازيل (حيث يصل دخل الفرد ٣٥٠٠ دولار و٤٤٠٠ على التوالي) ممن شملهم الاستطلاع عندهم أمل في المستقبل. وتضيف المقالة أن مقاييس النمو الإنساني التي طورتها هيئة الأمم غير كافية، فقد اعتمدت الدخل والتعليم ومتوسط العمر بحُسبانها مقاييس أساسية. ويقول الكاتب : إنه حسب هذا المعيار، فإن أمة من المصابين بالأمراض العصبية، حصل كل أفرادها على شهادة دكتوراه ومتوسط أعمارهم ٩٠ عامًا ستحصل على الدرجات النهائية. لأن المرض النفسي ليس جزءًا من المعايير. ثم يختتم المقال بإشارة إلى أعضاء قبيلة الباكوتو التي تعيش في الكونغو والتي وصفت **الإنسان الغربي** بأنه «خفاش يطير بتوتر ولكنه لا يعرف إلى أين».

وكثيراً ما كنت أحدث أصدقائي الأمريكيين عن مدى البؤس الذي يعيش فيه الإنسان الأمريكي في أشد مجتمعات الأرض ثراءً (بيت يبعد عن محل عمله - علاقات أسرية مفتتة - علاقة واهية بمحيطه الإنساني - إيقاع حياة رهيب لا يترك مجالاً لأي شيء إنساني - ساعات عمل قاسية - نسبة طلاق عالية - برامج تليفزيونية باهتة) وأن هذا يؤدي إلى الإحساس القاسي بالوحدة. فكان ردهم دائمًا كيف تعرف هذا ؟ لعلهم سعداء بكل هذا؟ ومن تكون أنت لتصدر حكمًا على حياتهم الداخلية ؟ فكانت الحيرة تصيبني في بادئ الأمر، ولكنني تعلمت أن آتي بالإحصاءات التي لا علاقة لها بالوضع الاقتصادي : عدد الساعات التي يقضيها المواطن الأمريكي مع أطفاله - تلك التي يقضيها مع المعالج النفسي، الذي أصبح جزءًا عاديًا من الحياة اليومية في الولايات المتحدة (٣٥٪ من شباب الدولة التي يُقال لها متقدمة مصابون بأمراض نفسية). كما كنت أشير إلى الاستخدام المذهل للحبوب المهدئة والمنومة وأدوية الاكتئاب النفسي، وإلى انتشار المخدرات في

www.scantopdf.eu

المجتمع الأمريكي، وإلى أن منحنى استخدامها آخذ في الصعود برغم الحرب المستمرة ضدها. أذكر كل هذه الأشياء بحُسبانها مؤشراً موضوعيّاً على بنية البؤس العميقة التي تخبئها بنية السعادة السطحية وعلى رغبة الإنسان الأمريكي في أن يستعيد بعض التوازن الذي فقده، ولا يمكن تخيل سعادة دون توازن. هذا في مجتمع جعل تحقيق السعادة الأرضية هدفه الأساسي والوحيد ويُفترض فيه أنه نجح في تحقيق أهدافه.

وعلاوة على هذا، كان لابد من استخدام كلمات مثل «ضياع» و«اغتراب» لفهم هذه الظواهر، أي كان لابد من استخدام مجموعة من المصطلحات لا علاقة لها بعالم الاقتصاد (المادي) ولكنها وثيقة الصلة بعالم الروح والمعنويات. كما أن استخدام «الطبيعة البشرية» ذاتها كمرجعية نهائية هو أمر يقف ضد النسبية المطلقة وما يتبعها من سيولة ولا تحدد وعدم مقدرة على الحكم. ومما يجدر ذكره أن العلوم الإنسانية الغربية ترفض مفهوم الطبيعة البشرية ذاته، بحُسبانه يمثل نوعًا من أنواع الثبات، في عالم يود أن يكون سائلاً تمامًا.

ومن القصص الحزينة التي توضح غياب مفهوم الطبيعة البشرية وكيف أنها تحول الإنسان إلى شخص غير قادر على الحكم، قصة طالبتي الثورية المتميزة في جامعة رتجرز، حيث درّست بعض الوقت. كانت هذه الطالبة تحصل على تقديرات عالية في النصف الأول من الفصل الدراسي، ولكني فوجئت بأن تقديراتها بدأت تنخفض بسرعة. فاستدعيتها لمكتبي وسألتها عن السبب في ذلك. فقالت إن زوجها يحضر صديقته (أي عشيقته) معه إلى المنزل، وينامان معًا على السرير في غرفة نومها. فتضطر هي إلى النوم على الأريكة في الصالة. ولكنها بدلاً من أن تعبِّر عن أي مشاعر إنسانية فطرية، أخبرتني بموضوعية شديدة أن «الأريكة في الصالة غير مريحة، ولذا فهي لا تستطيع النوم». فأخبرتها بأن عليها إذن أن تشتري أريكة جديدة مريحة. فنظرت لي وقد أدركت أنني عرفت ما لا تريد البوح به.

ويبدو أن القانون الأمريكي نفسه، بتقبله المفاهيم النسبية، يجعل إصدار الأحكام أمراً في غاية الصعوبة. أخبرتني إحدى الزميلات أنها قررت أن تجلس على حجْر صديقها، بينما كان يقود سيارته. فأوقفهما ضابط الشرطة، الذي تبرم بمنظرهما، ولكن القانون لا يخول له أن يجرِّم مثل هذا الفعل، فأصدر للسائق تذكرة مخالفة مرورية، علي أعتبار أن زميلتي كانت تحجب الرؤية عن السائق!

www.scantopdf.eu

وثمة ظاهرة غريبة ظهرت في الولايات المتحدة وهي زيادة قارئي الطالع والكف (كان آل ريجان لهم قارئة الطالع الخاصة بهم في البيت الأبيض). كما انتشرت العبادات الجديدة (مثل عبادة الشمس أو الإيمان بالمقدرات الخارقة للهرم وعبادة جايا، أي كوكب الأرض). وفي محاولة تفسير هذه الظاهرة أذهب إلى أنه برغم تزايد معدلات النسبية فإن الإنسان كائن ميتافيزيقي، يسأل أسئلة نهائية عن معنى الكون، ولكن سقف الإنسان في العالم الغربي سقف مادي لا يسمح بوجود ثوابت أخلاقية، خاصةً مع تفشي أخلاقيات السوق. فالحداثة الغربية هي حداثة تفصل العلم والتكنولوجيا والدنيا عن الأخلاق والهدف والغاية. والنتيجة هي الإيمان بما أسميه «ميتافيزيقا دون أخلاق»، كأن يؤمن الإنسان بالأطباق الطائرة، فهذا يعطيه اليقين الميتافيزيقي الذي يبحث عنه، ولكنه في الوقت ذاته لا يُحمّله أي أعباء أخلاقية.

وهناك شكل من أشكال النسبية الأخلاقية بدأ يظهر في الغرب والشرق، وهو أن يتبنى الإنسان أكثر من نموذج. فعلى سبيل المثال يتغنى المجتمع الأمريكي بأغان تدور في معظمها حول الحب، وبخاصة الحب الرومانسي، ولكن هذا المجتمع نفسه لا يكف عن الحديث عن الصراع من أجل البقاء كقيمة أساسية. وعادةً ما يتنازع الآباء اتجاهان متناقضان في تنشئة أطفالهم: هل يحافظون على براءتهم وبالتالي رومانسيتهم، أو يعلمونهم فنون الصراع من أجل البقاء في عالم السوق والتعاقد؟ إن حافظوا على براءتهم أفقدوهم جزءاً كبيراً من مقدرتهم على الصراع من أجل البقاء، وإن فعلوا العكس، أي علموهم فنون الصراع من أجل البقاء، أفقدوهم جزءاً كبيراً من براءتهم. ويحسم بعض الأمريكيين (وكثير من البشر) هذه القضية بتبني نموذجين: واحد للحياة الخاصة والآخر للحياة العامة. ولذا كنت تجد أستاذاً للفلسفة يدعو للإباحية في فلسفته، ولكنه في حياته الخاصة يتمسك بأهداب الفضيلة التي ليس لها أي أساس في رؤيته الفلسفية. ومرة كنت أحاور واحداً من هؤلاء الدعاة للحرية الأخلاقية الكاملة والنسبية المعرفية، وكان - والحق يقال - إنساناً فاضلاً. فقال: أنا أومن بالنسبية المعرفية ومع ذلك لا يمكن القول بأنني منحل أخلاقيّا؟ فأجبته من غيظي قائلاً: «إذن ستذهب أنت إلى الجنة أما أفكارك فستذهب للجحيم».

وقد استمرت هذه النسبية في الاتساع حتى قوضت كل شيء (الإحساس بالوجود الموضوعي للعالم - الإحساس بأنه كل متكامل - الإحساس بأي قيم أو مركز) إذ

www.scantopdf.eu

اكتسحت السيولة والنسبية كل شيء في طريقها، ولم يعد هناك أي أساس لأي شيء (تسمَّى ما بعد الحداثة «ضد الأساس» [بالإنجليزية : أنتي فونديشناليزم - anti foundationalism]، فهي تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز، عالم سائل لا قوام له). ولتوضيح هذه الفكرة ذكرت في إحدى محاضراتي عن «ما بعد الحداثة» هذه النكتة المصرية الصميمة : «أراد أحد القضاة أن يوقظ ضمير الحشاش الذي مثل أمامه في المحكمة عدة مرات وسأله : لماذا بالله عليك تدخن الحشيش دائمًا ؟ فقال المتهم : حتى أنسى يا حضرة القاضي. فسأله : تنسى ماذا ؟ فأجاب : والله مانا فاكر (لا أذكر السبب)». وقد عُرِّفت العولمة بأنها تحطم كل اليقينيات والمسلمات (ومن هنا يمكن القول بأن ما بعد الحداثة هي أيديولوجية النظام العالمي الجديد).

ولعل هذا المنطق النسبي المتطرف، وهذا الإنكار للمركز والأساس، يظهران في موقف هذا الصحفي الأمريكي (خريج برنستون) الذي جاء ذات مرة إلى مكتبي بمؤسسة الأهرام حينما كنت أعمل في مركز الدراسات السياسية والإستراتيچية. وكان يرفض بحزم أي شكل من أشكال التعميم علي أعتبار أن التعميم لا يشير إلى حالات مباشرة واضحة. وعلى سبيل المثال أنكر وجود أي وطن ومن ضمن ذلك الولايات المتحدة ذاتها، لأن «الولايات المتحدة» مجرد تعميم يبتعد عن «وقائع» محددة. فهناك أرض متنوعة التضاريس والمناخ مترامية الأطراف، ومجموعات إثنية مختلفة ذات أصول حضارية متنوعة، ونظام حكم يتغيَّر كل خمسة أعوام، ومن هنا يكون تسمية كل هذا «الولايات المتحدة» من قبيل التعسف وتثبيت ما هو متغيِّر ومتحرك. ناقشته كثيراً فأخبرته أن قدراً من التعميم ضروري للتواصل الإنساني، فإدراكنا للواقع هو في حد ذاته شكل من أشكال التعميم، وأن المعرفة المطلقة للأجزاء (والشظايا) أمر مستحيل، ولكن هيهات، فإيمانه السائل بالنسبية كان يسانده إيمان صلب بموقفه النسبي (وهذه مفارقة كبرى تستحق التسجيل). فطردته من مكتبي قائلاً عليه أن يرى عملية «الطرد» هذه بحُسبانها «خروجًا» من مكتبي وحسب، إذ إن مفهوم الطرد مفهوم عام للغاية، وتعميم لا مبرر له !

وبطبيعة الحال أثرت النسبية في كثير من مجالات الحياة، خصوصًا الفنون. وبدأت في الستينيات عملية التحرر من قيود وحدود الفن، الأخلاقية والجمالية، وتزايدت معدلات الإباحية والعنف، ثم جاوزتهما عملية التحرر، إذ أصبحت تحرراً من أي قيود أو معايير.

www.scantopdf.eu

كان من أهم رواد البارتيزان ريفيو في جامعة رتجرز الفنان آندي وورهول الذي كان يوقِّع في منتصف الستينيات على علب القمامة وعلب الحساء القديمة فتتحول بقدرة قادر إلى أعمال فنية تُباع بآلاف الدولارات. وكان له فيلم يسمَّى «آلنوم»، يستمر عرضه لمدة ثلاث ساعات، عبارة عن شخص نائم يتحرك كل ربع ساعة أو عشر دقائق. كما رأيت فرقة مسرحية في نفس الفترة تسمِّي نفسها «مسرح الواقعية الراديكالية»، وكان عنوان المسرحية التي تقدمها هو «أخت فيديل كاسترو»، وكانت مليئة بالإشارات الجنسية الطفولية (من بينها عرض الأعضاء التناسلية) التي لا تهدف إلى نقل رسالة، فهدفها الأساسي هو أن تصدم الجمهور. ولكن الأدهى، ولسبب لا أعرفه حتى الآن، كان الذكور يلعبون دور الإناث، وكانت الإناث يلعبن دور الذكور. ويتم كل هذا باسم الإبداع والنسبية والحرية. وما حيَّرني كثيراً هو أن جمهور المتفرجين عبَّر عن إعجابه الشديد بهذه المسرحية، التي لا يسمع أحد بها هذه الأيام، تمامًا مثلما عبَّر عن إعجابه بفيلم «النوم».

ظل هذا التيار يتطور إلى أن عبَّر عن نفسه بشكل مثير في الآونة الأخيرة في أعمال ثلاثة فنانين دفعوا بالنسبية إلى أقصى مداها، إذ أصبحت تعني التحرر من الحدود الإنسانية ذاتها: أولهم آندريه سيرانو André Serrano. وتعود شهرته إلى «لوحة» بعنوان «فلتتبول على المسيح Piss Christ»، حيث وضع الفنان صورة المسيح على الصليب في البول. وثانيهم هو روبرت مابلثورب Robert Mapplethorpe، وهو مصور فوتوغرافي تخصص في تصوير نفسه في أوضاع جنسية شاذة تتسم بالعنف. وثالثهم وأشهرهم هو جويل/ بيتر ويتكين Joel-Peter Witkin وهو مصور فوتوغرافي يستخدم أجساد الموتى في أعماله الفنية. ومن أهم أعماله عيد المغفلين، وهو تقليد لأحد الأنواع الفنية الكلاسيكية يسمَّى «الغرور Vanitas» موضوعه الأساسي هو الغرور الإنساني وتأكيد أن كل شيء إلى زوال. وكانت اللوحة التي تدور حول الموضوع تأخذ شكل فواكه أو طعام في طبق، توضع بجوارها جماجم بشرية، وطائر ميت في طبق لتذكر الإنسان بالموت. ولكن ويتكين طوَّر طريقة التناول وحوَّلها، إذ كان يضع بدلاً من الجماجم أيادي وأقدامًا إنسانية حقيقية، وبدلاً من الطائر الميت كان يضع جثة طفل ميت (يقال إنه قام «بإبداع» هذا العمل في مشرحة!). ومن موضوعات ويتكين الأثيرة تصوير الموتى بعد أن يرتدوا بعض الملابس، وصورة رجل يضع مسماراً في قضيبه (فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يتواصل بها مع الآخرين كما يخبرنا الفنان). وقد أبدع ويتكين لوحتين/ صورتين

www.scantopdf.eu

شهريتين : صورة جنين مشوه وقد تم تثبيته على صليب، ورجل بلا رأس يجلس على كرسي. وحينما تقيأت إحدى المدعوات في حفلة افتتاح أحد معارضه، قال الفنان: «إن إحدى علامات المرأة الجميلة، أنها تحتفظ بجمالها حتى حينما تتقيأ!». وتُباع النسخة من صوره بـ ٣٥ ألف دولار (من عملائه الفنان ريتشارد جير وجون إلتون). وفي مقال عن ويتكين بدأه الكاتب بقوله: «إذا كان الفنانون يعبِّرون عن طبيعتهم من خلال صورهم، فإن ويتكين وحش بكل تأكيد».

وحياة ويتكين لا تقل وحشية أو نسبية. فحينما يجري صحافي حواراً معه فإنه عادةً ما يحدثه مرتديًا قناع زورو. وهو يعيش مع زوجته سينثيا وعشيقتها باربرا وينامون في نفس الفراش، وله ابن من سينثيا يسمى كيرسون (ولنتخيل مشكلة الهوية التي سيواجهها هذا الابن المحظوظ بالتعددية المفرطة المحيطة به، خاصةً إذا عرفنا أن الفنان يعترف أنه يمارس الجنس أحيانًا مع موضوعاته، أي جثث الموتى!). وهنا يمكن أن نثير قضية الحياة الخاصة للشخصية العامة، هل هي أمر خاص بها وحدها؟ هل إصابة نيتشه بمرض سري أثر على عقله، ولا علاقة له بفلسفته التي خرجت من تحت عباءتها كثير من المذاهب الفلسفية الحديثة؟ (وقل نفس الشيء عن تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، الذي مات هو الآخر بمرض سري).

ويصل هذا الاتجاه الفني فيما يسمى «سنف موفيز snuff movies» ولا أعرف ترجمة لهذه العبارة، ولكن لعل وصفها يعطي فكرة عن محتواها. وهي أفلام يختلط فيها العنف والجنس بطريقة متطرفة، وكثيراً ما تنتهي ببطلة الفيلم في حالة نشوة جنسية ويتم قتلها في اللحظة التي تقذف فيها. ومثل هذا المنظر يتكرر في الأفلام الإباحية «العادية»، ولكن في السنف موڤيز يتم الذبح بالفعل. نعم تُقتل بطلة الفيلم. وكان يتم الإعلان عن الفيلم بعبارة «صُوِّر في أمريكا اللاتينية، حيث العمالة رخيصة»، وكل لبيب متوحش بالإشارة يفهم. ومخرجو مثل هذه الأفلام يدافعون عنها من منظور الإبداع والحرية والثورة... إلخ. وقد قام بعض المثقفين الليبراليين المدافعين عن حرية الرأي المطلق بمظاهرة ضد دور السينما التي تعرض مثل هذه الأفلام. ولكن جريدة وول ستريت جورنال قامت بتعنيفهم لموقفهم هذا، وبينت لهم أن ما يحدث إنما هو نتيجة طبيعية للموقف النسبي المتسيب من الفن والجنس وإنكار الحدود باسم الحرية المطلقة والإبداع غير المتناهي!

www.scantopdf.eu

ومن الطريف أن انتشار فلسفة ما بعد الحداثة النسبية السائلة صاحبه ما يسمَّى بالخطاب «السياسي الصحيح» (بالإنجليزية : بوليتيكالي كوركت politically correct) وهو خطاب صلب للغاية، بل متعجرف، ويطالب المرء بألا يقول شيئًا قد يسيء لأحد أعضاء الأقليات. وكل البشر بالمناسبة - حسب تصور هذا الخطاب - أعضاء أقليات : البدينون - طوال القامة - السود - اليهود - المعوقون، وهذا يعني، في واقع الأمر، أن أعضاء الأغلبية (الواسب، أي البيض البروتستانت في حالة الولايات المتحدة) هم الوحيدون الذين يمكن إيذاء مشاعرهم. كما يعدد هذا الخطاب الأشياء الصحيحة من وجهة نظره والمواقف الواجب تبنيها، ومن ضمنها : الاهتمام بالبيئة - الاهتمام بكل الأقليات - قبول الشذوذ الجنسي بحُسبانه شكلاً طبيعيًا من أشكال التعبير عن الهوية. وبعض هذه الأفكار خيِّر ولا شك ولكن البعض الآخر يعبر عن رؤية نسبية مغالية في النسبية. ولكن المهم أن الطريقة التي يُدعى بها إلى هذا الخطاب النسبي طريقة متعصبة إرهابية.

وقد انتشر هذا الخطاب في الجامعات الأمريكية، وأصبح شيئًا مخيفًا يهدد الجميع. فعلى سبيل المثال، قامت أستاذة علم اجتماع في جامعة كاليفورنيا بتدريب الطالبات على الاستمناء (حتى يمكنهن الاستغناء تمامًا عن الرجال) وذلك في إطار مقرر كان المفروض فيه أن يتناول سوسيولوچيا الحياة الأمريكية. فاحتج أحد أولياء الأمور، فاتهم بأنه ضيق الأُفق غير قادر على تقبل الجديد. فاضطر إلى اللجوء إلى القضاء، شاكيًا من أنه يضيع ماله. فالقانون الأمريكي قد فشل تمامًا في تحديد موقف محدد من الإباحية أو العيب، وحكم المحكمة العليا يذهب إلى القول بأن الإباحي هو ما تراه كل جماعة كذلك. وهو تعريف نسبي كان من العسير تطبيقه. فهو يعني أنه حينما يشتري المرء مجلة إباحية في نيويورك ويعبر نفق لينكولن الذي يفصل بينها وبين نيوجرسي، والذي يستغرق عبوره خمس دقائق، فإنه مهدد بالقبض عليه لأنه «يخرق معايير الجماعة»، كما يقول حكم المحكمة العليا. ولكن القانون الأمريكي يعترف بالمواطن بحُسبانه دافع ضرائب (بالإنجليزية : تاكس بيير tax payer) وبالحقوق الدستورية الناتجة عن ذلك. لذا لا يمكن لصاحبنا أن يشكو إلا على هذا الأساس.

وهناك الجانب الكوميدي للخطاب السياسي الصحيح. فمثلاً يجب ألا يقول الإنسان المتحضر «رجل الثلج» (بالإنجليزية سنومان snowman) فهو بذلك يؤذي مشاعر الإناث ويبين ضيق أفقه، ولذا عليه أن يقول «امرأة الثلج» (بالإنجليزية : سنو وومان

www.scantopdf.eu

snow-woman) أو حتى «الشخص الثلجي» (بالإنجليزية : سنو برسون snow-person) حتى لا تتضمن عبارته تمييزاً للذكور على حساب الإناث. ولابد أن يبتعد الإنسان عن أي مصطلحات معيارية كأن تقول «إن فلانًا طويلٌ»، بل عليك اللجوء إلى مصطلحات وصفية فتقول «إن فلانًا يتم تحديه رأسيًا» (بالإنجليزية : فيرتيكاللي تشالنجيد vertically challenged). بل إنهم يكتبون كلمة «نساء : ومين women» على النحو التالي womyn» لأن الكلمة الأولى تحوي كلمة men ! بل إنهم يتحدثون عن التاريخ (بالإنجليزية : هيستوري history) ويؤكدون أن المقطع الأول «هز his» ذكوري، وبالتالي يكتبون الكلمة هيرستوري (herstory) والتي يمكن ترجمتها بكلمة «تاريخه» (أو قصتها في مقابل قصته). وفي محاولتهم تحييد اللغة حتى لا تحمل أي تضمينات تقييمية فإن مؤيد الإجهاض ليس متحيزاً للإجهاض (برو أبورشان pro-abortion) وإنما هو مؤيد لحق الاختيار وحسب (برو شويس pro-choice). وبرغم أنني أتحدث عن النسبية فقد ذكرت هذا الخطاب الجديد لأنه نتيجة نزعتين متناقضتين : النسبية والرغبة في الدقة الكاملة والحياد الكامل. فالنسبية قوضت ما هو قائم من معايير، والرغبة في الدقة الكاملة والتعبير عما هو مقبول اجتماعيًا أفرزت هذه المصطلحات المضحكة.

ومع هذا ثمة لحظات كثيرة يضطر المجتمع فيها إلى أن يتخلى عن نسبيته. فعلى سبيل المثال، حينما بدأ الحديث عن استنساخ البشر، أصدر الرئيس كلينتون أمراً بتشكيل لجنة لتناقش أخلاقيات الموضوع. وقد اكتشف أمر أحد أساتذة الجامعة في كندا كان يكتب مقالات تحت اسم مستعار يطالب بعدم تجريم العلاقات الجنسية بين الرجال والصبيان القصر، إذ يرى هذا الأستاذ أن مثل هذه العلاقة فيها «إثراء» روحي للطرفين (وقد ظهر فيما بعد أن هذا الأستاذ يعمل في أوقات فراغه «بائع هوى للذكور»). فثار المجتمع على آرائه المتطرفة هذه. (ولكن تظل المشكلة ما الأساس الفلسفي لقرار كلينتون ولثورة المجتمع إذا كانت كل الأمور نسبية؟). وتوجد الآن جماعة في الولايات المتحدة تسمَّى NAM-BA، وهي جماعة تدعو إلى عدم تجريم الجماع الجنسي بين البالغين والقصر من نفس الجنس.

وثمة مقولة أخرى تعلمناها عن الحضارة الغربية أنها حضارة الإحساس (الجواني والفردي) بالذنب (بالإنجليزية : جلت guilt)، أما حضارتنا فهي حضارة الإحساس (البراني والجماعي) بالخجل أو العار (بالإنجليزية : شيم shame). والافتراض الكامن

www.scantopdf.eu

هو أن الإنسان الفرد، إنسان من الداخل ولذا فهو أكثر تحضراً، أما هذا الذي يتم ضبطه اجتماعيّا من الخارج بشكل دائم، فهو ليس كائنًا فرديّا، ومن هنا فهو إنسان غير متحضر. وقد لاحظت أن الإحساس بالذنب عند كثير من الأمريكيين كان بالفعل زائداً لدرجة تُشل عندها حركتهم ولا تدع لهم مجالاً للإبداع (وخصوصًا في إطار النسبية). وبدأت أرى أن الإنسان لو تُرك وشأنه، دون مجتمع يسانده أو يردعه، فإنه يحمل عبئًا ثقيلاً يفوق طاقته.

ولكن أسطورة إحساس الفرد بالذنب هذه تبخرت هي الأخرى بغتة عام ١٩٧٧، حين انقطع التيار الكهربائي عن نيويورك بضع ساعات، وبدأ الناس، بيضًا وسودًا، يتحركون كالقطيع ويقومون بنهب كل ما تقع عليه أيديهم دون سبب واضح. (لوحظ أن بعض السيدات من الطبقات الثرية البيضاء كن يشتركن في كرنفال السرقة). ابتسمت ساعتها وأخبرت أصدقائي الأمريكان أن الليلة السابقة شاهدت تبخر إحدى الأساطير الحاكمة والمقولات المرجعية في حياتنا جميعًا، وعلينا ألا نتحدث عن «الضبط الفردي الجواني» وإنما عن «الضبط العلمي وربما البوليسي الكهربائي». فالكهرباء الجمعية (رمز وجود الدولة والسلطة المركزية) قد حلت تمامًا محل الضمير الفردي، أي أن الجيسيلشافت حققت النجاح الكامل والنصر الساحق.

وأرجو ألا يُفهم من قولي أنني أتصور أن كل الأمريكيين غارقون في النسبية أو بدون أي إحساس بالذنب، فهذا تبسيط مخل للأمور. فأنا أدرس الواقع على مستوى النموذج المهيمن، أما حياة الأفراد المختلفين فهي بلا شك أكثر تركيبًا وأكثر إنسانية من النموذج. فالإنسان العادي لا يزال يستمد يقينه من المسيحية أو بقاياها أو مقولاتها وقيمها بعد علمنتها، والإحساس بالذنب (الذي يفترض وجود معايير ثابتة خارج كيان الفرد) موجود وبكثرة (خاصةً بين البروتستانت). وهناك كثير من المفكرين الغربيين والأمريكيين ممن أدركوا خطورة هذا النموذج وحاولوا بشتى الطرق تهذيبه، وهناك من رفضه تمامًا فهمش نفسه. ونقدي للحداثة الغربية متأثر إلى حدٍّ كبير بالنقد الغربي لهذه الحداثة، وهو نقد أفدت منه أيما إفادة. كما أرجو ألا يُفهم أنني من دعاة الإطلاق في الرأي. فأنا أومن بما أسميه «النسبية الإسلامية»، وهو أن يؤمن الإنسان بأن هناك مطلقًا واحداً هو كلام الله، وما عدا ذلك فاجتهادات إنسانية، أي أن كل ما هو إنساني نسبي في علاقته بالمطلق الذي

www.scantopdf.eu

يوجد خارجه. **كما أنني أومن بما أسميه «الإنسانية المشتركة»** التي تجمعنا كلنا والتي تترك مع هذا مجالاً للاختلاف، وهو مفهوم ينجز كل هذا دون السقوط في هوة النسبية العدمية. (وهذا ما سأتناوله فيما بعد).

والنسبية بدأت تستشري في بلادنا أيضًا. ويلاحظ أن كثيراً من المثقفين اليساريين ممن اكتسحتهم النسبية تخلوا عن عقيدتهم الثورية وعن الإيمان بمقدرة الإنسان على التجاوز (فالتجاوز يفترض اختياراً، والاختيار يعني مفاضلة، والمفاضلة لابد أن تستند إلى معايير ثابتة) وأصبحوا من دعاة الأمر الواقع والتطبيع وقبول ما هو قائم، أي أصبحوا من عمد الرجعية الصلبة. ولكن، وهذا هو الغريب، يوجد فريق لا يزال متمسكًا بقيم مثل الخصوصية القومية المستقلة وضرورة مقاومة إسرائيل، ومع هذا تجده ينطلق من الإيمان بنسبية كل الأشياء، فمثل هؤلاء غير مدركين أنه إذا كانت حقّا كل الأمور نسبية (كما يدَّعون) فلا سبيل لتفضيل شيء على آخر، فالتغير يكتسح كل شيء في طريقه. فالالتزام في الأدب مثلاً يفترض وجود قيم إنسانية ثابتة، لابد أن يدافع عنها الأديب الملتزم، فإن كانت كل الأمور نسبية، فالالتزام يصبح مساويًا لعدم الالتزام، والدفاع عن الإنسان يصبح مثل الهجوم عليه. وقد حضرت ندوة عُقدت ضد التطبيع حضرها ممثلو الأحزاب المصرية، بما في ذلك اليساريون، الذين قدموا ورقة عن الهوية المصرية قالوا إنها كانت فرعونية ثم قبطية ثم عربية ثم حديثة! وقولهم هذا يؤكد الصيرورة المستمرة، بل وتنتهي الهوية بشيء عام لا لون ولا طعم ولا رائحة له يسمَّى «حديثة». فأشرت إلى أنه مع هذه التغيرات المذهلة لمَ لا نتصور تحول هذه الهوية إلى هوية شرق أوسطية، كما ينادي الصهاينة! أليست كَل الأمور نسبية؟ أليست كل الأمور متساوية؟ فاستشاط كاتب الورقة غضبًا، وأصدر أصواتًا عصبية حيث كان يجلس، لكن للأسف كانت الجلسة على وشك الانتهاء، ولذا لم يكن هناك أمامه مجال للرد وتوضيح وجهة نظره.

العقلانية المادية؟

أذكر جيدًا أنني حينما بدأت التدريس في مصر عام ١٩٦٩، ألقيت محاضرة عن الاستنارة الغربية نوهت فيها بمناقبها الكثيرة بما في ذلك عقلانيتها. ولكنني في المحاضرة التالية كنت أُدرِّس الشعر الإنجليزي الحديث، وكان الدور على قصيدة ت. س. إليوت:

www.scantopdf.eu

«الأرض الخراب The Waste Land»، فتحدثت عن أزمة الإنسان الحديث وتفتته واغترابه عن ذاته وعن الطبيعة. وبينما كنت ألقي محاضرتي، أحسست بسخفي الشديد، إذ تساءلت كيف يمكن لحضارة الاستنارة أن تنتهي في ظلمات الأرض الخراب؟ كيف يمكن أن أبشر بالحضارة الغربية بعَدِّها حضارة الاستنارة من الساعة التاسعة حتى الساعة التاسعة وخمس وخمسين دقيقة، ثم أُبيّن لنفس الطالبات أنها في واقع الأمر حضارة الأرض الخراب من الساعة العاشرة حتى الساعة العاشرة وخمس وخمسين دقيقة ؟ كان لابد أن أجد تفسيراً كليّا قادراً على تفسير هذا التناقض، هذه الوحدة الكامنة خلف التنوع، بل خلف التناقض الظاهر الواضح ! (ومن الطريف أنني كنت أكتب قصائد حداثية فأجد نفسي أكتب عن موضوعات حداثية، مثل غربة الإنسان وخيانة القيم . . . إلخ، وهي موضوعات ليس لها علاقة بتجربتي الشخصية وتتنافى مع رؤيتي الخاصة. وحيث إنني لم أكن أنوي نشر هذه القصائد فالمسألة لا يمكن تفسيرها على أساس أنني أبحث عن رضا النقاد أو القُراء، ولابد أن تُفسَّر من الداخل، إذ يبدو أن خطاب الحداثة له حدوده وسقفه، فهو ليس مجرد أسلوب وإنما طريقة في الرؤية) .

وكنت مرة أجلس مع ابني، وهو بعد طفل، نشاهد التليفزيون، وسمع من المذيع أن الغرب قد راكم من الأسلحة النووية ما يكفي لتدمير العالم أكثر من مائة مرة، ففوجئت به يضحك ملء شدقيه ويخبرني بشيء بدهي فاتني، وهو أنه بعد تدمير العالم مرة واحدة، لا يمكن تدميره مرة ثانية، ساعتها ضحكت أنا الآخر، وتدعمت شكوكي بخصوص عقلانية العالم الغربي «المتقدم» .

وكما أسلفت، كنت أحضر حفلات **البارتيزان ريفيو**، وأتحدث مع كبار الكُتَّاب ومع الشباب من المثقفين الواعدين، فكنت أحدثهم بحماسة شديدة (بوصفي واحداً منهم) عن الإنسانية (الهيومانية) humanism والاستنارة والعقل والعقلانية الغربية، فكنت أفاجأ بأنهم يتحدثون عن اللاعقل واللاوعي والمخدرات والعبث والأساطير والفن البدائي والوعي الكوني والذوبان في الكون والبنيوية. كما لاحظت تزايد الإشارات السلبية إلى مفهوم الإنسانية الهيومانية والإشارات الساخرة إلى الاستنارة. واكتشفت ساعتها أنني الداعي الوحيد للاستنارة في صحراء اللاعقل الجليدية، واكتشفت أن الحضارة الغربية قد دخلت مرحلة جديدة. فالحضارة الغربية التي عرفناها ونشأنا على الإعجاب بها، بعقلانيتها وإنسانيتها، كانت تعالج سكرات الموت بعد أن سدد نيتشه ضربته الأولى، وبعد

www.scantopdf.eu

أن توالت الضربات من كيركجارد ونيتشه إلى هايدجر وهتلر. (من المؤلم حقّا أن بعض دعاة الاستنارة والتغريب في مصر يترجمون أعمال نيتشه وكيركجارد وهايدجر ويعرضونها بحُسبانها كلها جزءاً من عملية «التنوير»).

ومما ساعد على تعميق شكوكي بخصوص النموذج المادي الغربي، دراستي للحركة الرومانتيكية، فهي في جوهرها كانت ثورة على الفكر العقلاني المادي الآلي الذي ساد في أوربا في القرن الثامن عشر بعد ظهور البورجوازية واقتصاديات السوق والتبادل والتجارة الحرة (دعه يمر) وهيمنة أسطورة أن حركة السوق حركة آلية تلقائية تؤدي إلى خدمة الصالح العام للجميع: التاجر - المستهلك - العامل، هذا لو تركت الأمور وشأنها. وهي رؤية مغالية في الفردية ومغالية في الذرية تطورت فيما بعد لتصبح النظرية الداروينية. أدرك الشعراء الرومانسيون وحشية هذه الرؤية واختزاليتها، فهي لا ترى الإنسان بحُسبانه كائنًا حضاريّا مركبًا له قلب وعقل، وحواس ووجدان، وإحساس بذاته وبالآخر، فرد لكنه يكتسب إنسانيته من جماعته وحضارته، يعيش في المقدس وغير المقدس، وإنما تراه بحُسبانه إنسانًا طبيعيًا يعيش بمفرده له حاجات مادية وخاضع لقوانين معروفة مسبقًا. والحركة الرومانتيكية هي محاولة لرد الاعتبار لتركيبية الإنسان أمام اختزالية العقلانية المادية الآلية. والماركسية هي امتداد للحركة الرومانسية، فهي على سبيل المثال تؤكد الجدل، جدل الإنسان والطبيعة، وتؤكد مقدرة الإنسان على التجاوز، وفي كثير من كتابات ماركس وإنجلز نقد عميق لفكر القرن الثامن عشر ولعقلانيته وماديته الآلية. والماركسية مثل الرومانسية، تهتم بحالة البراءة الأولى، المجتمع الشيوعي، وترى أن النهاية لابد أن تشبه البداية وأن التراحم سيحل محل التعاقد! (ولكن ماركس بالذات كان حريصًا على أن يلبس كل هذا لباس العلم والموضوعية والحياد!).

وهكذا اكتشفت بالتدريج أن العقلانية الغربية ليست شيئًا مطلقًا، وإنما يتخفى وراءها نموذج مادي يساوي بين الإنسان والطبيعة ومن هنا يساوي بين العقل الإنساني والطبيعة المادية، ويجعل هذا العقل يذعن للطبيعة في نهاية الأمر إلى أن تصبح مهمته الوحيدة أن يرصد الطبيعة ويعرف مسارها وقوانينها ليطبقها على الإنسان، ومن هنا سميتها العقلانية المادية (التي تسمَّى عادةً الاستنارة) التي عبَّرت عن نفسها في مقدرة العقل (المادي) على التجريب، ثم انفصلت النزعة التجريبية عن العقل، وأصبح العقل يلهث وراء التجريب المنفصل عن القيمة الإنسانية والأخلاقية، يتلقف نتائجه دون تساؤل عن المعنى والغاية.

www.scantopdf.eu

وأعتقد أن هيمنة العقل المادي في الغرب هي المسئولة عن الكره العميق الذي يشعر به الكثيرون تجاه العرب، وعن عدم فهم قضية حق العودة للفلسطينيين وأهمية القدس. فاللاجئون الفلسطينيون يعيشون في وضع مادي مزر ومع هذا يرفض غالبيتهم التعويضات السخية التي يمكن أن تُدفع لهم، وهم لا يزالون يتذكّرون بيوتهم في حيفا ويافا ويحتفظون بمفاتيحها، وهم مستمرون في مقاومة العدو عبر ما يزيد عن مائة عام. وعلاوة على كل هذا يصرون على أن مدينة القدس هي عاصمة دولتهم (برغم أن كلنتون ـ عرض كما يقال ـ على السلطة الفلسطينية ٣٠ بليون دولار). كل هذا، من منظور العقلانية المادية، يبدو أمرًا متخلفًا لاعقلانيًا يثير الغيظ والحنق، إذ كيف يمكن لهؤلاء الفقراء أن يتمسكوا بتراثهم ومقدساتهم برغم كل الإغراءات المادية ؟ ما الذي يجري في عقولهم ؟

وقد وصفت العقل المادي - في إحدى دراساتي - بأنه يوجد داخل حيز التجربة المادية لا يمكنه تجاوزها، يسري عليه ما يسري على الطبيعة من قوانين، فهو أداة الطبيعة، يمكنه تسييرها بمقدار ما يمكنه الالتحام بها والإذعان لها. وهو عقل محايد لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بالغرض من وجود الإنسان في الكون)، أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر، فهو موصل جيد لما يدخله من معلومات ومعطيات لا يمكنه أن يتجاوزها، ولذا فهو لا يفرز سوى ما يمكن تسميته «أخلاق الصيرورة» أو «منطق الأمر الواقع» أو «موازين القوة». بل إنه معاد للتاريخ، لأن التاريخ بنية غير طبيعية غير مادية تتسم بالتنوع والتركيب والإبهام لا يمكن لهذا العقل أن يتعامل معها بكفاءة فهو يجيد التعامل مع الأرقام والكم والكثافة والحجم والوزن. ولذا فهو يتجه نحو اختزال الواقع المركب وإلى قوانين عامة تؤكد التماثل والعمومية، ولكنه في الوقت ذاته بسبب التصاقه بعالم الحواس يسقط في التفاصيل، فكأنه يتأرجح بعنف بين العام، الموغل في العمومية، والخاص الموغل في الخصوصية. فهو عقل يشبه أشعة إكس من ناحية، يمكنها أن تعطينا صورة لهيكل الإنسان العظمى لكنها لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجه الإنساني في أحزانه وأفراحه. ومن ناحية أخرى، يشبه الميكرسكوب الذي يعطينا أدق تفاصيل الخلية دون أن يمكنه أن ينقل لنا الصورة الكلية لهذا العالم. وقد خلصت من كل هذا إلى أن العقل المادي عقل عنصري إمبريالي لأنه يسقط مفهوم الإنسانية المشتركة (فهو مفهوم كلي نهائي مركب لا يمكن قياسه) ولا يجيد إلا اختزال الواقع بهدف توظيفه.

ومن ثمرات هذا العقل المادي ما يسمَّى «الترشيد»، أي محاولة توظيف الوسائل

www.scantopdf.eu

بأحسن السبل في خدمة الغايات، أي غايات. وهذا يعني أن يتعلم الإنسان كيف يبني جسراً أو طريقًا، ولا يهم إلى أين سيؤديان : إلى الجنة أم إلى الجحيم ؟ المهم هو طريقة بناء الجسر، مما يؤدي إلى عقلانية الوسائل (كيف تقتل؟) لاعقلانية الغايات (لمَ تقتل؟). هذا يعني في واقع الأمر أن رؤية عنصرية لاعقلانية يمكن أن توظف خير الوسائل العلمية والتكنولوجية (العقلانية !) في خدمة اللاعقل. (ولذا نجد أن هناك تعايشًا كاملاً بين اللاعقلانية والعلم والتكنولوجيا. ألم يفعل ذلك المجتمعان النازي والصهيوني؟! مجتمعان يستخدمان العلم والتكنولوجيا بكفاءة غير عادية، وفي الوقت ذاته يستندان إلى رؤية داروينية لاعقلانية مادية غيبية ؟) .

وحينما يتم الترشيد من خلال العقل المادي وفي إطار النموذج المادي، يصبح ترشيداً ماديّا هدفه إعادة صياغة المجتمع الإنساني (بل والإنسان نفسه) عن طريق تفكيكه وإعادة تركيبه ليتوافق مع معطيات العقل المادي. والمفارقة الكبرى أن هذا الترشيد المادي يؤدي إلى ضمور الرشد الإنساني لأنه يتطلب الانصياع الكامل لنموذج براني، مادي، وفي نهاية الأمر غير إنساني، واستبعاد كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية والإنسانية، وكل العناصر الكيفية والمركبة والغامضة والمحفوفة بالأسرار، بشكل تدريجي ومتصاعد، حتى تهيمن الواحدية المادية، ويتحول الواقع إلى مادة استعمالية، ويتحول الإنسان إلى كائن وظيفي أحادي البعد. والعولمة هي تصاعد معدلات الترشيد المادي على مستوى العالم، بحيث يصبح العالم كله مادة استعمالية، مجرد سوق ضخمة، ويصبح كل البشر كائنات وظيفية، أحادية البعد، يمكن التنبؤ بسلوكها وتوظيفها .

ولعل الولايات المتحدة هي البلد الذي تم فيه ترشيد جوانب الحياة بشكل يكاد يكون كاملاً. وكانت تجربتي مع الترشيد في بداية الأمر محصورة بالمحيط الجامعي، وهو لا يزال يتمتع بقدر كبير من الحرية والفردية. ومع هذا لاحظت أن الإعلام الأمريكي ينجح تمامًا في عزل الإنسان الأمريكي عن الأحداث العالمية (برغم تدخل الولايات المتحدة في كل أرجاء العالم). فالجرائد التي تنشر الأخبار العالمية مقصورة تقريبًا على أعضاء النخبة، أما الجرائد الشعبية والمحلية التي تقرؤها الجماهير، فهي تشير إلى «العالم» في نصف عمود، أما بقية الجريدة فهي تنشر الأخبار الخاصة بالجماعة المحلية، ولكن الجزء الأكبر مخصص للإعلانات والأوكازيونات وكوبونات الخصم وهكذا. (لا أنسى يوم ٦ من يونية سنة

www.scantopdf.eu

١٩٦٧ حين نشرت الصحيفة المحلية خبر اندلاع الحرب في ثلاثة سطور في الصفحة الثالثة، وكانت الصفحة الأولى تحمل أخباراً عن افتتاح طريق جديد !) .

وقد تصادف أنني كنت في الولايات المتحدة في أثناء انتخابات الرئاسة الأخيرة (عام ٢٠٠٠) فلم أسمع تصريحًا محدداً متبلوراً واحداًعن السياسة الخارجية، لأن القضية الأساسية التي شغلت الرأي العام الأمريكي أنذاك هي شخصية آل جور، وهل قبَّل زوجته في شفتيها أمام مؤتمر الحزب الديموقراطي بحرارة زائدة أم حرارة معقولة ؟ وهل شخصيته أقوى من شخصية چورچ بوش أم لا ؟ وحين كانوا يتطرقون للسياسة كانوا يتحدثون عن تكاليف الرعاية الطبية والضرائب، أما السياسة الخارجية فقد تلخصت في أسعار البترول المتزايدة. ولا يختلف التليفزيون عن الصحافة في تناول السياسة. وينتج عن هذا كله تبسيط الوجدان السياسي للإنسان الأمريكي، بحيث يمكن للسلطة الحاكمة أن تملي عليه ما تريد من أفكار يعتنقها بتلقائية وحرية كاملتين، فهو من أحادية البعد بحيث لا يمكنه أن يُعمل ملكته النقدية ويتجاوز الحدود البلهاء المفروضة عليه وعلى وجدانه.

وقد ازداد إدراكي لمدى سطوة عملية الترشيد (في الإطار المادي) حين عمل بعض أصدقائي في قطاع الصناعة والمال. كان أصدقائي يستيقظون في تمام الساعة الخامسة والنصف صباحًا لأن عليهم أن يكونوا في مكاتبهم الساعة الثامنة والنصف، مهما كان المنزل بعيداً. وحينما يصلون إلى هناك تصبح كل حركاتهم محسوبة، فعليهم أن يكتبوا تقارير باستمرار عن إنجازاتهم. وكل واحد منهم يحتفظ بملف يرصد فيه كل ما فعله بل وأي مذكرة كتبها، مهما كانت تافهة. وتحدد المؤسسة لهم نوعية ردائهم. ففي الماضي كان على الجميع أن يحضر إلى العمل مرتديًا بذلة وكرافتة، ثم صدر الأمر بأن العاملين بوسعهم أن يحضروا يوم الجمعة مرتدين رداء غير رسمي (بالإنجليزية : كاچوالcasual) ثم أضيف له يوم الاثنين. ولكن حين لاحظ أحد المديرين أن العاملين يرتدون البلو چينز بحُسبانه كاچوال، أرسل تعميمًا يخبرهم أن الكاچوال لا يعني البلو چينز. وأخبرني صديقي أنه حينما يسافر إلى الخارج لأداء مهمة مرتبطة بعمله، فالليموزين يحضر في الوقت المحدد، ويسرع بصاحبنا إلى المطار وهو يحمل أوراقًا عليه أن يقرأها وهو في طريقه إلى الاجتماع. وحينما يصل إلى الفندق، تكون الشركة قد أعدت له جدوله. وإذا كان صاحبنا مسافراً من الولايات المتحدة إلى إنجلترا، فعليه أن ينام في الطائرة حتى يهرع إلى الاجتماع ولا يضيع أي وقت في أي تفاصيل غير عملية، مثل الاسترخاء بعض

www.scantopdf.eu

الوقت. وإذا كانت المسافة طويلة فهو يحق له أن يستخدم غرفة الألعاب الرياضية الخاصة بالفندق على حساب الشركة حتى يستعيد نشاطه، أي أن الاسترخاء هو الآخر قدتم حسابه وترشيده. كما أخبرني صديقي أن المؤسسة التي يعمل فيها حينما تلاحظ أن العاملين فيها بدأ ينال منهم التعب ويظهر عليهم التوتر، فإنهم يحضرون طبيبًا نفسيًا ليعقد معهم اجتماعات كي يعلمهم فن الاسترخاء.

ومن أهم جوانب هذا الترشيد أنه لا يوجد أي ضمانات للعاملين أن يستمروا في وظائفهم، إذ يمكن أن يصل أي منهم خطاب في أي لحظة يخبره بالاستغناء عن خدماته، وهذا طبعًا يعني أن كل العاملين يعيشون في قلق دائم، الأمر الذي يزيد من إنتاجيتهم (فالإنسان السعيد المتزن مع نفسه تقل إنتاجيته بعض الشيء، إذ تصبح أهدافه في الحياة إنسانية). وكان صديقي حينما يستيقظ في الصباح يشرب معي القهوة، يجري إلى الكومبيوتر ليرى أي رسائل قد وصلته، ويرسل هو بدوره بضعة رسائل، وكان يتحدث بسرعة حتى يمكنه الاستفادة بالوقت إلى أقصى حد. ومرة حينما أوصلني لمحطة القطار وصلنا مبكرين ٩ دقائق، فضحك وقال الآن عندي ٩ دقائق لا أعرف ماذا أفعل فيها، إذ إنني لم أخطط لها. وحينما تقرر الشركة تحسين صورتها الإعلامية، فعليها أن تقوم بفعل الخير بطريقة مؤسسية، فيأتي أحد المحاسبين ويحدد الميزانية المطلوبة (تبرع لمتحف - لمرضى السرطان - لمكتبة) ولكن عليه أيضًا أن يحسب العائد الإعلامي للشركة، والأرباح التي تحققها من إجراء ذلك والإعفاءات الضريبية . . . إلخ.

في هذا الإطار لننظر إلى التليفون المحمول (رمز الوجاهة وأداة الثرثرة في بلدنا). في الولايات المتحدة المحمول هو واحد من أهم آليات الترشيد، إذ إن المؤسسة يمكنها أن تصل إلى كل العاملين في أي زمان ومكان، مما يعني مزيدا من تآكل رقعة الحياة الخاصة ومزيدا من توظيفها وحوسلتها.

وحين لاحظت تصاعد معدلات الاستهلاكية في المجتمعات الغربية كنت أظن في بداية الأمر أن الهدف من زيادة الاستهلاك هو زيادة الإنتاج، وهي بالفعل كذلك. ولكن حينما تعمقت في الأمر قليلاً وجدت أنها تهدف أيضاً للترشيد في الإطار المادي والضبط الاجتماعي وتنميط المجتمع. فتصعيد معدلات الاستهلاكية، وجعل هذه المعدلات هي المقياس الذي يحدد الإنسان من خلاله مدى سعادته ومكانته الاجتماعية، هو شكل من

www.scantopdf.eu

أشكال الترشيد الجواني. فالاستهلاكية (وصورة الإنسان الاستهلاكي التي تروج لها من خلال الإعلانات التليفزيونية وأفلام السينما) تحدد للفرد كل شيء ولا تتركه يحلم أحلامًا خاصة، ولا أن يسلك سلوكًا خاصًا. والموضة (أي الأزياء) التي أصبحت واحدة من أهم الصناعات وأضخمها أكبر دليل على ذلك. فالهدف المعلن من تغيير الأزياء هو إعطاء الفرصة للمرأة أن تجدد ملابسها وتغيرها حسبما يروق لها فتعبر عن ذاتها. ولكنك لو دققت في الأمر لوجدت أنه لو أن كل امرأة أطلقت فعلاً لخيالها العنان وعبَّرت عن ذاتيتها خارج كل حدود وقيود وسدود فإن مصانع الملابس الحريمي ستتوقف عن الدوران لأن سلوك المرأة لن يمكن التنبؤ به، ولن يمكن للاحتكارات أن تعد خطوط الإنتاج المليونية ! هنا تأتي مهمة الأزياء، في أنها تقوم بضبط سلوك المرأة (ترشيده) فتضع لها الخطوط الأساسية التي تتحرك داخلها (الفستان الطويل الأخضر هو الموضة هذا العام، أما العام الذي يليه فهو القصير الأزرق، وفي العام الثالث فإنه إما يكون كذا أو كذا، «ودوخيني يا لمونة»!) وبذلك يمكن التنبؤ بسلوكها ويمكن استيعابها (واستيعاب أحلامها) داخل خطوط الإنتاج.

بل إن الاستهلاكية تحاول أن تحدد للمرء الغاية من حياته، أي أنها تضع الإنسان وأسرته داخل قوالب محددة، بحيث تصبح كل جوانب حياته الجوانية مضبوطة من خلال حلم الاستهلاك، أي أنه إذا كان الترشيد البراني يشيئه من الخارج، فالترشيد الجواني يشيئه من الداخل، أي أنها عملية ضبط كاملة. وأعتقد أن هذا هو العمود الفقري لقوة الولايات المتحدة، فهي قد نجحت في ضبط سلوك هذه الملايين وتوجيهها نحو هدف واحد: الإنتاج والاستهلاك، وجعلتها تستبطن هذه المُثُل كهدف نهائي وكمصدر للمعنى، وتسعى من أجلها.

وأعتقد أن المعونات الأجنبية تلعب دوراً مماثلاً بالنسبة لدول العالم الثالث، فهي دول تضم شعوبًا ذات أصول إثنية ودينية مختلفة، والأفراد فيها لهم ولاءات متعددة وأحلام مختلفة: فردية وعائلية وقبلية وقومية ودينية. كل هذا يجعل من عملية ضبط مثل هذه المجتمعات مسألة صعبة. ومهمة المعونة الأجنبية هي محاولة ترشيد المجتمع (أي تنميطه) حتى يمكن ضمه إلى السوق العالمي ويتمتع بحرية التجارة، أي أن تصب السلع من الدولة المتقدمة إلى الشعوب التي تم ترشيدها. وهوليود تلعب دوراً أساسيًا في عملية الترشيد هذه، فهي تعيد تشكيل صورة الإنسان وأحلامه. حينما قررت اليابان فتح السوق الماليزية

www.scantopdf.eu

للسيارات اليابانية أعطتها معونة لبناء طرق حديثة حتى يمكن القضاء على شبكة الطرق القديمة غير الرشيدة، التي لا تسمح بمرور السيارات اليابانية. وقل نفس الشيء عن الطعام والشراب والملابس وحياة الإنسان العامة والخاصة. وألا يمكن أن نرى الرعاية الطبية الشاملة وما يسمَّى بمعونات البطالة هي محاولة من جانب الدولة أن تجعل المجتمع خاضعًا لحد أدنى من القواعد ويتمتع بحد أدنى من الثبات. وأن هذا الحد الأدنى من الثبات يضمن الحد الأقصى من الحركية للشركات والمؤسسات الخاصة، التي يمكنها أن تفصل أي عدد من الأشخاص في أي وقت، ولكنهم مع هذا لا يضيعون تمامًا، بل يظلون رصيداً «عاملاً» لهذه الشركات والمؤسسات الخاصة، تستدعيه عند الحاجة، ومن ثم تضمن لنفسها الاستمرار، والمقدرة على الانكماش.

ويرى مفكرو مدرسة فرانكفورت (الذين تأثرت بفكرهم) أن تصاعد معدلات الترشيد في المجتمع أدى إلى اختفاء الفرد والقيم الثقافية والروحية والعقل النقدي القادر على التجاوز حتى أصبح الإنسان كائنًا ذا بعد واحد (هربرت ماركوز) يرتبط وجوده بالاستهلاك والسلع (فهو إنسان متسلع متشيئ)، عقله أداتي، ينشغل بالوصف والرصد وإدراك الآليات، عاجز تمامًا عن إدراك الأغراض النهائية. أما هوركهايمر وأدورنو، فقد ذهبا في كتابهما **ديالكتيك الاستنارة**، إلى أن الترشيد المتزايد للعلاقات الاجتماعية في العصر الحديث قد أدى إلى تناقص استقلال الفرد وإلى تنميط الحياة. وأدى، في نهاية الأمر، إلى الشمولية والعنصرية.

ويرى أدورنو أن الترشيد كان من المفروض أن يؤدي إلى الحرية والعدالة والسعادة ولكنه أدى إلى نتيجتين متناقضتين (انعتاق الإنسان من أسر الضرورة المادية، وتسلعه وتشيئه في الوقت نفسه). بل إن العقل نفسه (أداة الترشيد) تحول إلى قوة غير عقلانية وغير رشيدة تسيطر على كل من الطبيعة والإنسان، أي أن ترشيد الحياة الاجتماعية أدى إلى نفي الحرية تمامًا، كما يتبدى ذلك في قوى التسلط الرشيدة الحديثة.

إن هيمنة العقل المادي في رأي مفكري مدرسة فرانكفورت تؤدي إلى اختفاء الفرد والقيم الثقافية والروحية والعقل النقدي وإلى تناقص استقلال الفرد وإلى تنميط الحياة، وأدى في نهاية الأمر إلى الشمولية والعنصرية وإلى الواقع المتمثل في أن الرأسمالية ترجمت مُثُل الاستنارة إلى واقع معسكرات الاعتقال المنضبط والتي تمت فيها الهيمنة

www.scantopdf.eu

الكاملة على الإنسان (ولذا يشير ماكس فيبر إلى الحياة الحديثة التي تم ترشيدها بأنها «القفص الحديدي») .

وحينما سُئل فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك) عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلاً : «هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشري. فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتي تمثل شيئًا أعلى مرتبة منهم، شيئًا مفعمًا بالأسرار. وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصي، إذ إنني أشير إلى أي شيء مطلق ومتجاوز. هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس، وأفقًا لهم، ولكنها فُقدت الآن. وتكمن المفارقة، في أننا بفقداننا إياها نفقد سيطرتنا على المدنية، التي أصبحت تسير بدون تحكم من جانبنا. فحينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بعده الإنساني» .

ومن أهم صفات العقل المادي أنه يرد كل شيء بما في ذلك الإنسان إلى المادة، أي أنه يقوم بتفكيك الإنسان إلى عناصر مادية أولية. وكما يقول المفكر الاستناري هلفتيوس : «نحن من صنع الموضوعات المحيطة بنا، ليس إلا»، أو كما قال كابانيس (وهو مفكر استناري آخر) : «إن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة وكما تفرز الكبد الصفراء». وهذا طبعًا تبسيط مخل للفلسفة المادية، ولكن هذه المادية الآلية هي النموذج الفعال الذي يسيطر على الإعلام والجماهير وعلى كثير من صُناع القرار، على الأقل في رؤيتهم للجماهير. هذه الرؤية العقلانية المادية للإنسان تنزع عنه القداسة وتفقده مركزيته في الكون، وهذا ما أدركه فلاسفة «الاستنارة المظلمة» .

ولعل هوبز هو أول مفكر وضع يده على الأطروحات المظلمة في العقلانية المادية (ولذا فنحن نتحدث عن «الاستنارة المظلمة») حين أعلن أن حالة الطبيعة (وهي حالة الإنسان بعد انسحاب الإله من الكون) هي حالة من حرب الجميع ضد الجميع، فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان وسيتم التعاقد الاجتماعي بين البشر لا بسبب فطرة خيرة فيهم وإنما من فرط خوفهم وبسبب حب البقاء فينصِّبون الدولة التنين حاكمًا عليهم حتى يمكنهم أن يحققوا قدرًا ولو قليلاً من الطمأنينة. وقد اتفق معه ماكيافللي في هذا، أما إسبينوزا (ونيوتن) فقد قدما عالمًا آليًا تمامًا، تنحل فيه الذات في الحركة الآلية للكون، وبيَّن لوك أن العقل صفحة

www.scantopdf.eu

بيضاء تتراكم عليها المعطيات، وبيَّن بنتام أن أخلاق الإنسان مرتبطة بدوافعه وغرائزه وحسب، وبيَّن الماركيز دي صاد وداروين وفرويد أن الإنسان يحوي الذئب داخله وخارجه، وذاته المتحضرة هذه إن هي إلا قشرة واهية تخبئ ظلمة تمور داخل الإنسان ومن حوله. كما بيَّن يونج أنه لا توجد ذات فردية وإنما ذات جمعية تحوي نماذج أصلية. وقد بلور نيتشه أسس الاستنارة المظلمة حين بيَّن أن الذات هي إحدى الحيل التي يحاول بها الضعفاء أن يخنقوا براءة القوة وتلقائيتها. فالذات هي التي تفرض المُثل الوهمية للوجود الثابت على عالم الصيرورة، وهي في واقع الأمر مجرد قناع أو زخرفة أو توليفة أيديولوجية أو وضع لغوي يسمَّى الذات ليس له وجود حقيقي. ولا يختلف ماركس عن هذا كثيراً في بعض كتاباته «العلمية»، فهو أيضًا يرى أن الذات الإنسانية المستقلة وهم ما بعده وهم، فوراء الواجهة الفردية المستقلة يوجد الصراع الطبقي ووسائل الإنتاج. ويصل هذا الاتجاه إلى قمته في فكر فوكوه ودريدا وما بعد الحداثة، فلا توجد ذات ولا موضوع، فالذات إن هي إلا حفرية من حفريات الماضي ووهم من الأوهام واختراع من اختراعات الهيومانية الغربية، والموضوع لا يمكن الوصول إليه وإنما هو نتاج الألعاب اللغوية والقوة.

وقد ترجمت الاستنارة المظلمة، التي هي في جوهرها عملية تفكيك وهدم للإنسان ورده إلى ما هو دونه، إلى مجموعة من الصور المجازية الأساسية لعل أولها هو مقارنة إسبينوزا للإنسان بقطعة حجر قذفت بها يد قوية، وبينما تدور الحجرة المسكينة في الفضاء تظن أنها تتحرك بكامل إرادتها. ثم قام نيوتن بمقارنة العالم كله (بما في ذلك الإنسان) بآلة دقيقة: ساعة تدور دائمًا وعلى نفس الوتيرة دون تدخل إلهي أو إنساني. وقد اكتشف لوك أن الآلة التي توجد خارجنا توجد داخلنا أيضًا، فقارن العقل بالصفحة البيضاء التي يتراكم عليها كل ما يصلنا من معطيات حسية ثم تتحدد هذه المعطيات آليًا من تلقاء نفسها حسب قانون الترابط، فتتكون الأفكار البسيطة ثم تتلاحم الأفكار البسيطة لتصبح مركبة. وقد أدى كل هذا إلى ظهور الصورة التي يطرحها آدم سميث للإنسان الذي يعيش في عالم تنظمه اليد الخفية وسوق ينظم قوانين العرض والطلب الآلية.

شهد القرن التاسع عشر انتقالاً تدريجيًا من الرؤية الآلية إلى الرؤية العضوية، ولذا تحل الصور المجازية العضوية (أي المستمدة من عالم الحيوان والنباتات) محل الصور المجازية الآلية (المستمدة من عالم الآلات). وقد بيَّن داروين أن جنة روسو الطبيعية ليست مثل الآلة، وإنما هي غابة تصل إلى حالة التوازن من خلال اليد الخفية للصراع من أجل البقاء

www.scantopdf.eu

والبقاء للأصلح. وإذا كان نيوتن قد جعل من العالم ساعة والإله صانع الساعات الماهر، ففي عالم داروين تختفي «مقدمة السماء» تمامًا. فأصول الإنسان - حسب تصوره - تعود للقردة العليا والزواحف. ثم جاء فرويد وأثبت علميّا وموضوعيّا (حسب تصور البعض) أن الغابة تقع، في واقع الأمر، داخل الإنسان على شكل لا وعي مظلم ولبيدو متفجرة. وقد أجرى بافلوف تجاربه على الكلاب، ثم طبق نتائج تجاربه على الإنسان، فقد كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين الواحد والآخر، فكلاهما تحكمه ظروفه الموضوعية. **وهكذا يتم تفكيك الإنسان تمامًا، وهكذا يتحقق الوعد ما بعد الحداثي أن الإنسان لن يعبد شيئًا ولا حتى نفسه، وأنه سينزع القداسة عن كل شيء، حتى نفسه.** ويحتفي فوكوه بكل هذا من خلال صورة لا هي بالعضوية ولا بالآلية إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التي خطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواج !

وأنا أذهب إلى أن العقل العربي الإسلامي يمارس خوفًا من العقلانية المادية (باستنارتها المظلمة) أساس الحداثة الغربية، التي عرفتها من قبل بأنها ليست تبني العلم والتكنولوجيا وحسب، وإنما تبني العلم والتكنولوجيا المنفصلين عن القيمة والغاية الإنسانية، بحيث يمكن تنميط الواقع (الطبيعة والإنسان) وترشيده عن طريق فرض القوانين العلمية عليه، بهدف إدارته وتوظيفه على أحسن وجه بحُسبانه مادة استعمالية. وفشل الحداثة عندنا هو نتيجة هذا الخوف، فالإنسان العربي، مسلمًا كان أم مسيحيّا، يحتفظ بمنظومته القيمية التي تجعله إنسانًا متعدد الأبعاد، له ذات حقيقية، وظاهر وباطن يدرك الواقع من خلال مقولات إدراكية وتحليلية وتصنيفية تتعامل مع صفات المادة مثل الطول والعرض والسرعة والكثافة والعمق، ولكنها لا تستبعد ما عدا ذلك من صفات، ومن هنا فهو لا يسقط في الأحادية المادية التي ترد العالم بأسره إلى مستوى واحد، أي المستوى المادي (على عكس العبادات الآسيوية الحلولية التي تذيب الفرد في المجموع والجزء في الكل، وهي عبادات ليس لها منظومات أخلاقية واضحة، وتميل الأخلاق فيها إلى أن تصبح بروتوكولات. ولذا فهي تربة صالحة لأن تولِّد الإنسان ذا البعد الواحد، الملائم تمامًا للحداثة الغربية بعقلانيتها وواحديتها المادية).

وقد كتبت مقالاً أدبيّا اجتماعيّا عن هذه القضية عنوانه «الفتيان الغرباء الروح». وقد تناول المقال في بدايته بنية العمل الأدبي (أي النموذج الكامن فيه)، ثم تناول عدة قصص

www.scantopdf.eu

قصيرة من بينها قصة الطيب الصالح «دومة ود حامد». وينتمي راوي القصة إلى المجتمع التقليدي، أما الغريب العصري («الفتى غريب الروح») فهو لا يفعل شيئًا سوى أن يستمع بأدب جم لحديث الراوي. يبدأ الراوي برسم صورة قاتمة لمجتمع القرية التقليدي الذي تغطيه أسراب النمتة شتاءً، ويهجم عليه ذباب البقر صيفًا، أما إذا كان الوقت لا صيفًا ولا شتاءً، فلا تجد شيئًا. نحن ننام حين يسكن الطير، ويمتنع الذباب عن مشاكسة البقر، وتستقر أوراق الشجر على حال واحد، وتضم الدجاج أجنحتها على صغارها، وترقد الماعز على جنوبها تجتر ما جمعته في يومها من علف. نحن وحيواناتنا سواء بسواء نصحو حين تصحو وننام حين تنام، وأنفاسنا جميعًا تتصاعد بتدبير واحد. أما في المدينة فالأمر جد مختلف إذ يمكن للمرء أن يسمع الإذاعة ويذهب إلى السينما وأن يتمتع بنور الكهرباء. وفي تنغيم لفظي ينم على الانتماء الكامل للعالم التقليدي يقول الراوي للشاب اليافع إنه ولا شك سيرحل عن هذه القرية التي يعيش فيها الناس «على الستر»، قوم أصبحت جلودهم ثخينة من فرط المشقة، ولكنهم اعتادوا هذه الحياة، بل هم في الواقع يحبونها.

نعم سيرحل الشاب، ولكن الراوي يود أن يريه شيئًا واحدًا جوهريًا: «شيء واحد نُصرُّ أن يراه زوارنا». إنها بمنزلة المتحف، وإذا كان المتحف هو المكان الذي يحفظ فيه «تاريخ القطر والأمجاد السالفة» فإن هذا الشيء ولا شك له دلالة مماثلة، إنها دومة ود حامد، شجرة تقف شامخة برأسها إلى السماء وكأنها صنم قديم، أو مهر جامح، ضربت بعروقها في الأرض، ترسل بظلها على النهر تارة وعلى الأرض المزروعة تارة أخرى وكأنها «عقاب خرافي باسط جناحيه على البلد بكل ما فيها». والدومة لم يزرعها أحد، بل نمت وحدها، ولذا كل جيل يجيء يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده ونمت معه. ولِمَ لا والدومة تقف في عقل أهل القرية، تظهر لهم في أحلامهم ويقومون بزيارتها كل يوم أربعاء ليذبحوا نذورهم وهي تستجيب لدعائهم وتنجز لهم المعجزات؛ كأن تشفي المرضى الذين استعصى عليهم الداء أو الذين لا يمكنهم أن يصلوا إلى الطبيب في المدينة.

الدومة إذن رمز لجماعة تقليدية، متماسكة الأطراف، مؤمنة بالأسطورة، ولكنها مع هذا لها تاريخ، يقصه الراوي على هذا الشاب اليافع. فالعصر الحديث لا يترك القرية وشأنها، إذ تقرر الحكومة «الاستعمارية» إقامة «مكنة الماء» في موضع الدومة، ولكن أهل القرية «هبوا عن آخرهم هبة رجل واحد . . . وأعانهم الذباب أيضًا: «ذباب البقر»

www.scantopdf.eu

فطردوا مندوب الحكومة «ولم تأت مكنة ماء ولم يأت مشروع . . . ولكن بقيت لنا دومتنا» . ثم جاء «الحكم الوطني» وقرر أن ينشئ محطة تقف عندها الباخرة لتوفر على السكان مشقة السفر نصف يوم كامل للوصول إلى المحطة في البلدة المجاورة، ولكن حينما يحضر مندوب الحكومة بالنبإ السعيد لا يقابل بالترحاب وإنما بوجوه مترقبة لأن الباخرة تمر عليهم يوم الأربعاء وأخبرهم الموظف أن الموعد الذي سيحدد لوقوف الباخرة في محطتهم سيكون في الرابعة بعد الظهر، الوقت الذي تزور فيه القرية ضريح ود حامد عند الدومة «ونأخذ نساءنا وأطفالنا، ونذبح نذورنا ؛ نفعل ذلك كل أسبوع»، وحين طلب منهم الموظف تغيير يوم الزيارة وقعت الواقعة ! ولا تقف الباخرة عند القرية ولا يزال أهلها يذبحون نذورهم كل يوم أربعاء «كما فعل آباؤنا وآباء آبائنا من قبلنا» . وليكن الأمس مثل الغد، وبدلاً من التطور ندور في حلقات .

ويبدو أن الحكومة الوطنية «الديموقراطية» حلت محلها حكومة وطنية مستبدة وقوية قررت إنشاء المحطة وإزالة الدومة بالقوة، فقاوم أهل القرية فزُج بعشرين رجلاً منهم في السجن، ثم أُفرج عنهم فجأة ووجدوا أنفسهم أبطالاً شعبيين، إذ إن الحكومة الوطنية العسكرية قد حل محلها حكومة وطنية جديدة ديموقراطية، تحترم حقوق الإنسان، ووجد أبطال القرية أنفسهم وسط الخطب الرنانة النارية المعتادة . وحضر الرؤساء والنواب وأقاموا نصبًا تذكاريّا تحت الشجرة واستنكروا طغيان الحكومة التي تتدخل في معتقدات الناس، في أقدس الأشياء المقدسة عندهم . ومن الخطب تعلم أن دومة ود حامد كانت السبب في سقوط الحكومة المستبدة وبذا أصبحت «دومة ود حامد رمزاً ليقظة الشعب» . والوصف هنا مفعم بالسخرية، فهذا العالم الجديد الذي ينقض على القرية ودومتها وأهلها لا يكترث بها كثيراً، ولا يحترم علاقاتها الإنسانية الوثيقة . ولذا بعد الخطب والنصب «عادت حياتنا إلى سيرتها الأولى، لا مكنة ماء، ولا مشروع زراعة، ولا محطة باخرة . وبقيت لنا دومتنا تلقي ظلها على الشاطئ القبلي عصراً، ويمتد ظلها وقت الضحى فوق الحقول والبيوت حتى يصل إلى المقبرة، والنهر يجري تحتها كأنه أفعى مقدسة من أفاعي الأساطير» . وهذه هي نفس الكلمات التي استخدمها الراوي في وصف الدومة في بداية القصة . لم يزد على الدومة سوى «نصب رخامي وسور حديدي وقبة ذات أهلّة مذهبة» نتيجةً لمحاولات الحكومة الوطنية الجديدة أن تكسب تأييداً شعبيّا، فبين الحكومة الاستعمارية والوطنية الديموقراطية والوطنية المستبدة، والوطنية الديموقراطية الجديدة، لم

www.scantopdf.eu

تكن القرية وأهلها ودومتها سوى شيء أو موضوع، وليس كياناً إنسانيّا حيّا له قوانينه الخاصة يجب التعامل معه باحترام .

وفي نهاية القصة يتفوه الغريب العصري ببضع كلمات سائلاً عن الطلمبة والمشروع والمحطة، ومتى سيمكن إنشاؤها «حين ينام الناس فلا يرون الدومة في أحلامهم، ومتى يكون ذلك» . هنا يخبرنا الراوي تفاصيل من حياته، تدل على أن الصراع بين الجديد والقديم ليس خارجيّا، وإنما يدور داخل القرية ذاتها، إذ نعرف من الراوي أن ابنه قد هرب إلى المدينة ودخل المدرسة رغم أنفه، ومع هذا «إنني أدعو أن يبقى حيث هو فلا يعود» . ثم يعبرِّ عن رغبته في أن يتكاثر أمثاله في القرية «الفتيان الغرباء الروح فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعي . . لعل الباخرة حينئذٍ تقف عندنا . . تحت دومة ود حامدٍ» .

ولكن ماذا عن الدومة، هذا الصنم، إلهة المكان، هل تجتث من مكانها ؟ فيجيب الراوي «لن تكون ثمة ضرورة لقطع الدومة . ليس ثمة داعٍ لإزالة الضريح . الأمر الذي فات على هؤلاء الناس جميعًا أن المكان يتسع لكل هذه الأشياء، يتسع للدومة والضريح ومكنة الماء ومحطة الباخرة» .

إن الراوي التقليدي يتحدث مع الغريب العصري، ويطرح على مستوى النظرية والرؤية، إمكانية التصالح بين الماضي والمستقبل حتى لا ننتهي إلى ماضٍ دون مستقبل (كما حدث للقرية) أو مستقبل دون ماضٍ، كما يحدث في بلدان الغرب .

وتنتهي قصة الطيب صالح بالراوي ينظر إلى الغريب الجديد نظرة «لا أدري كيف أصفها ولكنها أثارت في نفسي شعوراً بالحزن، الحزن على أمر مبهم لم أستطع تحديده» . . ولكننا يمكننا التخمين، نعم . سيتزاوج القديم والحديث، وسينشأ العالم المركب وستظلل الدومة كلاّ من القرية والمكنة، ولكن الراوي يعلم جيداً أن عالمه هو - بكل عظمته وضيق أفقه - سيمر ويذوي ولن يبقى منه سوى الذكرى : وهذا لا شك يثير الإحساس بالحزن .

واختتمت المقال بالإشارة إلى بعض أسباب إبهام موقفنا من التحديث :

لعل مخاوفنا من العصر الحديث تنبع من معرفتنا لا بسيناريو التحديث وحسب، وإنما بعواقبه أيضًا، فنحن نقرأ الصحافة الغربية وندرس المجتمع الغربي . وغير المتخصصين

www.scantopdf.eu

يسمعون عن المخدرات والجريمة، والمتخصصون يقرءون عن أزمة المعنى في الغرب. ولذا حينما نتحرك إلى العصر الحديث فنحن لا نتحرك بتفاؤل شديد، إذ إن معرفتنا المأساوية بما حدث هناك وبالثمن الفادح الذي سيُدفع، يقلل من حماستنا بعض الشيء. ولا نملك إلا أن ينظر نظرة غريبة تدل على الحزن مثل نظرة الراوي التقليدي في **دومة ود حامد**.

ولعل ارتباط التحديث والتصنيع بالاستعمار الغربي يزيد من إبهام موقفنا ومن رفضنا للآلة رغم احتياجنا بل وحبنا لها. إن أول مكنة معاصرة واجهتنا هي المدفع الذي حمله الجندي الغربي ودك به جدران المجتمع التقليدي الشرقي، لا ليجلب النور والاستنارة وإنما لينهب الوطن.

كنت قد أعددت محاضرة عن محاولات علي مبارك باشا إعادة تخطيط القاهرة، وقد بيَّن المحاضر أنه كان من السهل تغيير أماكن المساجد والأضرحة، بل وهدم بعضها إن تطلب الأمر ذلك، ولم تعارض الجماهير في ذلك، إذ أحست أن هذا المصري لا يريد أن يصيب منظومتها القيمية بسوء. (وعلي مبارك لا يختلف في هذا عما قام به أخي في دمنهور، إذ كان هناك ضريح بجوار قهوة المسيري وكان يعترض الطريق، فقام بنقله عدة أمتار، ولم يعترض أحد على ذلك، لمعرفتهم أن ابن البلد لا يريدها بسوء). وقد أخبرنا المحاضر أنه بعد عام ١٨٨٢ (أي بعد وصول القوات الإنجليزية إلى مصر) لم يتمكن أحد من تحريك أي مسجد أو ضريح بسبب توجس الناس خيفة من الحكومة التي وقعت في يد المستعمر).

إن المطلوب هو «حداثة جديدة»، تتبنى العلم والتكنولوجيا ولا تضرب بالقيم أو بالغائية الإنسانيةعرض الحائط، حداثة تحيي العقل ولا تميت القلب، تنمي وجودنا المادي ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود، تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث. وهي مسألة ولا شك صعبة، ولكنها ليست مستحيلة. وأعتقد أن الخطوة الأولى نحو إنجاز هذه الحداثة البديلة هو فصل الحداثة عن الاستهلاكية وعن مفهوم التقدم المادي، وربطها بمفهوم الطبيعة الإنسانية والإنسانية المشتركة بحيث يمكننا أن نحدد هدفًا للحداثة غير الإنتاج والاستهلاك وأن نعيد تحديد معدلات الاستهلاك في إطار تحقيق الإنسانية وفي إطار احتياجات البشر المادية والمعنوية وليس مجرد زيادة الاستهلاكية. ونفس الشيء بالنسبة لمفهوم التقدم، الذي يجب توسيع آفاقه بحيث يضم المادي والمعنوي والملموس والروحي.

www.scantopdf.eu

وبهذه الطريقة قد يمكننا أن نحقق مشروع الحداثة البديل وأن نحقق التقدم دون أن نفقد اتزاننا ودون أن ندمر الكون .

الإمبريالية والعنصرية

كانت هناك عناصر عديدة أخرى جعلتني أتساءل بخصوص بعض المسلمات التي يستند إليها النموذج الحضاري الغربي الحديث، من أهمها إدراكي أنني أفصل الحضارة الغربية والحداثة الغربية عن بعض الظواهر السلبية المصاحبة لها مثل الإمبريالية والنازية والصهيونية التي كنت أصنفها على أنها ظواهر استثنائية، ومجرد انحراف عن الجوهر العقلاني للحضارة الغربية الحديثة. وبالتدريج بدأت أرى هذه الظواهر بحُسبانها جزءاً لصيقًا ببنية النموذج الحضاري الغربي الحديث. وبدأت أرى الحداثة الغربية (والعقلانية الغربية) في علاقتهما بالإمبريالية، التي كانت تعوق التحديث في بلادنا، وتتعاون مع النظم الفاسدة، وتقوم باستغلال خيرات آسيا وإفريقيا ونهب العالم، تساندها في ذلك القوة العسكرية والأيديولوجيات العنصرية مثل «عبء الرجل الأبيض»، وهي أيديولوجيات أبعد ما تكون عن العقلانية. (كشف أخيراً أن الجنرال مونتجمري، «بطل» العلمين، وضع مخططًا لاستعباد إفريقيا وأهلها وتحويلها إلى مصدر للمواد الخام، أي إلى جزء من «مجالها الحيوي»، في المصطلح النازي).

كنت أقرأ تاريخنا مع الغرب الذي أخذ شكل مواجهة عسكرية منذ البداية : ثورة الحرية والإخاء والمساواة ترسل لنا بحملة نابليون التي تحمل المدافع - إحباط محاولة محمد علي التحديثية حين تكأكأت عليه كل أوربا بما في ذلك فرنسا حليفته - جيوش بريطانيا الديموقراطية تغزو مصر وتهزم أحمد عرابي (ممثل الشعب المصري) لتناصر الخديوي توفيق (ممثل الاستبداد). وتستمر الحلقة دون توقف حتى يومنا هذا، كما حدث في تجربة جمال عبد الناصر الوحدوية والتنموية. وكما قال الراوي في رواية موسم الهجرة للشمال للطيب صالح :

«حين جيء لكتشنر بمحمود ود أحمد وهو يرسف في الأغلال بعد أن هزمه . . . ، قال له : «لماذا جئت بلدي تخرب وتنهب؟» الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الأرض، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئًا . . . إنني أسمع في هذه المحكمة صليل

www.scantopdf.eu

سيوف الرومان في قرطاجة، وقعقعة سنابك خيل أللنبي وهي تطأ أرض القدس. البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلاً لنقل الجنود. وقد أنشئوا المدارس ليعلمونا كيف نقول «نعم» بلغتهم». وهذا بالضبط ما أدركه هذا الشيخ الجزائري الذي أخبروه بأن القوات الفرنسية إنما جاءت لبلده لتنشر في ربوعها الأمن والسلام والاستنارة. فقال باقتضاب شديد: «لم أحضروا كل هذا البارود إذن؟».

وفي دراستي عن روچيه جارودي أقتبس كلماته حين يقول:

«إن شرط «نمو» الغرب إنما كان بالضرورة وليد نهب ثروات العالم الثالث ونقلها إلى أوربا وإلى أمريكا الشمالية، وبالمقابل فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفًا». إن النمو والتخلف، عنصرا منظومة الرأسمالية. وتراكم رأس المال الأوليّ، ثم الإنتاج الموسَّع، تطورا خلال مراحل عدة: إبادة هنود أمريكا بدءاً من القرن السادس عشر - نخاسة العبيد السود التي أصبحت ضرورية لاستغلال المعادن - أراضي أمريكا التي قلّ سكانها نتيجة تلك الإبادة الجماعية - «الثورة الاقتصادية» (التي جعلها التكديس أمراً ممكنًا) - «الحركة الاستعمارية» أي السيطرة السياسية والعسكرية على إفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين الاستثمارات ذات الريع الأعظم في الصناعة وفي التجارة، وذلك بفرض السعر الأدنى على اليد العاملة، والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضًا بالقوة . . .».

«ثم ظهر استغلال العالم الثالث على نحو جديد بنشأة الشركات المتعددة الجنسيات وتوسعها، ومن هنا لم تبق علاقات الاستغلال ثنائية الجانب بين البلد المستعمر ومستعمرته. إن الشركات المتعددة الجنسيات تُنظم نهب العالم على الصعيد العالمي، سواء بالاستناد إلى قوة عظمى (الولايات المتحدة مثلاً) من أجل توجيه اقتصادها وسياستها واستخدام جهازها العسكري (كما جرى في جواتيمالا أو في فيتنام) تارة، أم باستخدام مؤسسات دولية في سنة ١٩٧٦».

ببساطة شديدة، أدركت أن «التقدم الغربي» هو ثمرة نهب العالم الثالث، وأن الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه، وأن نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره، وهذا أيضًا بالضبط ما أدركه بدر شاكر السياب في قصيدة له، موجهًا حديثه للندن: ماذا سأكتب يا مدينة/ فعلى ملامحك العجاف تجوب أخيلة الضغينة/ سأقول إنك توقدين/ مصباح عارك من دم الموتى وجوع الآخرين.

www.scantopdf.eu

لكل هذا لم أعد أتحدث عن «التراكم الرأسمالي» وإنما عن «التراكم الإمبريالي»، وأنادي دائمًا بأن محاولة تفسير معظم الظواهر الغربية دون استرجاع الإمبريالية كمقولة تحليلية ستكون محاولة ناقصة إلى حدٍّ كبير .

بالإضافة إلى كل هذا لابد أن نشير إلى عمليات نهب آثار إفريقيا وآسيا، وكيف تغص متاحف البلاد الغربية وميادينها بها . حينما ذهبت إلى لندن سألني صديق ما إذا كنت أود مشاهدة الإمبراطورية البريطانية . فدُهشت من سؤاله وأجبت بالإيجاب بطبيعة الحال . فأخذني للمتحف البريطاني حيث شاهدت أجنحة كاملة لآثار نُهبت من بلاد العالم الثالث، بما في ذلك مصر بطبيعة الحال . وبطبيعة الحال استدعى كل هذا الدمار الذي ألحقته الإمبريالية بالبنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للعالم الثالث . وقد أوجز جارودي إنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية في صورة مجازية رائعة إذ وصفها بأنها «خلقت قبراً يكفي لدفن العالم» .

وقد قرأت في أحد الكتب (**الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها للدكتور محمود متولي**) الحوار التالي الذي دار في أغسطس عام ١٩١٩ بين المستشار المالي البريطاني وطلعت حرب .

قال المستشار المالي : «كنت أظنك رجلاً عاقلاً ولكنك يبدو أنك أصبت بعدوى الجنون المنتشر في البلد هذه الأيام . .

هل تتصور أن المصريين يستطيعون أن يديروا بنكًا ؟!

إنكم لا تصلحون لأعمال المال . . إنها صناعة الأجانب . . والدليل على ذلك أنكم عندما توليتم شئونكم قبل أن نجيء إليكم جعلتم مصر تفلس» .

ويستمر المستشار المالي البريطاني موجهًا كلامه لطلعت حرب قائلاً :

«كنت أستطيع أن أمنع قيام هذا البنك، ولكني وافقت على إنشائه لأعطيكم درسًا عمليًا في الفشل . . . وكل ما أنصحك به هو أن تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطي للمصريين شعوراً بالثقة في هذا البنك» . وقد رد عليه طلعت حرب بقوله : «لقد قررت أن يكون هذا البنك مصريًا مائة بالمائة» . فقال المستشار المالي البريطاني : «إنك تتكلم بلغة مظاهرات الشوارع . . والذي يصلح في الشارع لا يصلح في أعمال المال والبنوك . وقد استدعيتك لأنصحك فأنت رجل طيب لا تشتغل بالسياسة» .

www.scantopdf.eu

إن ممثل التقدم والمدنية والحداثة ينادي بالواقعية، وشأنه شأن التطبيعيين هذه الأيام، وباسم هذه الواقعية يسقط على المصريين بعض الصفات الثابتة (الميتافيزيقية) التي لا تتحول («إنها صناعة الأجانب»). أما المصري (المفترض فيه أنه ممثل التخلف وآسيا وإفريقيا) فإنه يؤكد صفات (حركية) أخرى: مقدرتنا على الاستقلال الاقتصادي وحاجتنا له. وبطبيعة الحال، دائمًا أطرح السؤال التالي على المستعمرين والصهاينة الذي يتحدثون دائمًا عن تخلف الشرق ويؤكدون أن هذا التخلف هو أحد مبررات الاستعمار، إذ أسألهم: هل لو تقدم الشرق سيفرح الغرب والصهاينة بذلك، أم أن تقدم الشرق سيصيبهم بالهم والغم؟ ألا يعني تقدم الشرق انكماش رقعة السوق بالنسبة للغرب، وعمالة غير رخيصة، ومواد خام مرتفعة الثمن، ودولة صهيونية محاصرة، لا تؤدي أي خدمة للغرب؟

وقد لاحظت (شأني شأن أي عربي مقيم في الغرب) تأييد الغرب غير المتحفظ لإسرائيل والتعاطف الكامل مع ضحايا النازية الذي يصاحبه في الوقت ذاته إنكار كامل للجرم الصهيوني الغربي ضد الفلسطينيين وعدم الاكتراث بضحايا الغارات الإسرائيلية. كما لاحظت أن الغرب في موقفه من إسرائيل يتبنى خطابًا عقديًا مطلقًا، فهو يظهر تفهمًا عميقًا لرغبة اليهود في العودة «لأرض أجدادهم»، أرض الميعاد (بعد غياب دام بضعة آلاف من السنين)، ليؤسسوا دولة يهودية يحققون من خلالها هويتهم التاريخية. ولكن الغرب نفسه حينما ينظر إلى الفلسطينيين فإنه يأخذ موقفًا برجماتيًا عمليًا ولذا فهو لا يتفهم لِمَ يصر الفلسطينيون على العودة، ويعرض عليهم بضعة ملايين من الدولارات للتخلي عن أوطانهم. حيرني هذا الأمر في البداية، وحاولت أن أهمشه عن طريق تصنيفه بحُسبانه مجرد «استثناء» من القاعدة العامة أو «انحرافًا» عن المسار (الإنساني الديموقراطي) الرئيسي. لكن التأييد الغربي للدولة الصهيونية وتقبل الأساطير الصهيونية كان من الشمول والقوة والاتساع بحيث كان من المستحيل تفسيره على هذا الأساس. وبدأت أرى تأييد الغرب لإسرائيل جزءا من نمط أكبر، وهو الإيمان الكامل بشريعة القوة والغاب والإمبريالية والعنصرية، لا شريعة العقل والعدالة. فمسألة التراث اليهودي - المسيحي هذه، وتعاطف الغرب مع اليهود، ورغبته في تعويضهم عما نالهم من أذى في الغرب بإعطائهم فلسطين، هي في تصوري ديباجات وتبريرات لا تصلح لتفسير مثل هذه الظاهرة واتساعها وشمولها، خاصةً وأن الغرب لا يشغل باله بمسائل أخلاقية أخرى مثل

www.scantopdf.eu

«الحق العربي» و«حق العودة بالنسبة للفلسطينيين» فهي بالنسبة له مسائل لا معنى لها، فالحق ليس فوق القوة، بل إن داروين ونيتشه فوق الجميع. إن العقل الغربي يعجب أيما إعجاب بالصهاينة بسببِ بطشهم وقوتهم ومقدرتهم على حل كل الأمور لا عن طريق العقل والمناقشة، وإنما بطريقة عملية جراحية باترة مباشرة. كما أنه يرى أن الصهيونية جزء من التشكيل الحضاري الغربي ولذا فهو يعطيها حقوقًا مطلقة ينكرها على الآخرين. إن الصهيونية تعبِّر عن شيء أصيل وجوهري داخل التشكيل الحضاري الغربي الحديث الذي يتباهي بتسامحه وعمليته، ولكنه يؤيد في الوقت نفسه بلداً يستند إلى مجموعة من الأساطير العرْقية البدائية الوثنية. فالغرب - في واقع الأمر وفي التحليل الأخير - يطلب منا أن نعترف بإسرائيل لا بسبب الإبادة النازية، ولا بسبب ما تعرض له اليهود من المظالم، وإنما بسبب موازين القوى التي لا تعرف الله أو الإنسان ولا تعترف بهما؛ فالمعيار الوحيد هو القوة لا العقل.

والعنصرية الغربية ليست موجهة ضد العرب وشعوب العالم الثالث وحدهم، وإنما تمتد لتشمل كثيراً من الأقليات في الولايات المتحدة، وبخاصة الأمريكيون الأفارقة، أي الأمريكيين السود. كنا نعيش في نيويورك على مقربة من هارلم حيث يتقاطع شارع ١١٤ مع طريق برودواي (هذه المنطقة أصبحت في الوقت الحاضر منطقة «راقية» بيضاء، ولكنها آنذاك كانت جزءاً من جيتو هارلم الذي يقطنه السود). كنا نرى الفئران الضخمة تجري في الشوارع والمنازل، والصراصير تمرح في المطابخ وخارجها (في فندقنا الرخيص بجوار جامعة كولومبيا، كنا نضطر لوضع بقايا الطعام في المطبخ حتى تنصرف عنا الصراصير). وقد حدثني أصدقائي السود كيف أن الشرطة الأمريكية تسمح لتجار المخدرات ببيع سمومهم في حرية بالغة داخل أحياء السود حتى تضمن تخديرهم وتحقيق الأمن الاجتماعي! وأذكر جيداً أول صيف قضيته في نيويورك (صيف عام ١٩٦٤) وكان حاراً رطبًا بشكل لا يُطاق. بدأت الفئران تهيج والصراصير تزداد حركتها بشكل ملحوظ. ساعتها قيل للناس إنه سيتم جمع القمامة ورش بعض المبيدات، ففرحوا. ولكن في آخر لحظة ودون سابق إنذار، قرر الكونجرس توفير بضعة آلاف من الدولارات ولم يرسَل جامعو القمامة ولا المبيدات الحشرية. كان أي طفل يعيش في هارلم أو على مقربة منها يعرف أن الوضع على وشك الانفجار، ولكن النظام الحاكم الآمر، بكل مؤسساته ومعاهد بحوثه، فشل في التوصل إلى هذه الحقيقة البسيطة والبدهية الواضحة. وقد

www.scantopdf.eu

حدث الانفجار في هارلم بالفعل، ونزل الفقراء السود إلى الشوارع يطلبون الحد الأدنى اللازم للحفاظ على إنسانيتهم، فيما عرف حينذاك «بالصيف الطويل الحار» (بالإنجليزية: لونج هوت سمر long hot summer). عرفت حينذاك، في ذلك «الصيف الطويل الحار»، أن نظام القمع الأمريكي أبله وغير عقلاني بالمرة. وبعد بضعة أيام، حينما شاهدنا في التليفزيون السيارات وهي تجمع القمامة استجابةً للضغط الشعبي، ثم عمال المبيدات وهم يرشونها، تعجبنا مما رأينا. هذا هو مجتمع مادي براجماتي ثري قادر على توفير الحد الأدنى المطلوب للحياة الإنسانية الكريمة بكل بساطة ويسر ولكنه لا يفعل (وبدلاً من ذلك ينفق الملايين على السلاح).

ولابد أن أذكر هذه القصة الطريفة التي أخبرني بها صديقي فيكتور تومسون Victor Thompson، وهي تبين حدة الفصل العنصري في الولايات المتحدة قبل قيام حركة الحقوق المدنية في بداية الستينيات. أخبرني فيكتور أنه في طفولته كان يعيش في حي لا يقطنه سوى البيض، وبالتالي كان لا يشاهد سواهم. وكان الإعلام الأمريكي يعبِّر عن أحلام وآراء وواقع أمريكا البيضاء وحسب، ولذا كان من النادر أن تجد شخصية سوداء تلعب دور البطل في الأفلام أو البرامج التليفزيونية. ولهذا حينما ركب فيكتور حافلة ذات يوم ووقعت عيناه على امرأة سوداء لأول مرة في حياته. توجه نحوها وبدأ يلعق يدها، ظنّا منه أنها مصنوعة من الشيكولاته! وكانت السيدة السوداء لطيفة فضحكت مما فعل، وضحك كل من في الحافلة، تمامًا مثلما ضحكت أنا وهو.

أما العنصرية ضد العرب، فقد كانت طفيفة للغاية. عندما وصلت إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣، لم يكن هناك استخفاف بالعرب، بل يمكن القول إنه كان هناك خوف منهم، ففي أوائل الستينيات كان هناك مشروع قومي عربي، وكان هناك رفض لفكرة الأحلاف العسكرية ورفض لإسرائيل ومقاطعة لها وهكذا. وكانت هناك حركة الحياد الإيجابي، وكان هناك عبد الناصر. ولكن مع هزيمة عام ١٩٦٧ بدأ الكره يحل محل الخوف، وبدأت العنصرية الشرسة ضد العرب تظهر، ففي حضارة داروين ونيتشه، لا يوجد مجال للمهزومين. ولذا حينما عدت للولايات المتحدة عام ١٩٧٥، كان الأمر جد مختلف. بدأت الصورة النمطية للعربي تُظهره زير نساء وثريّا ينفق أمواله فيما لا يفيد، لا يفهم في التكنولوجيا، خبيثًا لا يمكن الوثوق به، إلى آخر هذه الصفات العنصرية.

www.scantopdf.eu

دعيت مرة لإلقاء محاضرة عن مصر في جامعة نيويورك، على أن يسبق المحاضرة فيلم عن مصر الحديثة. فذهبت إلى قاعة المحاضرات، ولاحظت وجود عدد كبير من الطلبة الأمريكيين السود وطلبة العالم الثالث. وحينما عُرض الفيلم وجدته ينقع عنصرية. فالقاهرة بالنسبة له كانت مدينة الموتى، وبعض المقاهي التي يجلس عليها بقايا البشر. وفي نهاية الفيلم أتى مخرج الفيلم بمن قال إنه أحد المحاربين القدماء في حرب سنة ١٩٧٣ فَقَدَ إحدى ساقيه في الحرب، ولم يجد ما يقيم به أوده، فاضطر إلى التحول إلى بهلوان يعمل في الطرقات، وينتهي الفيلم بصاحبنا وقد وقف على ساق واحدة، وقد أوقف عصا على أنفه، وموسيقى بدائية تعزف في الخلفية. كان الدم يغلي في عروقي حينما انتهى الفيلم. ولكنني تماسكت، وأعلنت أن المحاضرة ستكون تعليقًا على الفيلم، وأنها موجهة للطلبة الأمريكيين السود وطلبة العالم الثالث وحدهم. وبينت لهم آليات العنصرية الغربية، وكيف حاول مخرج الفيلم أن يأتي ببعض الوقائع المتناثرة ويرفعها إلى مستوى الواقعة الممثلة. فمصر مليئة بالأمثلة الأخرى وبقصص النضال والبطولة. وحكيت لهم عن مظاهرات الطلبة عام ١٩٧١ وعن عبور سنة ١٩٧٣ وعن جمال القاهرة برغم ما فيها من قبح، وعن إبداع الحضارة اليومي في مصر المحروسة. وأن مخرج الفيلم، بسبب عنصريته، لم ير في القاهرة سوى مدينة الموتى، وضابط فقد ساقه في الحرب فتحول إلى بهلوان تحت ظروف مبهمة (فحسب معلوماتي الشخصية لم تهمل الحكومة هؤلاء المحاربين القدامى، بل قدمت لهم العون كل العون). قوبلت المحاضرة بعاصفة من التصفيق، واعتذر لي الأستاذ الذي دعاني لهذه المناسبة، بل أرسل لي فيما بعد خطابًا يبين فيه أنه لم يكن قد رأى الفيلم من قبل!

ولم يصبني من العنصرية ضد الملونين، سوى رذاذ بسيط، لأننا كنا نقطن في مدينة جامعية، وهذه لا يوجد فيها أي تمييز تقريبًا. مرة واحدة ذهبت إلى السينما، ورفض الرجل أن يعطيني تذكرة، فأخبرته أنني سأحضر الشرطة، فتراجع على الفور ودخلت السينما وشاهدت الفيلم. ومع هذا لابد أن أذكر هذه الواقعة. حينما أرسلت أطفالي لزوجتي (على أن ألحق بهم بعد عدة شهور، فقد كنت مشغولاً بموسوعة ١٩٧٥) فألحقتهم بالمدرسة. وبطبيعة الحال كانت مقدرات ابنتي اللغوية أقل من مستوى زميلاتها. فصُنفت على أنها «دون المتوسط»، وهو أمر متوقع. ولكن بعد مرور عدة شهور، جاء التقرير الشهري واكتشفت زوجتي أن تقديراتها في جميع المواد «ممتاز» إلا مادة اللغة الإنجليزية

www.scantopdf.eu

فتقديرها كان لا يزال «دون المتوسط»، مما يدل على وجود خلل ما (أو تحيز ما أو كسل ما). وزوجتي أستاذة تربية تفهم هذه الأمور، فذهبت إلى المدرسة وطلبت مقابلة المدرس المسئول عن ذلك لمناقشة هذا الأمر الشاذ معه. وحينما حضر وأخبرته بالخلل، اضطرب واعتذر، وقال إنه سيعقد لها امتحانًا خاصًا في اللغة. وحين عُقد الامتحان، وحضره معها طفل أسود، أثبت التلميذان أنهما متفوقان بشكل مدهش وأن تصنيفهما «دون المتوسط» كان تصنيفًا جائرًا (بل كان مستوى نور يضعها في مصاف طلبة السنة ما قبل النهائية في المرحلة الثانوية ومستوى الطالب الأسود لم يكن أدنى من ذلك بكثير). وما حدث هو أن المدرس اكتفى بقولبتهما في إطار دون مستواهما، ولولا تدخل زوجتي لظلا داخل القالب الضيق ولتدهورت معنوياتهما لكنه اعتذر، وأعاد تصنيفهما فانطلقا دراسيًا. المهم بعد مرور عامين كتبت لنا المدرسة لتقول إنه يمكن لنور أن تُعدُّ لدخول الجامعة في خلال عام، أي أنها كان بإمكانها أن تدخل الجامعة وهي بعد في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. فرفضنا وآثرنا أن تظل نور مع أقرانها وألا تفقد طفولتها وبراءتها بإدخالها الجامعة فورًا.

ويجب أن أذكر في مقابل ذلك اهتمام مدرِّسة ياسر به، وكيف كانت السعادة تغمره في الصباح وهو في طريقه إلى المدرسة برغم عدم معرفته بالإنجليزية. وبالتدريج ومن خلال حب مُدرّسته له نطق ياسر اللغة الإنجليزية بعد عدة شهور إلى أن أصبح متفوقًا فيها. كما يجب أن أذكر ما حدث لنور في مدرستها الكاثوليكية. فقد حققت نجاحًا باهرًا خاصة في مادة اللغة الإنجليزية. وكانت حفلة التخرج في كنيسة المدرسة. وحينما جاء دور تسلمها الشهادة وجائزة التفوق وجدناها عبارة عن كتاب باللغة الإنجليزية، ولم يكن الكتاب سوى القرآن الكريم أعطاها إياه كبير الرهبان. وأنا أذكر هذه القصص لأبيِّن الفرق بين النموذج المهيمن من جهة، ومن جهة أخرى الأفراد الذين يعيشون جزءًا من حياتهم حسب إنسانيتهم المشتركة، لا حسب ما يسيطر عليهم من نماذج.

الديموقراطية والقيمة

تزايدت شكوكي في الولايات المتحدة بخصوص ما يسمي بالممارسات الديموقراطية. وأحب هنا أن أميز بين النموذج المثالي الذي يطرح والنموذج الفعال الذي يطبق بالفعل.

www.scantopdf.eu

وقد عُرفت الديموقراطية بأنها نظام سياسي يوفر فرصة المشاركة لكل أعضاء المجتمع الذين لهم حق التصويت في اتخاذ القرارات، في أي مجال من مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية، التي تؤثر في حياتهم الفردية والجماعية على السواء. وهي نسق سياسي قائم على مبادئ ممارسة الحكم من خلال موافقة المحكومين وتقبلهم له، ذلك أن الحكومة تستمد شرعيتها- سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- من إرادة غالبية أعضاء المجتمع المحلي أو المجتمع بأكمله. ومن الشروط التي ينبغي توافرها في الديموقراطية النيابية الحقيقية، الانتخابات الحرة، وسرية التصويت. كذلك يقال إن الديموقراطية السياسية هي المساواة أمام القانون، وحرية الكلمة والتعبير، والنشر والاجتماع. وتقوم الديموقراطية في المجتمع الكبير على المنافسة الحرة، وتوازن جماعات المصلحة، باعتبار أن الجماعات المتعارضة تستطيع أن تصل إلى الاتفاق والتسوية في حالة وجود حد أدنى مقبول في الصراع بينها.

ولكن تجربتي في الولايات المتحدة نبهتني إلي أن النموذج الفعال وما يطبق بالفعل مختلف بشكل جوهري عن المثل الأعلي المطروح. فحين نظرت من حولي وجدت أن المواطن الأمريكي الذي ينتخب أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ ورئيس الجمهورية التي تريد أن تحكم العالم، وجدت أن هذا المواطن الأمريكي الطيب الساذج لا يعرف شيئا عن علاقة الاقتصاد بالسياسة، وعن آليات الاستغلال الاقتصادي، وهو جاهل تمامًا بما يجرى فى العالم، والحزبان الرئيسيان (الديمقراطى والجمهورى) لا يقدمان له برامج توعيه سياسيا، ويكتفيان بتقديم برامج متناثرة لا يربط أجزاءها رابط، حتى ترضى معظم الأذواق، إن لم يكن كلها. وهى برامج تختزل تطلعات المواطن الأمريكى إلى بعدها المادى (الاقتصادى والجسمانى) وتصبح المشكلة الأساسية والوحيدة هى إشباع تطلعاته الاقتصادية بشكل سريع ومباشر، ويتولى الإعلام الترفيه عنه وتفريغه من الداخل، من خلال تصعيد نزعاته الاستهلاكية والجسمانية، وحصره في عالم الحواس والسلع والمادة والأشياء.

وبينما كانت تجرى لي عملية زرع النخاع فى الولايات المتحدة، حدثت المواجهة الخطيرة بين دولتين نوويتين، هما الهند وباكستان، فسألت كبيرة الممرضات (وهى فى منزلة الطبيب وتتلقى تعليما جامعيًا طويلا مثله تماما) عن رأيها فى هذه المواجهة؛ ففوجئت بأنها لا تعرف شيئًا عنها، وبررت ذلك بقولها إن الهند وباكستان بعيدتان عن

www.scantopdf.eu

الولايات المتحدة! (هل يمكن تصور أن أحد أهم أعضاء الكونجرس الأمريكى هو عامل مبيدات من إحدى قرى ولاية تكساس، وهو من الصهاينة المسيحيين وعنده رؤاه الخاصة بآخر الأيام وهرمجدون ولا يعرف الكثير عن الشرق الأوسط إلا ما قرأه في العهد القديم؟).

أخبرنى أحد الصحفيين الذين ذهبوا إلى العراق لتغطية ما يدور فيها أن الجنود الأمريكيين لا يعرفون أين هم، ويسألون أين القاهرة؟! وبعضهم كان يتعجب من عدم وجود محلات ماكدونالدز ولا بنات (فتيات) يمكنه اصطحابهن. وكثير من أعضاء الكونجرس يخلطون بين العراق وإيران Iran و Iraq بسبب تقارب النطق بين الكلمتين بالإنجليزية، وبسبب جهلهم الشديد بالجغرافيا والتاريخ. وقد لاحظت أن معظم الأطباء فى المستشفى الذى أعالج فيه فى الولايات المتحدة يتسمون بمستوى ثقافى عالى ووعى رفيع، ولكننى فوجئت أن معظمهم إما مهاجرين من أوربا أو لهم علاقة ما ببلد خارج الولايات المتحدة. (أخبرنى أحد الأصدقاء أن ٢٠٪ فقط من الشعب الأمريكى عندهم جوازات سفر، وأن معظم هؤلاء يستخدمونها فى زيارة بلدان مثل المكسيك أو جزر الكاريبى بهدف السياحة؛ والسياحة الحديثة أصبحت لا علاقة لها بالتاريخ أو الثقافة، إذ يذهب السائح إلى فندق خمس نجوم يحقق كل توقعاته الاستهلاكية الأمريكية، مع إضافة بضعة زخارف إثنية محلية لا تتحدى بأى شكل بنية الخريطة الإدراكية الأمريكية).

وقد ظهرت واحدة من أهم مشاكل الديمقراطية بشكل حاد مع حرب العراق، فقد خرجت الملايين فى بريطانيا وأسبانيا والولايات المتحدة ضد الحرب. وطالب مجلس الأمن بإعطاء المفتشين الدوليين مهلة للبحث عن أسلحة الدمار الشامل، ولكن حكومات هذه البلاد دفعت بقواتها إلى هناك استناداً إلى معلومات مختلقة، ظهر بعد ذلك كذبها. كما أن المعركة الانتخابية فى الدول الغربية (خاصة الولايات المتحدة) تتكلف مئات الملايين من الدولارات. ولذا نجد أن المرشح الثرى الذى يمكنه تدبير الاعتمادات اللازمة، يمكنه أن يقوم بحملة انتخابية مستمرة وفعالة، أما المرشح الذى لا يدبر مثل هذه الاعتمادات فمصيره التهميش الإعلامى. وفى عصر الميديا هذا يعنى أن أصحاب المصالح وكبار الرأسماليين وجماعات الضغط يمكنهم أن يؤثروا فى نتائج الانتخابات لا بسبب برامجهم

www.scantopdf.eu

السياسية وإنما بسبب ثرواتهم، أو لأسباب أخرى لا علاقة لها بمصلحة الجماهير أو مصلحة الوطن.

ولكن لعل من أهم القضايا التي تواجهها الديموقراطية في التطبيق هي مشكلة المرجعية النهائية، أى مجموعة القيم التي تحكم الإجراءات الديموقراطية ذاتها. فقد وجدت أن ٥١٪ من الأصوات هو الذى يقرر القانون والحقيقة والقيمة، أى أن عدد الأصابع المرفوعة هو المرجعية النهائية، فهى ديمقراطية بلا مرجعية فلسفية أو أخلاقية أو معرفية يمكن تسميتها «الديمقراطية الإمبريقية»، أو «الديموقراطية المنفصلة عن القيمة value-free de-mocracy.» (تماماً كما يتحدثون عن العلم المنفصل عن القيمة، وحرية التعبير المطلقة المنفصلة عن القيمة، فكل الأمور نسبية، أليس كذلك؟). وقد ضرب أحد المفكرين مثلاً على ديموقراطية عد الأصابع بإحدي مباريات كرة القدم: إذا أحرز الفريق الضيف أهدافاً أكثر من أعضاء فريق البلد المضيف، فهل من حق أغلبية المتفرجين أن يقرروا ما إذا كان الفريق الضيف هو الفائز أم لا؟ والإجابة بطبيعة الحال بالنفي. فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لأهداف في مباراة كرة القدم، فهل يصح تطبيق هذا المنطق على شئ هام للغاية مثل القيم الإنسانية العليا كمرجعية نهائية؟

وقد عمقت دراستى للإبادة النازية ليهود أوروبا من شكوكى بخصوص الديمقراطية التى لا مرجعية لها؛ والتى تختزل فى عد الأصابع، فقد وصل هتلر إلى الحكم من خلال القنوات الشرعية الديمقراطية، وحاز على رضا وإعجاب وحماس الشعب الألمانى. وحينما بدأ الحكم النازى بتصفية الأقليات العرقية والدينية غير المرغوب فيها (مثل الغجر، والمعوقين، واليهود) باعتبارها عناصر بشرية تستهلك ولا تنتج، وافق أغلبية الشعب الألمانى على عمليات التطهير العرقى. كما وافقت الشعوب الغربية، وبحماس بالغ، على إرسال جيوشها إلى آسيا وأفريقيا فأبادت ما أبادت من بشر، وسخرت ما سخرت من شعوب، ونهبت ما نهبت من أراض. وقد عبرت هذه الشعوب عن رأيها بشكل ديمقراطى بالغ الديمقراطية، تمامًا كما توافق الأغلبية الساحقة من أعضاء التجمع الصهيونى على عمليات البطش والذبح، التى تقوم بها القوات الإسرائيلية، ويتمتعون بالمكاسب الاقتصادية التى تحققها عمليات البطش هذه. فالديمقراطية الإسرائيلية هى ديمقراطية بلا مرجعية ولا يمكن استئناف أحكامها بعد أن يتم عد الأصابع. وهى فى هذا تشبه عصابات المافيا، حيث يتم كل شىء من خلال إجراءات ديمقراطية دقيقة لا غبار عليها ولا شبهة

www.scantopdf.eu

فيها، ولكن مرجعيتها النهائية هى الحق الذى تعطيه هذه العصابة لنفسها فى سلب الآخرين حقوقهم وتقويض إنسانيتهم.

وفى إطار الديمقراطية التى لا مرجعية لها يمكن أن نشير إلى هذه الواقعة الطريفة. فقد رشحت إحدى نجوم البورنو (الأفلام الإباحية) نفسها لعضوية البرلمان الإيطالى. وكان برنامجها الانتخابى يتلخص فى خلع ملابسها قطعة قطعة أمام السادة الناخبين. ويبدو أن هذا البرنامج الانتخابى له فعالية فائقة فى بلد دافئ مثل إيطاليا، إذ نجحت السيدة الفاضلة نجمة البورنو فى الانتخابات!

وقد ظهرت بعض مشاكل الديمقراطية الإمبريقية التى لا مرجعية لها، حينما واجهت المجتمعات الغربية مشكلة الاستنساخ التى يرى الكثيرون أنها تهدد ظاهرة الإنسان نفسه. وقد أصدر الرئيس كلنتون قراراً بحظر الاستنساخ؛ وهو قرار لا علاقة له بالعلم أو بعدد الأصوات أو عد الاصابع، وإنما يصدر عن مرجعية إنسانية عامة. وتواجه الآن الديمقراطية الغربية مشكلة الزواج المثلى (أو الاتحاد المدنى، كما يسمونها)، فمن يقف ضد هذا يستند إلى مرجعية دينية أو إنسانية متخفية، أما من يؤيده فهو يرضخ لمنطق الديمقراطية الإمبريقية وعد الأصابع.

لكل هذا أرى أنه يجب أن نعيد تعريف الديمقراطية، وبدلا من القول بأن الديموقراطية هى صوت واحد لكل مواطن «one man, one vote»، يجب أن نعرفها بأنها نظام سياسي يعطى صوتًا واحداً لكل مواطن شريطة توفير المعلومات الكاملة له (وهذا مهم ومتيسر فى عصر المعلومات). كما يجب أن تدار المعركة الانتخابية بطريقة ديمقراطية حقيقية بحيث تتاح مساحة زمنية متساوية فى وسائل الإعلام لكل المرشحين. ويجب أن يوضع سقفًا عامًا لما يمكن للمرشح الواحد أن ينفقه، سواء فى شراء الإعلانات فى التليفزيون أو استئجار مستشارين لإدارة حملته الانتخابية.

وأعتقد أنه من الضروري أن نحاول تقليم أظافر الدولة وبيروقراطيتها التعليمية والإدارية، التي عادة ما تستقل عن مصالح الجماهير لتعبر عن مصلحتها هي. وذلك عن طريق زيادة فاعلية وقوة مؤسسات المجتمع المدني والنقابات وكل المؤسسات والتنظيمات غير الحكومية (التي تخشاها الدولة المركزية)، والتي تعبر عن مصالح ومطامع الجماعات المختلفة في الوطن الواحد.

www.scantopdf.eu

كما يجب التأكيد على أن الديموقراطية ليست هي رأي الأغلبية وحسب، إذ يجب أن يكون هناك ضوابط لحفظ الحقوق المدنية والدينية والثقافية لأعضاء الجماعات الأثنية والدينية المختلفة. وقد يكون من الممكن أن يوضع هذا موضع التنفيذ من خلال إقامة مجلسين: مجلس على أساس التمثيل الشعبي، ومجلس على أساس تمثيل الجماعات الإثنية والدينية تكون مهمته مراقبة تنفيذ القوانين الخاصة بحقوق هذه الجماعات. كما يجب اتخاذ الخطوات اللازمة حتي لا تتحول المؤسسة العسكرية إلي جماعة ضغط خفية تتحكم في سياسات الدولة بل وفي كل شئ.

وقد ارتبطت الديموقراطية الإمبريقية في الغرب بالنظام الرأسمالي في كل وحشيته وداروينيته، وحددت الأولويات فيه انطلاقا من هذه العقلية الرأسمالية التي جعلت من الربح هو الهدف الأسمى والوحيد، مما أدى إلى إهمال كثير من الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية (ولعل النقد الاشتراكي لديموقراطية بلاد الرأسمال الحر يفيد كثيراً في فهم هذا الجانب)، ولذا لابد من وضع الضوابط الكفيلة بكبح جماح الرأسمالية المتوحشة والشركات الضخمة وتحديد هدف المجتمع بطريقة تكفل تحقيق الإمكانيات الإنسانية لكل أعضاء المجتمع وخدمة مصالحهم في حدود إمكانياته، وليس مجرد الربح ومزيد من الربح للشركات الرأسمالية وللأثرياء.

ولكن الأهم من هذا كله من الضروري أن نؤكد على أن مرجعية النظم الديمقراطية يجب أن تكون القيم الإنسانية العامة المتمثلة فى الإعلان الدولي لحقوق الإنسان، وفى ميثاق هيئة الأمم المتحدة، والمواثيق الدولية المختلفة مثل اتفاقية جنيف وعدم التدخل في شئون الدول الأخرى إلا من خلال قرارات من الجمعية العامة لهيئة الأمم (وليس مجلس الأمن الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة بحق الفيتو)، وأن هذه القيم غير خاضعة للتصويت أو لعد الأصابع.

وكل الانتقادات السابقة والمقترحات المطروحة لا تعنى رفض الديموقراطية، فهناك من المفاهيم الهامة التي تم تحقيق بعضها بالفعل، والتي لابد من الاستفادة منها ومحاولة تطبيقها مثل تعدد الأحزاب أو الفصل بين السلطات الثلاثة، ومساءلة السلطة التنفيذية على يد السلطة التشريعية.

Produced with
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

الجنس والمجتمع الأمريكي

كانت إحدى الصور النمطية الشائعة في عقولنا والنموذج التفسيري الكامن فيه أن الجنس طاقة (مادية) إن فُرِّغت بطريقة «عادية» «طبيعية» «سوية» فإن الفرد يصبح عاديًا وطبيعيًا وسويًا، أما إن كُبتت فإنها تصبح قوة مدمرة. وهي معادلة بسيطة ومعقولة لأول وهلة على الأقل، ولذا كان من المفهوم أن ينشغل الشرقيون بالجنس، فهم مكبوتون قُمعت رغباتهم الجنسية في طفولتهم ومراهقتهم، ولذا طاقتهم الجنسية كلها مخزونة، وهو ما أدَّى إلى تشوههم النفسي الكامل، وتحولوا إلى مراهقين أزليين. هذا ما تعلمناه؛ كما تعلمنا أيضًا أن الأمور مختلفة تمامًا في الغرب، فهم يتصرفون بشكل طبيعي إذ إنهم يسربون الطاقة الجنسية بطريقة عقلانية بلا قمع ولا كبت.

ولكن حينما وصلت إلى الولايات المتحدة وجدت أن الأمر ليس بهذه البساطة، وأن المعادلة البسيطة التي آمنت بها لا تُفسِّر الأمور، إذ لاحظت إقبال الأمريكيين النهم وانشغالهم المتطرف (وأحيانًا المرضي) بالجنس، بينما مجال الإشباع الجنسي متاح أمامهم بشكل ديموقراطي مذهل. (وهو ماسميته فيما بعد «ديموقراطية اللذة»). (على سبيل المثال - كان الجنس متاحًا تمامًا في السبعينيات في جامعة رتجرز، ومع تزايد الحرية الجنسية كان عدد المجلات والأفلام الإباحية يأخذ هو الآخر في التزايد، كما كانت تقع حوادث اغتصاب كثيرة، الأمر الذي كان يحيرني كثيراً في بادئ الأمر).

ولم أكن مصدقًا لما حولي، إلى أن حضر طالب لبناني (متزوج من إيطالية) من فرنسا. وحيث إننا نعرف، حسب قوالبنا الإدراكية، أن فرنسا هي بلد الانفلات الجنسي قررت أن أسأله عن هذا الاهتمام المحموم بالجنس في المجتمع الأمريكي لأتأكد مما إذا كانت ملاحظتي في محلها أم لا. وفوجئت بأنه قد صُدم هو الآخر بهذا الهوس الجنسي برغم أنه درس في فرنسا. وأضاف، أنه لم يشاهد شيئًا مثل هذا من قبل.

وكما قلت، أنا أتفاعل مع ما حولي محاولاً قدر استطاعتي تخطي القوالب الإدراكية الجاهزة، مما يحول كثيراً من مشاهداتي إلى إشكاليات. وقد نجم عن إدراكي للانشغال المتطرف للأمريكيين بالجنس أن اهتزت المعادلة البسيطة التي كنت أؤمن بها، وتحول الجنس من كونه مجرد فعل جسدي لإشباع الرغبة الجنسية إلى موضوع للدراسة والتأمل يجب أن يُفصل عن قضية الإشباع وعن الشهوة الإنسانية العادية، أي أن الجنس أصبح موضوعًا

www.scantopdf.eu

فلسفيّا، تمامًا مثل الخمر عند امرئ القيس وعمر الخيام، فهي ليست مجرد سائل أصفر (أو أحمر) يُذهب الوعي ويستيقظ المرء في اليوم التالي عنده صداع خفيف ليستأنف حياته، وإنما هو جزء من فلسفة كونية شاملة ورؤية للعالم، وتعبير عن إحساس عميق بالغربة والوحدة والخوف من العدم. (كتبت ابنتي نور دراسة قصيرة تسمَّى «الكلمات والعدم» عن مقدمة معلقة ابن كلثوم: «ألا هبي بصحنك فاصبحينا/ ولا تنسي خمور الأندرينا». ويستمر الشاعر في تعداد أنواع الخمور المختلفة. وتذهب ابنتي في بحثها إلى أن الإنسان العربي في الجاهلية كان محاطًا بالصحراء والموت. وحيث إنه لم يكن يؤمن بحياة أخرى، تصاعد عنده الإحساس بالعدم. وحيث إن هذا الإحساس لا يمكن أن يتعايش معه الإنسان، ولا يمكن له أن يواجهه بشكل مستمر فإن الإنسان الجاهلي يطرح على نفسه أسئلة تخبئ السؤال الكلي والنهائي عن مصيره في الكون، فذكْر أنواع الخمر في مقدمة المعلقة [الكلمات] إنما هو هرب من السؤال النهائي عن العدم).

وسألت: كيف يمكن أن ننظر إلى هذا الهوس الجنسي بحُسبانه تعبيراً طبيعيّا عن رغبة جنسية طبيعية؟ يقال على سبيل المثال إنه في أثناء محاكمة أحد الرياضيين بتهمة محاولة اغتصاب فتاة قاصر ظهر أنه كان ينام مع ما يقرب من ثلاث نساء في اليوم (امرأتين ونصف على وجه التحديد) عبر عدة سنوات من حياته. هل نحن هنا أمام إنسان عادي يُشبع رغباته الجنسية، أم نحن أمام إنسان مدمن لا للخمر وإنما للجنس (بالإنجليزية: سيكساهوليك sexaholic على وزن ألكهوليك alcoholic) فيمارسه بشراهة ولكن دون متعة حقيقية؟ ومن المعروف أن بعض مدمني الجنس يودون التوقف ولكنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا فهم مدمنون تمامًا للجنس، شأنهم في هذا شأن مدمن الخمر الذي يمقت ما يتعاطاه.

كانت الأسئلة في واقع الأمر مقدمة للبحث عن نموذج إدراكي تحليلي جديد لدراسة قضية الجنس، نظراً لعجز النموذج السائد عن التفسير. ومرة أخرى عاد التساؤل بخصوص التفسيرات المادية السهلة للظواهر، وعاد مرة أخرى النموذج الكامن في أعماقي الخاص باختلاف الإنسان عن الطبيعة المادية. وبدأت أسأل لعل الارتواء الجنسي عند الإنسان (وهو مختلف عن الحيوان) مرتبط بعناصر مادية وغير مادية، ولعل هذه العناصر غير المادية ليست مجرد قشرة وإنما من صميم الإشباع الجنسي عند الإنسان، ولعل الجوع الذي أشاهده في الولايات المتحدة والذي ليس له أي تفسير مادي مباشر (هل يمكن

www.scantopdf.eu

تفسير سلوك الرئيس كلنتون بشكل مادي ؟) لعله يعود إلى «رؤيتهم» المادية للجنس، كما لو كان الجنس شيئًا طبيعيًا ماديًا ؛ مسألة غدد وعضلات وحسب، مسألة محايدة تمامًا لا تختلف عن أي عملية بيولوجية أخرى (مثل تناول الطعام) ؟ وكثيراً ما سمعتهم يقولون إن الجنس مثل الطعام تمامًا (مع أن أي إنسان سويّ يعرف الفرق بين النشاطين، ويعرف الأبعاد الخاصة للجنس والأبعاد العامة للأكل). ولعل محاولة تطبيع الجنس تفسر رغبتهم العارمة في ممارسة الجنس في العلن، بلا أي إحساس بالحرج أو الخصوصية أو الفردية، خاصةً بعد انكماش رقعة الحياة الخاصة. (هل يفسر هذا الرغبة العارمة في المجتمعات الحديثة أن يصبح الجنس جزءاً من الحياة العامة ؟ وهل يفسر أيضًا إصرار الشذاذ جنسيًا على علنية ممارساتهم وضرورة تطبيعها وتقنينيها ؟ هل هذا يعني أن ما لا يُمارس في رقعة الحياة العامة، فلا وجود له ؟ هل يُفسِّر هذا المرض الغريب الذي يسمَّى «الخوف من الحميمية» [بالإنجليزية: فير أوف إنتيماسي fear of intimacy] إذ يبدو أنه حينما يمارس البعض الجنس أو ما يشبه الجنس في إطار غير رومانسي وعلني [كأن يضاجع رفيقته على عجل في فندق بجوار محل عمله في أثناء الساعة المخصصة للغداء أو في المقعد الخلفي للسيارة أو في حديقة] تصبح هذه الظروف شرطًا لأدائه الجنسي ؟ ولذا يفاجأ هذا الشخص أنه غير قادر على الأداء داخل المنزل مع زوجته تحت ظروف رومانسية مريحة لأنه لا يستجيب جنسيًا إلا تحت ظروف تدعو للسرعة والتوتر وفي رقعة الحياة العامة). ومحاولة تطبيع الجنس تظهر في أن المجتمع الأمريكي يُظهر عدم الاكتراث بعلاقة الجنس بالمجتمع، أو كما يقولون : لا يهم سلوك الإنسان في السرير، المهم هو سلوكه أمام شباك التذاكر !

في إحدى محاضراتي حاولت أن أبيِّن بطريقة شبه كوميدية شبه جادة أن اهتمام الإنسان الغربي بالجهاز الهضمي يفوق اهتمامه بالجهاز التناسلي. فالإنسان الغربي دائم التساؤل عن الطعام الصحي وعن عدد السعرات الحرارية، وحتى عهد قريب كان الأكل بالشوكة والسكين هو إحدى علامات التحضر. وتزايد عدد المطاعم في نيويورك يشير إلى هذا الاهتمام المفرط بالجهاز الهضمي. أما السلوك الجنسي فهو مسألة متروكة تمامًا للفرد، أو موضوعًا للتفكه. وكي أضرب مثلاً مثيراً، أخبرت الحاضرين أنه لو ضُبط شخص يتبول في مكان عام في الغرب لقامت الدنيا ولم تقعد، أما إن عبَّر عن رغبته الجنسية (تجاه شخص من جنسه أو الجنس الآخر) بشكل واضح فاضح، فهذا أمر غير مهم.

www.scantopdf.eu

وعدم الاكتراث هذا هو نتيجة لتبسيط الإنسان واختزال دوافعه. ولهذا لم يدرك كثير من الأمريكيين أن الجنس مسألة إنسانية مركبة خاصة وفردية وأنها مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية. وعدم إدراكهم لهذه الحقيقة البسيطة العميقة، هو أحد أسباب عدم الارتواء الجنسي، فهم يمارسون الجنس في إطار مادي، يترك كيانهم الإنساني بلا إشباع. أو لعلهم أدركوا تركيبية الجنس على المستوى الفردي، ولكن مؤسسات الإعلام التي تبحث عن الربح تشيع صورة الجنس السهل المباشر، الذي لا يسبقه مقدمات، ولا توجد بعده أي توابع: أطفال وعلاقات اجتماعية وتغير في الرؤية (الصورة «المثالية» الشائعة هي صورة چيمس بوند مضاجعًا إحدى الجميلات ثم يسألها ما اسمها؟ وفي منظر آخر يحضر چيمس بوند ليقبض على إحدى الجميلات، فيكتشف أنه وصل قبل موعده فيقرر أن يضاجعها لتزجية وقت الفراغ. وفي أثناء ذلك ينظر إلى ساعته ويكتشف أن الوقت قد حان فيأخذ الكلبشات من جيبه ويضعها على يديها ويرحل بها)، وهذا تطبيق عملي لمقولة بلوتارخ الطريفة السطحية: «حينما تطفأ الشموع فكل النساء جميلات». إن الأفلام (ووسائل الإعلام) الأمريكية تصور الإنسان كما لو كان إنسانًا جسمانيًا، يعيش في جسده (المادي) وحسب، تمامًا مثلما يصوره دعاة السوق الحرة إنسانًا اقتصاديًا تحركه الدوافع الاقتصادية (المادية) وحسب، وهو ما وجدته يتناقض مع الواقع الإنساني المتعين، بما في ذلك واقع الأمريكيين أنفسهم، والتناقض بين الصورة الاجتماعية الشائعة (الجنس كنشاط مادي بسيط)، والتجربة الفردية الحية يولد توترات في الإنسان.

وقد بدأت أشعر بأن ثمة علاقة بين بحث الإنسان عن المطلق ورغبته في التجاوز والنزعة الطوباوية من جهة، وتصاعد رغبته الجنسية من جهة أخرى. فكلما ضَمُرت النزعة الطوباوية وتوارت المقدرة على التجاوز، زاد السعار الجنسي كمحاولة لتعويض الإنسان عن اختفاء عالم الأحلام، بحُسبان أن عالم الجنس هو البديل المادي والمباشر للمدينة الفاضلة (تحقُّق مؤقت ومادي للفردوس). وكلما ازداد العالم نسبية وتوارى المطلق، زاد السعار الجنسي أيضًا، فالجنس يزود الإنسان بمركز ومطلق مؤقتين في عالم لا مركز له ولا مطلقات فيه، فهو مركز مؤقت ومطلق نسبي يملآن الفراغ الذي يخلقه غياب المركز الدائم والمطلق الحقيقي. إنه ميتافيزيقا من لا ميتافيزيقا له، أو ميتافيزيقا من لا يود أن يحمل أي أعباء إنسانية أو أخلاقية.

وقد وجدت أيضًا أن عدم إحساس الأمريكي بالطمأنينة وافتقاده المعنى يجعله دائمًا

www.scantopdf.eu

يحاول أن يصل إلى بعض اليقين أو إلى اليقين الكامل المؤقت، ويحاول أن يأتنس بالغير كي يتجاوز اغترابه. ولكنه في الوقت نفسه يخاف من الارتباط الدائم بالآخر، ففي هذا نوع من الثبات وهذا هو أخشى ما يخشاه. وقد وجد ضالته في الجنس العابر، فمن خلاله يمكنه أن يصل إلى اليقين والائتناس المؤقتين، فالعلاقة الجنسية علاقة أكيدة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس، فتحل محل المعنى المجرد، ومن هنا تُدخل شيئًا من الطمأنينة على قلبه، ولكنها لا تضطره في الوقت نفسه للارتباط بالآخر.

والجنس في الولايات المتحدة مرتبط بالسعار الاستهلاكي. فالأمريكي الذي يعيش في حضارة الفوارغ (بالإنجليزية: ديسبوزابل disposable) وحضارة التغليف (بالإنجليزية: باكيجينج packaging) لا يعرف فكرة التدوير، ولا يعرف «الاقتصاد الإنساني» (عبارة الكاتب الأمريكي هنري ديفيد ثورو الذي رأي كيف تهدد الاستهلاكية كيان الإنسان الأمريكي. وهو يعني بالاقتصاد الإنساني، كيفية الحفاظ على العلاقات الإنسانية بدلاً من تبديدها وكيفية استثمار الطاقة الإنسانية بطريقة رشيدة من منظور إنساني). ولذا نجد أن الأمريكي غير راض عما في يده، برم به، دائم البحث عن الجديد وعن آخر التقاليع، يغيِّر مسكنه وجيرانه وأصدقاءه مرة كل خمسة أعوام، ويستمع كل شهر (وربما كل أسبوع) إلى أغنية جديدة، ويرتدي كل عام رداءً جديداً، ويحاول أن يغيِّر سيارته كلما سنحت له الفرصة. وهو يغيِّر زوجته مثلما يغيِّر كل شيء آخر (وهي أيضًا تفعل الشيء نفسه) حتى يبدأ من جديد. ولعل انتماء الأمريكي إلى مجتمع استيطاني يعمق من هذا الاتجاه، فالمجتمعات الاستيطانية مجتمعات لا ذاكرة لها، تنكر التاريخ. وكما بدأ المجتمع من نقطة الصفر اللاتاريخية، يحاول الفرد أن يفعل الشيء نفسه.

كل هذا يفصل الجنس عن مضمونه الاجتماعي والإنساني المركب ليصبح ترجمة عملية لمبدإ السعادة الكمي، إذ تُعرَّف السعادة/ اللذة بأنها إرضاء أكبر قدر ممكن من الرغبات لأكبر عدد ممكن من الناس. إن الإنسان هنا ينعزل عن تراثه وماضيه، بل وعن وجوده الإنساني المتعين المركب، يعيش في الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التي لا علاقة لها بالخير أو بالشر. ولكن بالنسبة لمثل هذا الإنسان المتمركز حول لذته تصبح الأسرة أمراً غير مهم. ولذا نجد أن هذا الموقف من الجنس قد أثر على بناء الأسرة. فقد ألقى على كاهل الجميع عبئًا ثقيلاً، فأينما تفتح التليفزيون الأمريكي تجد امرأة نصف عارية تبيع لك شيئًا ما. وهذا يصعِّد من توقعات الرجل الأمريكي بالنسبة للجنس، فيطلب إلى زوجته أن تكون إحدى

www.scantopdf.eu

ملكات الإغراء (ويحاول هو جاهداً أن يصبح أحد ملوك الإغراء) وهو الأمر الذي يسبب عدم الاطمئنان والإحباط له ولزوجته لاستحالة تحقيق مثل هذه الرغبات. وتساهم شركات التجميل في تصعيد هذا الجانب، فتزيد من توقعات الذكور الجنسية مما يضطر الإناث لاستهلاك المزيد من مستحضرات التجميل.

هذا إلى جانب أن الباحث عن اللذة هو إنسان فرد مكتف بذاته (موضع الحلول)، لا يطيق أي حدود أو قيود، أو مسئولية، ولذا فهو غير قادر علىً إرجاء تحقيق رغباته (يقال لها بالإنجليزية: ديلايد جراتفكيشن delayed gratification)، فهو يود أن يحققها في التو (الآن وهنا)، خاصةً وأن هذا الفرد يعيش في مجتمع نفعي مادي، لا يعرف المثاليات التي تساعده على تجاوز ذاته الضيقة. وفي تصوري أنه لا يمكن إرجاء إشباع الرغبات إلا من خلال الإيمان بمثل أعلى يتجاوز حدود الفرد وحيزه.

ومثل هذا الفرد المكتفي بذاته لا يمكنه أن يقبل مؤسسة الأسرة، فهي مؤسسة تُلقي على كاهله (كأب وكأم) مسئوليات اجتماعية شتى، وتفرض عليه حدوداً وقيوداً، عليه أن يقبلها، وهو من الصعب عليه أن يفعل، فهو يعيش لنفسه ولمتعته وفائدته ولذته، ولذا تضمُر مؤسسة الأسرة تماماً. ولعله لهذا يزداد العزوف عن النسل والزواج، مع ازدياد الإحساس بأن الأسرة عبء لا يُطاق وأن مسئولية تنشئة الأطفال تفوق طاقة البشر.

بل يبدو أنه مع ازدياد معدلات الطلاق وظهور «الأشكال البديلة» للأسرة، أصبح بعض الأطفال برمين بحدود الأسرة التقليدية. ولكن، مثل هؤلاء، لا يزالون - والحمد لله - قلة قليلة، بل قلة نادرة؛ فتغيير الفطرة الإنسانية أمر صعب للغاية. أخبرتني صديقة أمريكية تعمل ممرضة، ولم تنفصل عن زوجها، أن أحد أطفالها أخبرها مرة بأنه لا يتمتع بحياته مثل بقية الأطفال الذين انفصل أبواهما، إذ إن هؤلاء يعيشون في منزلين مختلفين عند أبوين وأمَّين: الأب الحقيقي وزوجته الجديدة، والأم الحقيقية وزوجها الجديد، ومن هنا تتسم حياتهم بقدر أكبر من الحركية، فهم دائمو التنقل، ويحصلون على قدر أكبر من المتعة والهدايا (بالإنجليزية: ذي هاف مور فن they have more fun). (وقد قرأت رأيًا مماثلاً للمعلق السياسي الشهير لاري كنج الذي تزوج وطلَّق خمس مرات).

لكن تحطم الأسرة بدوره يزيد من السعار الجنسي، إذ إن الأسرة هي المؤسسة الوحيدة التي يمكن داخلها تنظيم الرغبات الجنسية دون أن تتم عملية قمع كاملة لها. أما المؤسسات

www.scantopdf.eu

التي حلت محل الأسرة، فهي قادرة على القمع الكامل وحسب، وحيث إن هذا مستحيل، فإنه يحل محله الترخيصية الكاملة.

لعل هذا البحث عن اللذة الجنسية الخالصة الفردوسية (وهي فردوسية [أي من خلال نموذج معرفي تفسيري] لأنها لا تبحث عن الاستمرار وترفض الارتباط الدائم كما تحاول تحاشي أي نتائج اجتماعية مثل الزواج أو الأطفال) هو الذي يفسر انتشار الشذوذ الجنسي في المجتمعات الرأسمالية الغربية. وقد تناولت في رسالتي للدكتوراه مسألة الشذوذ الجنسي - كما سأبين فيما بعد - كما تناولتها في كتابي المعنون **الفردوس الأرضي**، فقلت فيه: «هذه ظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا على أساس أيديولوجي [أي من خلال نموذج معرفي تفسيري]. فكل مجتمع فيه شذاذه، ولكن الشذوذ في المجتمعات الغربية قد زاد إلى درجة أصبح معها يشكل ظاهرة (يوجد في الولايات المتحدة الآن [عام١٩٧٢] ما يزيد على أربعة ملايين من الشذاذ، بل يوجد لهم بعض الكنائس التي يديرها وعاظ شاذون جنسيًا مثل كنيسة لوس أنجلوس، وقد أنشئ معبد يهودي للشذاذ، بل ويشيفاه [مدرسة تلمودية] لتخريج الشذاذ).

«وأعتقد أن الشذوذ هو النتيجة المنطقية والترجمة الوحيدة الأمينة لمبدإ اللذة النفعي، فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشئ علاقة مع شخص آخر من جنسه فيتغلب على اغترابه بشكل مؤقت ثم يعود مرة أخرى لحياته الاستهلاكية البسيطة. وهو يتغلب على اغترابه دون أن يدخل في علاقات ذات آثار اجتماعية تضطره للدخول في علاقة حقيقية مع الآخرين ومع الواقع، إن العلاقة مع شخص من نفس الجنس هي أقل العلاقات الإنسانية جدلية. وحينما كنت في نيويورك لاحظت أن الشاذات من النساء أصبح لهن وجود ملحوظ، وهذا تطور جديد لأنه قبل ذلك كان الشذاذ من الرجال وحدهم هم المصرح لهم بالظهور. وسبب هذا «التطور» أو «التقدم» ولا شك يعود لحركة تحرير المرأة [أعني في واقع الأمر حركة التمركز حول الأنثى] التي ينادي بعض زعمائها بأن المرأة الشاذة جنسيًا هي المرأة التي استغنت كلية عن الرجال، ولذا فهي أكثر النساء تحررًا، وهي المرأة التي حققت داخل التاريخ المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال، وحققت بذلك الاكتفاء الذاتي».

ويبدو أنه مع تصاعد معدلات الترشيد وازدياد هيمنة النماذج الكمية والبيروقراطية، أصبح الفرد غير قادر على الاستجابة التلقائية للدوافع الغريزية العادية، ولذا فهو يحتاج

www.scantopdf.eu

إلى مؤثرات عنيفة حتى يمكنه الاستجابة. وقد يفسر هذا تصاعد معدلات العنف في الحياة وفي الأفلام، ولعل هذا يفسر أيضًا ارتباط الجنس بالعنف. كنت أشاهد التليفزيون الإنجليزي، وجاء رجل قد غرس في كل أجزاء جسمه ما لا يقل عن ثلاثين قرطًا، في أذنيه وفي شفته - في فمه - في بطنه . . . إلخ. وقد ظهر أن هذا الرجل كان مدير إحدى كبرى الشركات، وفجأة شعر أنه يعيش في عالم من الأرقام والصفقات، فتمرد عليه وأراد أن يشعر بالعالم المتعين، فغرس كل هذه القروط حتى يشعر بجسده. ولم يجد سوى هذه الطريقة العنيفة!

وأعتقد أنه مع الترشيد الكامل للغة الإنجليزية، أصبح التواصل الإنساني من خلالها صعبًا، إن لم يكن مستحيلاً. فالتواصل بين البشر يتطلب لغة مركبة تحوي الكثير من الظلال وتسمح بقدر من الإبهام، فليس كل ما يشعر الإنسان به يمكنه البوح به، وحتى إن أمكنه البوح، فالصمت أحيانًا أكثر بلاغة من الكلمات. أما اللغة الرشيدة فتتطلب أن تعبِّر عن كل شيء، وما لا يتم الإفصاح عنه لا وجود له. وهي لغة ممتازة، ولكنها لا تصلح إلا للمعمل أو المحكمة. وقد أصبح التعبير عن العواطف، داخل إطار الترشيد، أمرًا ممجوجًا ومبالغة غير مقبولة (بالإنجليزية : أوفرستيتمنت over statement)، ولم يعد أمام الإنسان سوى أن يتواصل من خلال الجسد. وهذا النوع من الحوار من خلال الجسد هو نتيجة منطقية للموقف المادي الذي يرد الإنسان في كليته إلى عالم المادة، والذي يرى أن الحيز الإنساني هو ذاته الحيز الطبيعي/ المادي وأن الإنسان قابع داخل حواسه الخمس. ولذلك أصبحت العلاقة الجنسية وسيلة سهلة ومباشرة وملموسة للتواصل مع الآخرين (ولذا أقول إن الـ intercourse [الجماع] هو شكل من أشكال الـ discourse [الخطاب] في كثير من الأحيان).

وقد بدأ الحديث في الولايات المتحدة في الستينيات عن مزج ماركس وفرويد، ولكن ما حدث في الواقع أمر مخالف تمامًا، فما هو بمزيج بين ماركس وفرويد، ولا هو انتصار لأيٍّ منهما، وإنما هو انتصار لما بعد ماركس وما بعد فرويد (والحضارة الغربية هي حضارة المابعديات فهي حضارة «ما بعد الصناعة» و«ما بعد الرأسمالية» و«ما بعد الحداثة»، وبعضهم يقول «ما بعد الإنسانية» أيضًا، وكلمة «ما بعد» تفيد أن النموذج السائد قد تفتت ولم يحل بدلاً منه نموذج جديد). وحضارة المابعديات هذه تتحرر فيها الطاقة الجنسية تمامًا من أي أعباء اجتماعية أو أخلاقية أو إنسانية، وتصبح مسألة طبيعية محايدة تمامًا. لقد

www.scantopdf.eu

انتهى الأمر بأن انتصر الجنس (هذا الشيء المادي الكامن في الإنسان) على كل شيء بما في ذلك مقدرة الإنسان على التجاوز - فكرة الجوهر الإنساني - الأسرة - وسائل الإنتاج - العنصر الاقتصادي. ويظهر هذا في حركة الهيبي، التي طرحت مسألة علاقة الجنس بالثورة وحاولت أن تجعل الثورة في جوهرها ثورة جنسية، والتحرر الحقيقي تحرراً جنسيّاً كاملاً، بحيث يصبح الإنسان فرداً مكتفيًا بذاته، مرجعية ذاته. ولكن المفارقة الكبرى هي أن تحقق هذه الرؤية يعني أن الإنسان يصبح مسلوب الإرادة لا حول له ولا قوة، يسير حسبما توجهه غرائزه بكل حتمياتها.

وتعد مسرحية «هير Hair» (أي شَعْر) الغنائية، التي شاهدتها في نيويورك في منتصف الستينيات، معلمًا أساسيًا في هذا الاتجاه، فهي تحتفي بانتصار إله الجنس وهيمنته الكاملة على الإنسان، إذ يصبح هو المحرك الأساسي له فيفقد حريته ومقدرته على الاختيار. تفتح المسرحية بأغنية عن الأبراج الفلكية وعن تلك اللحظة التي تلتقي فيها بعض أبراج النجوم، فيبدأ عصر أكواریاس Aquarius، وهي كلمة لاتينية تعني برج الدلو وتشير في الوقت ذاته إلى المياه والسيولة. وكأننا بدأنا عصراً جديداً لا حدود فيه ولا قيود، عصر ذوبان الذات. ويعبر الإنسان عن نفسه في هذا العالم السائل من خلال علاقات جنسية عرضية مستمرة، لا تتسم بأي قدر من ثبات، ولا تدخل الأطفال، الذين قد يكونون ثمرة العلاقة الجنسية، في الحُسبان، فهي حالة نرجسية كاملة ينتج عنها عدم الاكتراث بالآخرين.

وفي أحد مشاهد هذه المسرحية الغنائية تأتي فتاة بيضاء لعشيقها الأسود، وبطنها قد انتفخ نتيجة اللقاء الجنسي «الممتع» والعابر بينهما، فيخبرها بأنه في طريقه إلى كاليفورنيا ليبدأ حياة المتعة من جديد مع أنثى أخرى. وحينما تحتج على ذلك، يخبرها عن حكمته العميقة التي لا تفهمها هي: «أنت لا تفهمين الوعي الكوني وكل هذه الأمور الهباب you do not understand cosmic consciousness and all that shit. وعبارة «وعي كوني» ترد في كتابات وولت ويتمان. واستخدام العشيق لهذه العبارة (مع إضافة العبارة الأخيرة) يدل على أنه يستخدم الوعي الكوني ستاراً فلسفيًا لأنانيته وشهوته.

وكنت أنوي كتابة دراسة عن هذه المسرحية الغنائية مستخدمًا فيها نموذج الحلولية (حلول الخالق في المخلوق واتحاده به) مبينًا فيه أن الحلولية السائلة (التي لا مركز لها) تحل

www.scantopdf.eu

محل الحلولية الصلبة (ذات المركز المادي) التي سادت في الحضارة الغربية حتى منتصف القرن العشرين (وهذا نمط أساسي آخر أحاول أن أدرسه وأوضحه في الموسوعة وأشير إليه في هذه الأوراق في فصلين عنوانهما «الحلولية» و«العلمانية الشاملة»). ومما زاد من عزمي أن أكتب الدراسة أن د. لويس عوض كتب مقالاً في الأهرام يشيد فيه بهذه المسرحية دون أن يتوجه لأي من المشكلات الفكرية أو الأخلاقية التي تثيرها، ولكنني لسوء الحظ لم أفعل.

وقد شاهدت في نفس الفترة تقريباً مسرحية بيتر فايس Peterweiss **دي صاد**، وهي مسرحية تثير قضية علاقة الجنس بالتاريخ وعلاقة الذات الثورية (الهائجة) بالثورة الموضوعية (وقوانينها الصارمة). وتدور أحداث المسرحية في مستشفى للأمراض العقلية حيث يقوم المرضى بتمثيل مسرحية عن حياة جان بول مارا، أحد أهم مفكري وقادة الثورة الفرنسية. ويقوم الماركيز دي صاد، الذي حُددت إقامته في هذا المستشفى، بإخراج المسرحية التي تتداخل فيها كل الأمور وتتشابك كل الخطوط. فبعض ممثلي المسرحية يخرجون عن أدوارهم فجأة ويتصرفون كمجانين، وكثير منهم مصاب بأمراض مرتبطة برغباتهم الجنسية، المكبوتة والمنطلقة في آن واحد. وبطل المسرحية داخل المسرحية هو أحد زعماء الثورة الفرنسية جان بول مارا المصاب بمرض جلدي يرفع حرارته دائماً (ويبدو أنه أصيب بالمرض في أثناء فراره في مجاري باريس من الشرطة الفرنسية). وليخفض درجة حرارته قليلاً، يجلس جان بول مارا في شيء يشبه البانيو، وكأنه في حالة جنينية كاملة، ويشعر وهو في جلسته هذه بالجماهير والغوغاء تجري في عقله ويصدر بياناته الثورية الواحد تلو الآخر. وهنا تراودنا الشكوك بخصوص مدى عقلانية بياناته، ويلقي الماركيز بسؤال في وجهه: ما الثورة دون جماع؟ أي ما الثورة الموضوعية دون إرواء للذات الفردية متمثلة في اللذة الجنسية؟.

وقد قابلت في إحدى الحفلات التي كانت تعقدها في **البارتيزان** ريفيو (بجامعة رتجرز) سوزان سونتاج Susan Sontag، الكاتبة الأمريكية اليهودية المدافعة عن السحاق (هي ذاتها كانت مساحقة برغم أنها كانت قد تزوجت وعلى ما سمعت أنجبت ولداً. كنت حينما أفكر فيه ينتابني الكثير من الحيرة وبعض الحزن. حينما قابلتها أول مرة، وكانت المرة الأولى في حياتي أقابل هذا الصنف من النساء، تأملت في شكلها كثيراً وأُصبت بما يشبه الدوار؛ ولكنني ألفت الأمر بعد ذلك). كانت سوزان سونتاج تُعدُّ من أهم الكُتاب،

www.scantopdf.eu

وكانت قراءة مقالاتها أمرًا «محتمًا» على أي مثقف (إيه مست ريدنج a must reading كما يقولون بالإنجليزية)، ثم صدر كتابها **ضد التفسير** (بالإنجليزية : أجنست إنتربرتيشن Against Interpretation) الذي اكتسح كل شيء عند صدوره (ولا يسمع أحد به الآن، كما هو الحال مع كثير من هذه الكتب). اشتريت الكتاب وقرأته بشغف .

وحينما عدت إلى مصر عام ١٩٦٩، كان أول مقال نشرته هو عرض لهذا الكتاب («**حضارة الكامب : دراسة في مذهب نقدي جديد**» المجلة ديسمبر سنة ١٩٧٠). وأشرت في المقال إلى اللاعقلانية الفلسفية التي بدأت تمسك بتلابيب الغرب بل وتهيمن عليه («العمل الفني ليس محاكاة وإنما سحر» - «الاستجابة الحسية المباشرة للعمل الفني التي تستعصى على التفسير» - «مظهرنا هو وجودنا الحقيقي، والقناع هو الوجه» - «في عالم الحداثة لا يوجد شكل مفهوم، وحيث يفقد الإنسان ما يميِّزه كإنسان وحيث يتساوى الرجل مع الشيء، بل حيث تتحرر الأشياء من الإنسان وتسيطر عليه»). وأشرت أيضًا إلى تحول الجنس إلى موضوع أساسي («الرغبة في العودة إلى حالة البراءة الأولى قبل أن يسقط الإنسان في التاريخ» - «المطلوب هو جنسيات للأدب erotics [إيروطيقا] وليس تفسيرات له hermenutics [هيرمنيوطيقا]» - «أرستقراطية حضارة الكامب هم المخنثون، فالإنسان الخنثى لا يمكنه أن ينتمي لمجتمع جاد يحكم على نفسه بمعايير أخلاقية اجتماعية»). هل نفهم الآن مايكل جاكسون الذي لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى، ممثل النسبية الكاملة، وعدم الانتماء لأي شيء ؛ التجسد الحق للتفكيكية ؟ هل نفهم الآن هذا الحديث المتكرر والممل عن الجندر gender، أي النوع، (وليس الجنس «سكس sex») بحُسبان أن الفروق الجسدية والتشريحية بين الرجال والنساء ليست أساسية، وأن دور كل منهما (كذكر أو أنثى) ليس مسألة مرتبطة من قريب أو بعيد بالخصائص الجسدية، وإنما هي مسألة تشكيل اجتماعي، وصياغة حضارية ؟ (وهذه مفارقة تستحق التسجيل : في الحضارة التي يشغل فيها الجنس هذه المركزية التي تصل إلى حد الهوس، ثمة محاولة إلى تحييده تمامًا و«إلغائه») .

وقد درست على يد الناقد الأمريكي ليونيل ترلينج Lionel Trilling حينما كنت في جامعة كولومبيا (وفكرت في أن أكتب عنه رسالة للدكتوراه، لكن دعاة الاتجاه الشكلاني في جامعة رتجرز قالوا إنه لا يستحق الكتابة عنه، فالأمور في الولايات المتحدة ليست ليبرالية تمامًا كما يدعون). كان ترلينج من المؤمنين بالأطروحة التي أشرنا إليها من قبل،

www.scantopdf.eu

وهي أن المجتمعات الحديثة تقضي على إنسانية الإنسان وفرديته، وترشده وتدجنه وتجعل منه شيئًا مستأنسًا، وتؤدي إلى تزايد التنميط وهيمنة النماذج الآلية على كل أشكال الحياة الإنسانية. ولكنه، مع هذا، كان يرى أن الطاقة الجنسية في الإنسان هي عنصر بروميثي يستعصي على الترشيد والقمع، ولذا كان يتصور أن الرغبة الجنسية (ذات الجذور البيولوجية الراسخة) ستظل هي صخرة المقاومة الأساسية للإنسان ضد المجتمع الحديث بنزعاته التنميطية المعادية للإنسان.

ولكن حلم ترلنج لم يُكتب له النجاح، وهذا ما أدركه كثير من المحللين الماركسيين. والخطاب التحليلي الماركسي في الولايات المتحدة في الستينيات كان مختلفًا إلى حدٍّ كبير عما ألفناه في مصر، إذ بدأ يركز على موضوعات جديدة مثل فكرة التجاوز والتسامي ونظرية ما بعد الأيديولوجيا ونظرية التلاقي، وبدأ الماركسيون يكتشفون كلاسيكيات يسارية جديدة مثل مخطوطات ماركس التي كتبها عام ١٨٤٨ ومؤلفات إريك فروم Eric Fromm ومدرسة فرانكفورت. فالعنصر الاقتصادي لم يعد العنصر الوحيد الذي يمكن من خلاله تفسير الحياة الإنسانية، والطبقة العاملة لم يعد لها، في تصور هؤلاء الماركسيين الجدد، دور مركزي في حركة التاريخ. لقد اكتشف الماركسيون في الولايات المتحدة (أو شبه الماركسيين، حسب تصنيف بعض الغلاة) أن التحليل الذي يعطي أولوية سببية للعنصر الاقتصادي والطبقي لم يَعُد مجديًا، فالمجتمعات الصناعية الحديثة (في الشرق الاشتراكي والغرب الرأسمالي) يمكنها أن تفي بحاجات الإنسان المادية (الاقتصادية والجنسية). ومع هذا، ستظل هذه المجتمعات مجتمعات شمولية تتجه نحو مزيد من التنميط (الترشيد فيما بعد). ولذا اتجه الخطاب الماركسي في الولايات المتحدة لمشكلة الإنسان كإنسان، ومشكلة طبيعته، ولم يحصر نفسه في المجال الاقتصادي (كما حدث في كثير من بلاد العالم الثالث) وإنما تناول كل جوانب حياة الإنسان، ومن بينها الجنس.

وكان من الطبيعي أن يتوجه الفكر الماركسي أو شبه الماركسي الجديد لقضية الجنس، فبيَّن أن الاحتكارات الأمريكية التي وظفت دوافع الإنسان الاقتصادية قامت بتوظيف دوافعه الجنسية أيضًا. فكان ماركوز يتحدث عن إنسان مشبع اقتصاديًا، ولكنه مصاب بالجوع الدائم للسلع؛ وعن طبقة عاملة، مفتقدة للوعي الطبقي، وعن إنسان مشبع جنسيًا، ولكنه في حالة نهم جنسي شديد. فوسائل الإعلام (حسب تصور ماركوز وغيره من المفكرين) تُصَعّد من رغبات الإنسان الجنسية والاستهلاكية، وتسطحه فيصبح ذا بُعد

www.scantopdf.eu

واحد يمكن التحكم فيه من خلال أحلامه ورغباته. وهكذا انتهى حلم ترلينج البروميثي - حلم التجاوز من خلال الجنس - وحلت محله الهيمنة على الإنسان من خلال الجنس، وتحوَّل الجنس من عنصر ثوري إلى عنصر معاد للثورة، توظفه شركة الكوكاكولا والشيفروليه لصالحها ضد الإنسان.

أذكر أنني كنت ألقي محاضرة في مدرسة ثانوية في نيويورك، وفي طريقي إلى قاعة المحاضرات وجدت الطلبة والطالبات (معظمهم دون السادسة عشرة) وقد تعانقوا في الممر، وكل طالب احتضن طالبة، وكان يقبلها بحماسة منقطعة النظير. ودخلت إلى القاعة فكانت خاوية على عروشها، تنعى من بناها. وجاء المدرسون ونجحوا في إقناع بعض الطلبة والطالبات بالدخول إلى القاعة، ومع هذا استمر العناق وتبادل القبلات. وبعد المحاضرة سألت الأستاذ المسئول: لم يسمحون بمثل هذا في إحدى دور العلم (خاصة وأن مثل هذه الأمور لم يكن مسموحًا بها حتى أواخر الستينيات حينما تركت الولايات المتحدة)؟ فقال إن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن إسكاتهم بها.

لقد انفلتت الرغبات الجنسية البروميثية من عقالها، وبدلاً من أن تحرر الإنسان، حيدته ثم استعبدته. فانتشرت الإباحية وتم «تطبيعها» بشكل لم يعرفه المجتمع الأمريكي من قبل (خاصةً من خلال الإعلانات، كما سأبين لاحقًا). بل يُخيل إليَّ أحياناً أننا يجب أن ننظر إلى الإباحية الأمريكية لا في علاقتها بالجنس، وإنما في علاقتها بالتشريح، فبعض الأعمال الإباحية الحديثة تنظر للجسد لا باعتباره شيئاً يثير الشهوة وإنما باعتباره شيئاً يُنظر إليه بشكل معملي، شبه محايد. فكأن الهدف من الإباحية هنا ليس إرضاء الشهوات وإنما اختزال الإنسان إلى جسد، ثم تشريح أو تفكيك هذا الإنسان وتحويله إلى مادة استعمالية، ومن هنا محورية فعل «يُعرِّي» (بالإنجليزية : دي نيود deneude). فالتعرية هنا تبدأ بالجسد وتنتهي بتعرية الإنسان من تركيبيته وإنسانيته. لكل هذا يُنظر للجنس بطريقة محايدة للغاية وكأنه نشاط بيولوجي منفصل عن القيمة. (كنت أحاول أن أشرح هذه القضية لبعض الفقهاء ممن كانوا يتحدثون عن «الزنا» في الغرب، وكأن الغرب لا يزال يدور داخل إطار الحلال والحرام. فكنت أقول لهم : عندنا في مجتمعاتنا إن اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما. المشكلة في الغرب أن الشيطان لا يحضر، لأن المسألة أصبحت طبيعية ومحايدة بدون أي إحساس بالذنب إلى درجة أنها أصبحت قضية إجرائية محضة : أين ؟ متى ؟ إلخ. وكنت أخبرهم أنني أرحب بحضور الشيطان فهو على الأقل

www.scantopdf.eu

يذكرنا بالله، تمامًا كما يذكرنا الشر بالخير، والحرام بالحلال). انطلاقًا من هذا التحييد، أصبح من الممكن الآن الإشارة إلى البغاء بحُسبانه نشاطًا اقتصاديًا محايدًا، مجرد عمل عضلي لا يختلف عن غيره من الأعمال. ولذا تُسمَّى البغي الآن في بعض الأوساط «عاملة جنس» (بالإنجليزية : سكس وركر sex worker).

ونظرًا لتحييد الجنس وتطبيعه، أصبح خاضعًا للتجريب (شأنه شأن أي ظاهرة في المجتمع الغربي)، فبدءوا يتحدثون عن «الاختيار الجنسي» (بالإنجليزية : سكشوال برفرنس sexual preference) و«الدور الجنسي» (بالإنجليزية : سكشوال رول sexual role) بدلاً من الهوية الجنسية. وبدأ ظهور الترانسفيستايت transvestites وهم عادةً الرجال الذين يرتدون ملابس النساء. وبدأ الاهتمام بأمور مثل الجماع مع الأطفال (بالإنجليزية : بيدوفيليا pedophilia) والحيوانات (بالإنجليزية : زووفيليا zoophilia). (وهي كلها كلمات المقطع الثاني فيها يعني «حب»، وهو نفس المقطع الموجود في فيلوسوفيا philosophia أي «حب الحكمة»!).

ولعل تحرر الجنس من الإطار الاجتماعي وتحييده وتطبيعه يظهر في أن المرأة الغربية الآن قد تمارس الجنس مع رجل وتتزوج من آخر وقد تحمل من ثالث، كما يتضح في ظهور «أشكال بديلة من الأسرة» (حاول مؤتمر السكان في القاهرة إسباغ الشرعية عليها) مثل أسرة تتكون من رجلين أو امرأتين ويحق لهما الآن تبني الأطفال، بل «إنجابهما» عن طريق عمليات التلقيح الصناعي. ولعل هذه التطورات التي كانت كامنة في نموذج التحرر الجنسي والتي بدأت في التحقق، لعلها تؤدي ببعض المنادين بمثل هذه الحرية إلى التريث قليلاً في دعوتهم فلا يدعون إلى الحرية ويكتفون بذلك، بل ينظرون إلى التطورات اللاحقة، خاصة أن بعض هذه التطورات بدأت تظهر في مجتمعاتنا بالفعل (انظر إلى التليفزيون المصري وإعلاناته الراقصة التي لا تنتهي وتوظيف الجنس في بيع كل شيء ابتداءً من كريمات الجلد وانتهاءً بالمبيدات الحشرية. وانظر إلى الفيديو كليبس ومحطاتها المليون التى تعمل ٤٨ ساعة كل يوم حتى يترسخ فى أذهان الجميع أن الجسد هو المرجعية النهائية وهو الذي يسبغ معنى على حياتنا!).

ويرتبط بقضية الجنس والاهتمام المحموم به، عدة قضايا. فقد ظهرت أعمال أدبية تتعامل مع الجنس بشكل مكشوف ومباشر، وتحاول أن تتحدث عما يسمَّى «لغة الجسد»،

www.scantopdf.eu

كما ظهرت مجلة أدبية مصرية عنوانها الرئيسي «النساء يكتبن بأجسادهن». ولا أعرف أي لغة هذه، فاللغة بطبيعتها مجردة، ولكنها مرة أخرى محاولة أن يُحصر الإنسان في نطاق حواسه الخمس، وإنكار مقدرته على أن يُجاوز ذاته الطبيعية المادية، فهي دعوة رجعية لا إنسانية. إن الأعمال الأدبية التي تتحدث بلغة الجسد (والحواس الخمس) أعمال ترفض التعامل مع رحابة وتركيبية الظاهرة الإنسانية.

والأعمال الإباحية لم تعد قضية فردية وأعمالاً أدبية يتداولها بضعة أفراد (من أعضاء النخبة الثقافية أو السياسية)، فشيوعها، على هذا المستوى، يجعل منها قضية اجتماعية، خاصة بتوجه المجتمع ونسيجه. كنت أعرف شاعراً أمريكيّا يكتب بلغة الجسد هذه. والطريف في الموضوع أنه كان متزوجًا، وعنده أولاد، وكان محافظًا إلى حدٍّ ما في حياته الشخصية. ودخلت معه في حوار بخصوص شعره في إحدى محطات الإذاعة. وكان بطبيعة الحال يدافع عن شعره من منظور حرية الفكر وحريته الفردية. فأخبرته أليس من حق المجتمع أن يدافع عن نفسه وعن معاييره ضد أفراد يودون تقويضه ويسقطون أي معيارية ؟ كما قلت ضاحكًا: إن قضية الإباحية تصبح قضية فكرية لو توافر في كاتب الأدب الإباحي شرطان: ألا يحقق ربحًا ماليّا من أدبه (فالدافع نحو الكتابة الإباحية قد يكون الربح المالي وليس الموقف الفكري)، أما الشرط الثاني فهو أن يثبت لنا هذا الكاتب أنه يمارس في حياته الخاصة فعليا ما يدعو إليه نظريّا، لنتأكد من إيمانه بما يقول. ولا أعرف أديبًا إباحيّا واحداً يتوافر فيه هذان الشرطان. فتجاهل صاحبنا أقوالي تمامًا واستمر في الدفاع عن الحرية المطلقة. بل إنني قرأت عن سيدة أمريكية عندها شركة إنتاج تليفزيوني، تخصصت في إنتاج المسلسلات التليفزيونية التي تتميز بوجود شخصيات مساحقة فيها. وهذه السيدة لا تؤمن شخصيّا بالشذوذ ولا تمارسه في حياتها، ولكنها وجدت هذا طريقًا سهلاً للربح !

وقد لاحظ بعض المعلقين فى الولايات المتحدة أنه فى الماضى كان النجم السينمائى الذى يؤدي أدوار الشرير، يحاول دائمًا أن يبين أن حياته طبيعية وعادية (حتى لو لم تكن كذلك). أما الآن فبطلات مسلسل «**الجنس والمدينة Sex and the city**» (وهو مسلسل عن مجموعة من الفتيات الباحثات عن المتعة الجنسية خارج أى معايير اجتماعية) يحرصن على إخفاء أنهن يعشن حياة طبيعية وعادية، ويتزوجن وينجبن مثل بقية خلق الله!

www.scantopdf.eu

وفي دراسة بعنوان «**الجسد والجنس كصورتين مجازيتين أساسيتين في الحضارة الغربية الحديثة**» اقتبست كلمات المفكر الفرنسي ليوتار: «الجسد أصبح أصل الفلسفة وأصل كل النشاطات الأساسية، أما الإبستمولوجيا فقد أصبحت تشبه النشاط الجنسي». وحاولت أن أوضح كلمات ليوتارد، فقلت: إن الجسد هو الصورة المجازية الأساسية في عصر التحديث، أما الجنس فهو صورته في عصر ما بعد الحداثة. ولمزيد من الإيضاح بينت أن ما يحدث الآن في الفلسفة الغربية الحديثة هو إعطاء الجنس (واللذة والشهوة والرغبة) أسبقية معرفية على كل الأشياء، بل إن الجنس بدأ يحل محل اللغة، فعلى الرغم من أن اللغة في رأي أنصار ما بعد الحداثة هي نظام مستقل عن الواقع (فهي نظام لا يشكله الإنسان الفرد الواعي)، فإنها يوجد فيها بعض ظلال الإله - أي المعنى والرغبة في التفسير والذات والموضوع. أما الجنس، فقد تخلص من هذا تمامًا. فالجنس رغبة فردية محضة ولكنها لا فردية فيها، فالجميع يشعر بها ويمارسها. والرغبة لا يمكن أن يُحكم عليها من خارجها، ولذا فهي تتحدى التفسير، ومن يتمسك بها تمامًا لا يسقط في الميتافيزيقا بسبب اكتفائها بذاتها. وبهذا يمكن القول بأن الرغبة الجنسية أقرب من الجسد إلى المادة الأصلية الأولى التي تتحدث عنها الفلسفة المادية والتي ليس لها أصل رباني، إنها تشكل المرجعية المادية الكامنة الحقة التي لا تعرف أي تجاوز.

كنت أسير في ميدان الكونكورد في باريس، وكان هناك عدة تماثيل لأنثى تمثل فرنسا، ولاحظت أن النحات تعمَّد أن يعري أحد ثدييها. وبطبيعة الحال لم يكن الهدف هو إثارة الشهوة. فكان عليَّ أن أبحث عن سبب آخر، فلم أجد سوى أن النموذج الجنسي/ المادي، الذي يرد الإنسان إلى أدنى قاسم مشترك له، أي الرغبة الجنسية، هو الذي يفسر لم صوَّر النحات فرنسا على هذا النحو، فهو تأكيد لمادية الرؤية. وهذه المادية/ الجنسية تتبدى في أن كثيراً من الغربيين يفكرون الآن في الإله من خلال صورة مجازية جنسية، فيُشيرون له بأنه هو أو هي أو حتى بشكل محايد he/she/it. وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل حينما نقول «باب» ثم نشير إلى «البوابة» فنحن لا نفكر فيهما إلا بحسبانهما ذكراً وأنثى؟ هل الشيطان ذكر والفضيلة أنثى؟ وما هو جنس الرذيلة والشهامة والكرامة والبخل والذل... إلخ؟ هل الموت ذكر، والحياة أنثى؟ ثم أخيراً يحق لنا أن نتساءل هل ما يهيمن على المجتمعات الحديثة هو نموذج وثني متدنٍّ يدور حول عبادة

www.scantopdf.eu

الأعضاء التناسلية ؟ هل هذه الوثنية هي أعلى (أو أدنى) مراحل المادية، إذ يُرد الإنسان إلى جسده ثم يُرد جسده بأسره إلى أعضائه التناسلية ؟

وكثيرون يربطون الآن بين التجربة الجمالية والتجربة الجنسية (بالإنجليزية : إستيتكس aesthetics وإروتيكس erotics) وبين النصوصية أو التناص والسيولة المرتبطة بالدافع الجنسي (بالإنجليزية : تكستيواليتي textuality وسيكشواليتي sexuality)، فالنص المنغلق - في تصور بعض دعاة ما بعد الحداثة - هو شكل من أشكال قمع الرغبة الجنسية أو إعلاء أو تجاوز لها من خلال شكل مستقل له حدود وهوية، أما النصوصية فهي التداخل الكامل للنصوص المنفتحة بحيث يحيلك نص إلى نص آخر يحيلك بدوره إلى نص ثالث إلى مالا نهاية، إذ لا يوجد أي حدود على أي نص ، مما يعني تراقص النصوص وانزلاقها (يشبه رقص الدوال وانزلاقها). في هذا الإطار، يسقط مفهوم النص بحسبانه عملاً فنيّا متكاملاً ناتجًا عن وعي إنساني مركب، وتصبح التجربة الجمالية الحقة عملية إنكار للتجاوز واستسلامًا كاملاً لإغواء البنية (الأنثوية) المنزلقة التي لا حدود لها، والتي تحوي داخلها كل ما يلزم لفهمها (المرجعية الكامنة)، فهي عودة للرحم وتشكل فقدانًا للحس الخلقي والإحساس بالتاريخ (تمامًا مثل لحظة الجماع الجنسي).

وهذا الاتجاه المتزايد نحو الانشغال بالجسد والجنس ليس حكرًا على المجتمع الأمريكي، بل هو ظاهرة عالمية، آخذة في الاتساع مرتبطة بتساقط الأيديولوجيا وانتشار فكر ما بعد الحداثة. كنت في ماليزيا لإلقاء محاضرة على أعضاء هيئة التدريس عن طريقة تدريس الأدب الإنجليزي من وجهة نظر إنسانية إسلامية، واستخدمت نموذج الحلولية الكمونية لتحليل النصوص الأدبية، وضربت عدة أمثلة. وعند انتهائي من المحاضرة، سألتني إحدى الأستاذات: هل يمكن تدريس الأسس النظرية لأدب الشذاذ جنسياً (بالإنجليزية: كوير ثيري queer theory). فأجبتها بأن هذه الأسس النظرية لا تُدَّرس في معظم جامعات الولايات المتحدة، فلماذا هذا الاهتمام الزائد بها ؟ فقالت لأن مثل هذه الأمور تحدث في مجتمعنا. فأخبرتها أنها تحدث في كل المجتمعات الإنسانية، ولكن يظل هناك فارق بين الواقع والمثل الأعلى. وحتى في الواقع ذاته، هناك وقائع ممثلة وأخرى غير ممثلة، لرغبات وآراء السواد الأعظم من الناس. وبغض النظر عن حواري مع هذه السيدة، يجب أن نؤكد أننا لسنا بمنأى عن موجات الإباحية والشذوذ الجنسي، وأن ما حدث في الغرب ليس مجرد انحراف أو انحلال وإنما هي أمور كامنة في المتتالية

www.scantopdf.eu

النماذجية، وعلينا أن ندرسها جيداً . وقد كنت مقالاً بعنوان« الڤيديو كليب والجسد والعولمة» حاولت فيه أن أبينالأبعاد المعرفية لتأكيد الجسد والجنس(علي حساب الغناء والطرب)وربطتهما بالعولمة وما بعد الحداثه .

ومهما كان الأمر فإن قضية الجنس كانت من القضايا المهمة التي اكتشفت من خلالها بساطة الرؤية المادية الاختزالية وأنها تؤدي لا إلى تحرير الإنسان وإنما إلى تفكيكه .

الاستهلاكية والإمبريالية النفسية

وهنا يجب أن أتحدث، بشيء من التفصيل، عما أشرت إليه من قبل، أي الإمبريالية النفسية، فهي مرتبطة إلى حدٍّ كبير بزيادة السعار الجنسي والاستهلاكي والتكالب على كل شيء (السلع - النساء . . . إلخ). ومن هنا فهي من أهم العوامل التفكيكية في العصر الحديث، إن لم تكن أهمها طرّا. وهذه الإمبريالية النفسية - على عكس الإمبريالية التقليدية - أدركت أن استنزاف المصادر الطبيعية في آسيا وإفريقيا وكل أطراف المعمورة قد ازداد، تماماً مثل التزاحم على الأسواق، وأن تكلفة المواجهة العسكرية مع شعوب العالم الثالث هي الأخرى قد أصبحت باهظة. فالدخول في حروب عسكرية «عالمية» يؤدي إلى استنزاف طاقة الدول الكبرى الغربية. ثم وجدت هذه الدول أن بوسعها أن تقذف بالدول النامية إلى حروب صغيرة تحقق من خلالها أرباحًا عالية (إذ تقوم هي بطبيعة الحال ببيع السلاح للطرفين المتنازعين، ولا تزال تجارة السلاح هي أهم تجارة في عصرنا الحديث، لا يفوقها حتى تجارة المخدرات) .

ولكن أبعاد الإمبريالية النفسية أكثر عمقًا وشمولاً من ذلك، فهي تنطلق من الإيمان بأن الهدف من الإنتاج هو الاستهلاك، وأن الهدف من تزايد الإنتاج هو تزايد الاستهلاك، وأن حياة المرء تكتسب معنى إن هو استهلك، ومزيداً من المعنى إن هو صعَّد من استهلاكه (وقد عُرِّفت التنمية والحداثة بأنها ثورة التوقعات المتزايدة !)، وأن الإنسان أساسًا حيوان اقتصادي جسماني لا يبحث إلا عن منفعته (الاقتصادية) ولذته (الجسدية)، وأن سلوكه لابد أن يصبح نمطيًا حتى يمكن أن يستهلك السلع التي تنتجها خطوط التجميع. هذا الإنسان لا يهدف في حياته إلا إلى تحقيق المنفعة واللذة، ويرى أن خلاصه يكمن في ذلك. ولذا كانت «الحاجة أم الاختراع في الماضي»، أما في إطار الإمبريالية النفسية

www.scantopdf.eu

«فالاختراع هو أبو الحاجة»، إذ لابد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم. ومن هنا يدخل الإنسان دائرة الإنتاج التي لا هدف لها والآخذة في الاتساع إلى ما لا نهاية.

لقد قررت الإمبريالية النفسيةتوسيع رقعة السوق لا عن طريق الانتشار الأفقي في الخارج (الذي يتطلب القوة العسكرية) وإنما عن طريق الانتشار الرأسي داخل النفس البشرية ذاتها، التي تتحول إلى سوق دائم الاتساع تسيطر عليها هذه الإمبريالية وتوجهها وتطرح فيها كمًا كبيراً من السلع، ثم تلقي في روع الفرد (الذي يقف عارياً ضعيفًا وحيداً أمام وسائل الإعلام، والذي يتم تنميطه حتى يدخل الآلة الاستهلاكية) أن هذه السلع لا تحقق «منفعته» وحسب بل و«سعادته» (أي لذته) أيضًا. وقد نجحت هذه الإمبريالية في تجنيد كل الطاقات، خاصةً صنَّاع الصور (بالإنجليزية : إميج ميكرز image makers) في مختلف وسائل الإعلام (ومن المفارقات التي تستحق الوقوف عندها أنه رغم خطورة الدور الذي يلعبه القائمون على الإعلام إلا أنهم أشخاص غير منتخبين وأنه لا يمكن مساءلتهم). ومن أهم القطاعات التي تساهم في صنع الصورة قطاع الأفلام الذي يشيع العنف وصورة الإنسان الذي يعيش في اللحظة الآنية، يساعده قطاع الأزياء الذي يُغيِّر «أذواق» الذكور والإناث والأطفال كل عام مرتين. ومن أهم القطاعات الأخرى، ولعلها أهمها قاطبة، قطاع الإعلانات التجارية التي لا يكف التليفزيون الأمريكي عن بثها (أصبح قطاع الإعلانات من أهم القطاعات الاقتصادية حتى إن أحد أصدقائي قال مازحًا إنه لو تحولت الولايات المتحدة إلى الاشتراكية، فإن من أكثر المشكلات التي سيواجهها النظام الاشتراكي هناك مشكلة العاملين في هذا القطاع وإعادة تأهيلهم، تمامًا مثلما واجه النظام الاشتراكي في كوبا مشكلة إعادة تأهيل العاملين في قطاع البغاء والقمار، وكان من أكبر قطاعات الاقتصاد الكوبي قبل الثورة).

والهدف من هذا الهجوم الإعلامي هو إشاعة النموذج الاستهلاكي لتطويع الجماهير وتدجينهم وتنميطهم، بحيث يجد الإنسان العادي (وغير العادي) نفسه مستبطنًا لفكرة أن السعادة لن تتحقق إلا عن طريق الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، فيتوحد تمامًا بالسلعة ويصبح إنسانًا متسلعًا ذا بعد واحد غارقًا تمامًا في السلعة والمادة، وفي حالة غيبوبة إنسانية كاملة. وكما يقول الدكتور جلال أمين، فإن ضحايا الاستغلال في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ليسوا العمال والفلاحين، وإنما هم المستهلكون من أي طبقة. ولعل هذا يظهر في الاستغلال البشع للطفولة، إذ تتوجه لهم الإعلانات مباشرةً، وبذا تتخطى الآباء

www.scantopdf.eu

والأمهات ومنظوماتهم الأخلاقية بل ودخلهم المالي. وكم رأيت الكثيرين من زملائي المصريين يدخلون مناطق التسوق (الشوبنج مول) ولا يخرجون منها قط. وهم يضطرون بطبيعة الحال إلى مغادرتها لممارسة حياتهم العادية (من أعمال ودراسة)، ولكنهم كانوا يغادرونها جسداً وقالبًا وحسب، لأنّهم كانوا يبقون فيها روحًا وقلبًا، يهرعون إليها بعد أداء أعمالهم ليستأنفوا نشاطهم الأساسي الذي يتصورون أنهم خلقوا من أجله: شراء السلع والاستفادة من الأوكازيونات التي لا تنتهي! وبطبيعة الحال وصلت هذه الإمبريالية النفسية إلى بلادنا، وبعد أن كان التليفزيون المصري لا يعرف الإعلانات، أصبح الإعلان جزءاً أساسيّا فيه. وهو أيضًا يتوجه للأطفال متخطيًا الآباء. أخبرتني إحدى الأمهات المصريات أن ابنها يبكي بحرقة شديدة من أجل نوع من الشيكولاتة لم يذقه طيلة حياته، ولكنه شاهد إعلانًا عنه!

وإن نظرت من حولك في الولايات المتحدة ظننت أن كل شيء يُباع ويُشترى بتخفيض كبير، وكلمة «سيل sale» أي «تخفيض» أو «أوكازيون» موجودة في كل مكان وتطاردك أينما ذهبت في المحلات والشوارع والجرائد والمكتبات ومنزلك تحاول أن تقنعك بأن أمامك فرصة ذهبية لأن «تخرب بيت» صاحب المحل المسكين، المضطر إلى تصفية بضاعته.

ويرسم صديقي كافين رايلي صورة واقعية ولكنها مثيرة لهذه الهجمة الإمبريالية على الإنسان الفرد في كتاب **الغرب والعالم**:

«إن قدرة مجالين اثنين فقط - هما العلاقات العامة والإعلان - على التلاعب بالآراء والتأثير في القرار الفردي مع التظاهر بتوسيع عالم الاختيار الفردي هي قدرة هائلة. ويكفينا أن نتأمل أمثلة قليلة مستقاة من خبرات الحياة العملية لأحد العاملين في هذه الفنون الجديدة في الثلاثينيات، وهو إدوارد دل. بيرنيز، لنجد فيها ما يغني عن مجلدات. يشرح بيرنيز في مذكراته كيف ساعد جورج واشنطن هل، بشركة الدخان الأمريكية، على حث النساء على الجهر بالتدخين. قام بيرنيز، بناءً على مشورة محلل نفساني كان يرى أن النساء يتصورن أن السجائر بمثابة «مشاعل للحرية»، بالإعداد لموكب تسير فيه المدخنات في عيد الفصح في نيويورك عام ١٩٢٩. وجعل سكرتيرته ترسل تلغرافات لثلاثين من الفتيات من علية القوم في المدينة، وهذا نصه:

www.scantopdf.eu

«من أجل المساواة بين الجنسين، ومن أجل مناهضة تحريم آخر مفروض على بنات جنسنا، قررت مع غيري من الشابات أن نوقد مشعلاً آخر للحرية، بتدخين السجائر في أثناء مسيرتنا بالشارع الخامس يوم عيد الفصح» .

«وقد أثار الحدث ضجة قومية، فنشرت صور النساء بالصحف في أرجاء البلاد. واستجابت النساء من نيويورك إلى سان فرانسيسكو ودخَّنَّ جهاراً. وأدرك بيرنيز أن العادات القديمة المتأصلة يمكن القضاء عليها عن طريق إصدار نداء مثير، تنشره شبكة من وسائل الإعلام» .

ولكن هذه دعوة للتدخين وحسب، والمطلوب هو تدخين نوع معين من السجائر، وهو لكي سترايك ذات الغلاف الأخضر. لتحقيق ذلك كان لابد من إشعال الثورة الخضراء. فقامت شركة لكي سترايك بإعداد تصميم شامل، ومخطط إجرائي كامل، وحُددت أهدافه التفصيلية، ونوع البحث والإستراتيجية والموضوعات والتوقيت اللازم للنشاطات المخططة .

«فأُعدت دراسات سيكولوجية عن تداعيات اللون الأخضر. وقام «مشجع مجهول» بإرسال المبلغ المرصود في الميزانية كله، وقدره ٢٥٠٠٠ دولار لمنظم أهم حفل راقص للمجتمع الراقي آنذاك ينظم حفلاً أخضر. وتم تشجيع أحد منتجي الحرير على «الرهان على اللون الأخضر»، فأقام مأدبة لمحرري الموضة، كانت قائمة الطعام فيها خضراء وكل الطعام أخضر، وقام أحد علماء النفس فحدثهم عن اللون الأخضر. ثم حاضرهم رئيس قسم الفن بكلية هنتر عن «اللون الأخضر» في «أعمال أعلام الفنانين» .

«ولما بشرت الصحف «بخريف أخضر» و«شتاء أخضر» أنشئ مكتب لموضة اللون «قام بتنبيه العاملين في حقل الموضة إلى أن اللون الأخضر هو سيد الألوان» في الملابس وفي القطع الكمالية (الإكسسوارات) وحتى ديكورات المنازل من الداخل. وأرسلت ١٥٠٠ رسالة إلى مصممي الديكور وتجار الأثاث تدور حول سيادة اللون الأخضر، وذلك حتى يضمنوا انضمامهم إلى الاتجاه الجديد، وتم إغراء رئيس حفلة الموضة الخضراء بالسفر إلى فرنسا ليضمن تعاون صناعة الموضة الفرنسية والحكومة الفرنسية (التي تعاونت اعترافًا منها بالقوة الشرائية للمرأة الأمريكية). وتكونت لجنة ضيافة لفريق الموضة الخضراء ضمت بعضًا من ألمع الأسماء في المجتمع الأمريكي، كالسيدة حرم جيمس روزفلت، والسيدة

www.scantopdf.eu

حرم وولتر كريزلر، والسيدة حرم أرفينج برلين، والسيدة حرم آفريل هاريمان. وأقامت اللجنة سلسلة من حفلات العشاء دعت إليها ممثلي صناعات القطع الكمالية لتشجيعهم على توفير القطع الكمالية الخضراء التي تتمشى مع الأزياء الخضراء الواردة من باريس.

«فلما اشتدت الحملة ركب سائر المنتجين الموجة، فأعلن أحدهم عن طلاء أظافر جديد أخضر زمردي، وأدخل آخر الجوارب الخضراء. وبدأ ظهور المعروضات الخضراء في الفترينات، في فيلادلفيا أول الأمر، وأخيراً في سبتمبر ظهرت في محل أولتمان بالشارع الخامس في نيويورك. وقامت مجلتا فوج و هاربرز بازار بتقديم الموضة الخضراء على أغلفتها. وأخيراً انضمت المعارضة البريئة إلى الحملة. فعرضت سجاير «كامل Camel» فتاة ترتدي زيًا أخضر مقلمًا بالأحمر - وهي نفس ألوان علبة سجائر لكي سترايك.

«وهكذا اعترف المنافسون ذاتهم بأن لكي سترايك هي قمة الموضة».

وقد أصبحت الإعلانات «فنًا» جميلاً (برغم أنه شكل دون مضمون يهدف إلى خداعك وسرقتك)، يستوعب طاقات إبداعية كثيرة. انظر مثلاً إعلان الإكسهنتي El Exihente «الرجل المتشدد»: يبدأ الإعلان في قرية في إحدى دول أمريكا اللاتينية وقد اعتلى الوجوه القلق وخيم الصمت على المدينة، «فالمتشدد» قد وصل. ويذهب هذا الرجل إلى أحد أكياس القهوة ويتذوق الحبوب الموجودة فيه ثم يتعاطى فنجانًا من القهوة، وحينما تعلو وجهه ابتسامة الرضا تعم الفرحة وترقص الجماهير وتبدأ طقوس الاحتفال بالحصاد. فمندوب شركة القهوة المتشدد قد وافق على شراء المحصول، مما يدل على جودة القهوة التي تبيعها هذه الشركة الحريصة على مصالح المستهلكين. (في رسالتي للدكتوراه عقدت مقارنة بين هذا الإعلان وقصيدة الشاعر الإنجليزي روبرت هريك «الحصاد» إذ تبدأ طقوس الاحتفال بعد الحصاد مباشرةً، دون انتظار هذه الشخصية اللاشخصية (الإكسهنتي) ليعطي بركته للمحصول، وبينت أن هذا هو الفرق بين المجتمعات التراحمية والمجتمعات التعاقدية، فالأولى تدور في إطار القيمة الفعلية [والكيفية] للأشياء، أما الثانية فلابد أن تتحول فيها القيمة إلى ثمن والكيف إلى كم).

وتشكل إعلانات السيارات المختلفة تشكيلة هائلة منوعة: فإذا كنت من اليمينيين المؤيدين للتدخل الأمريكي العسكري في أرجاء العالم، فإن القوات المسلحة لشركة شفروليه تسير على الشاشة في عظمة وجلال يدلان على عظمة هذه السيارة ومن الخير لك

www.scantopdf.eu

الاستسلام. أما إذا كنت ثوريًا فأنت مدعو للانضمام فوراً لصفوف ثورة الدودج، فلقد سئمنا الشيفروليه وأشباه السيارات. (وبهذا المعنى تكون الإعلانات التجارية هي أول تبشير بما بعد الحداثة وما بعد الأيديولوچيا وانفصال الدال عن المدلول. فالإعلانات - كما نعلم كلنا - كذب في كذب، ومع ذلك نتأثر بها ويتحدد سلوكنا من خلالها). ولكن ماذا لو كنت فقيراً ذا جيوب مثقوبة؟ لا داعي للقلق فصديقك ذو الابتسامة العريضة في بنك نيويورك للقروض سيساعدك، وكل ما عليك أن تفعله هو أن توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح العربة والسعادة. وإن دققت النظر في هذه الورقة البيضاء الصغيرة اكتشفت أنه عليك أن ترهن منزلك وأولادك وزوجتك وذاتك وعرضك وعربتك في مقابل هذا، فضلاً عن أن سعر الفائدة ليس ٤٪ كما تقول اللافتة العريضة، لأنه بالحساب المركب يصل إلى أضعاف أضعاف ذلك. ولكن الابتسامة العريضة على وجه صديقك إياه تنسيك كل الهموم والمخاوف. فإن انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك طوفان السلع الأخرى . . . معجون أسنان، صابون للأطباق، أنواع جذابة من المكرونة والعطور والمياه الغازية والملابس الداخلية والأحذية والشيكولاته والمنشطات الحيوية والمهدئات وأدوات التجميل والتخسيس والأهداب والنهود الصناعية. هذا الركام يمكن أن يزول لو توقف الإنسان بالطبع ولو للحظة واحدة ليتساءل عن جدوى كل هذا، ولكنه بالطبع لا يفعل لأنه إنسان براجماتي ناجح، يجيد التعامل مع الواقع، والإمبريالية النفسية لا تغزو الإنسان من الخارج وحسب، بل تغزوه وتقمع إنسانيته من الداخل.

والغزو الداخلي يتمثل في مظاهر عديدة، لكن أهمها الجنس. فصورة الإنسان الآن في الولايات المتحدة هي خليط من الإنسان الاقتصادي والجسماني (ولذا نجد أن الإعلانات التليفزيونية - سواء في الولايات المتحدة أو في مصر - توظف الجنس بلا حياء في بيع السلع). وقد هيمنت هذه الصورة الإدراكية إلى حدٍّ كبير على الإنسان العادي الأمريكي برغم مقاومة بعض المثقفين لها.

أذكر جيداً أول إعلان تليفزيوني في الولايات المتحدة يوظف الجنس لبيع سلعة، وكان إعلانًا عن كريم حلاقة: تظهر فتاة شقراء على الشاشة الصغيرة وهي تركب سفينة (فهذه الفتاة مرتبطة في ذهن المتفرج الأمريكي بالفايكنج، قراصنة شبه جزيرة إسكندناوه، ومن هنا فهي تربط الكريم بالوحشية والبدائية) ثم تقول بصوت عذب: «فلتخلعها، فلتخلعها كلها Take it off; take it all off» وهنا لعب على الألفاظ بين شعر الذقن الذي يُحلق

www.scantopdf.eu

وملابس المرء التي تُخلع ، واستخدام كلمة it في اللغة الإنجليزية يعمِّق من هذا التلاعب .

وقد كان لي صديق أمريكي من أصل يوناني قال لي ساعتها إن هذا شيء ضخم لا يعرف أحد نهايته . لم أفهم تمامًا معنى ما قاله برغم تعاطفي معه بشكل غامض . وكان صديقي محقّا تمامًا في مخاوفه . إذ انهالت الإعلانات ذات الطابع الجنسي . انظر إعلان هذه السيارة : تسير السيارة ثم تخرج منها فتاة رائعة الحسن وتطلب منك ألا تتردد في شرائها : السيارة/ الفتاة . وقد أصبحت إعلانات بنتون وكالڤين كلاين من أهم الأيقونات الجنسية في المجتمع الأمريكي . وهي إعلانات يشاهدها الجميع ولا يمكن الوقوف ضدها أو وضع رقابة عليها ، لأن هذا يُعد قيداً على الحرية (مع أن أصحاب هذه الإعلانات لا يعنون أبدًا بحرية الرأي ، أو بأي مبدإ آخر ، فهمهم هو بيع السلعة ، ولو وجدوا أن بعض أسفار الإنجيل قد تساعدهم بشكل أكبر على البيع لما ترددوا في التخلي عن توظيف الجنس ولوظفوا الإنجيل بدلاً من ذلك) .

وقد نجم عن هذا انتشار الإباحية ، ليست الإباحية التقليدية وإنما إباحية من نوع جديد . فالإباحية القديمة تفترض أن الجنس إنساني ، وأنه يمكن استغلاله لهذا السبب عن طريق عرضه بطريقة مغرية يسيل لها لعاب الذئاب والملائكة . ولكن الإباحية الجديدة إباحية ديموقراطية «علمية» تفترض أن الجنس طاقة محايدة يمكن استخدامها في التحكم في هذه الوحدة الاستهلاكية التي كانت الفلسفة القديمة تطلق عليها اصطلاح «إنسان» . واختيار الجنس كوسيلة للتحكم في الإنسان يدل على ذكاء وفطنة ، فالجنس نشاط بيولوجي حتمي ولكنه في الوقت نفسه ذو بعد اجتماعي ، وبتأكيد الجانب البيولوجي على حساب الجانب الاجتماعي (دون إلغائه كلية) يخلق المجتمع العلماني الشامل الخلطة السحرية والتوازن المنشود . فأنت قد تسلك سلوكًا اجتماعيًا ولكن سلوكك ستحدده حسابات بيولوجية بسيطة ومحددة . انظر مثلاً إلى كريم الشعر هذا ، إن سحره لا يقاوم ، إن استخدمته وقعت كل الفاتنات في شباكك . وأنت يا سيدتي إذا شربت هذا الدواء (الذي أظهرت التقارير الطبية فيما بعد أن مضاره أكثر من نفعه) ، فأنت ستتمتعين بجاذبية جنسية بعد شربه . وأنت أيها العجوز الكركوب لم لا ترتدي باروكة أو تصبغ شعرك أو تفرد جلدك أو تقصر بنطلونك أو تطوله . اختر ما تشاء من السلع وكله في سبيل الحيوية والبعث الجنسي ، ولكنه بعث جنسي لا علاقة له بالحياة أو الحب أو الزواج أو الطلاق أو حتى إبليس أو بروميثيوس ، فهو بعث بيولوجي مجرد يدور في فراغ حتمي لا نهائي .

www.scantopdf.eu

والإمبريالية النفسية هي حضارة السهل، بدلاً من المركب والجميل. وهي تخلط بين التركيب والتعقيد. فالتركيب هو تعدد الأبعاد والعناصر، أما التعقيد فهو اختلاط الأبعاد والعناصر وليس بالضرورة تعددها. وتحت شعار «فلتكن بسيطًا» أو «لتكن طبيعيًا» (يقابلها في حضارتنا الآن حضارة «بلاش عُقد») تبدأ في إنتاج مجموعة من السلع البسيطة (مثل الهامبورجر والديسكو والبنطلون الچينز) تهدف كلها إلى إفقاد الإنسان تركيبيته وأبعاده ليصبح كيانًا بسيطًا غير معقد يمكن التنبؤ بسلوكه. وأشير إلى هذه السلع البسيطة وأمثالها (التي لا لون ولا طعم ولا رائحة لها، وليس لها أي خصوصية تاريخية أو اجتماعية أو حضارية) بأنها إحدى تبديات تشكيل حضاري جديد، أفرزته الإمبريالية النفسية في الولايات المتحدة، ولكنه ليس أمريكيًا. ولذا أطلق عليه اصطلاح «ضد الحضارة anti-culture»، فهو يهدد كل الأشكال الحضارية وكل الخصوصيات، بما في ذلك الحضارة والخصوصية الأمريكية (فالحضارة الأمريكية تعرف تقاليد حضارية محلية ثرية مختلفة: حضارة الكريول في لويزيانا - حضارة الساحل الشرقي - حضارة الوسط الغربي الأمريكي - التنوع الناجم عن الهجرات المختلفة . . . إلخ). ولكن السلع النمطية السهلة تقوم بخنقها وتصفيتها جميعًا. إن هذه الحضارة المضادة تعبر عن أحادية الطبيعة/المادة وتكرارها، وتحول الإنسان الفرد إلى كائن نمطي بلا أبعاد، يمكن توجيهه بسهولة ويمكن التنبؤ بسلوكه، ولذا فهي حضارة معادية للحضارة والإنسان. ولهذا أعتقد أن خط التجميع (والتنميط) هو الصورة المجازية الكبرى لهذه الحضارة المضادة. وقد يكون مما له دلالته أن نشير إلى أن فورد اكتشف خط التجميع في سلخانة شيكاغو حيث رأى كل الحيوانات معلقة بعد ذبحها صفوفًا متراصة، يمكن تحريكها بسهولة ويسر، كما يمكن «معالجتها» بأي طريقة في أثناء تحريكها.

ولكن هذا الإنسان النمطي هو مع هذا إنسان فردي، ممعن في الفردية، في حالة تنافس دائم مع من حوله، فهو ذات مستقلة، مرجعية ذاتها، لها قوانينها الخاصة، لا يمكنها إرجاء تحقيق الذات (خاصةً وأنه لا يؤمن بآخرة، فإن هي إلا الحياة الدنيا). ولهذا توقعاته دائمًا عالية للغاية، وسريعًا ما ينفد صبره (على الرغم من مقدرته الهائلة على التكيف). أذكر مرة أنني كنت أجلس في فندق في شيكاغو، وجاءت جلستي إلى جوار تليفون عام يتحدث فيه شخص إلى زوجته. ويبدو أن زواجهما كان يمر بمرحلة صعبة نهائية، إذ كانا

www.scantopdf.eu

يتحدثان عن إجراءات الطلاق. وقد ذكر لها بعض مشكلاته، وكان من ضمنها عدم تحقيق ذاته (التي ذكر هو نفسه أنه لا يزال يبحث عنها). وأنه لا يتواصل مع زوجته ١٠٠٪، كما ذكر لها بعض المشكلات الأخرى التي لا تختلف - في تصوري - عن أي مشكلات يقابلها أي شخص عادي في حياته. وكنت على وشك أن أخبره بأن توقعاته أعلى من اللازم، وأن حدود ذاته صلبة للغاية وسائلة للغاية في الوقت ذاته، وأنه لو خفض من توقعاته قليلاً لأصبحت حياته أكثر سعادة، ولتواصل مع زوجته بنسبة ٧٠٪ وهذا يكفي، فالإنسان لا يتواصل مع ذاته بنسبة ١٠٠٪. ولكنني لم أفعل لأنه كان سيتصور أن هذا اقتحام لحياته الشخصية.

ووهم الفردية المطلقة هذا وحلم الاستهلاك المستمر (مع كل آليات الترشيد الأخرى مثل توظيف الجنس في الإعلانات والهيمنة على الإنسان من خلال الإعلام) هو الذي قوض تمامًا أي وعي طبقي أو اجتماعي، فالجميع يحلم أحلامًا فردية يحقق من خلالها الخلاص لنفسه المنفصلة عن المجتمع. وقد كتبت قصيدة قصيرة عن الطبقة العاملة الأمريكية بعد وصولي إلى الولايات المتحدة، بعد أن أحسست بشكل فطري ومباشر بما أحاول أن أنقله في هذه السطور، وكان عنوان القصيدة «إلى البروليتاريا الأمريكية»:

«ولماذا نكد ونكدح/ والأهراء بالقمح مكتظة/ والعصفور/ متخمٌ من لقط الحبوب،/ فلماذا بالله ننفخ في البوق ؟/ والسمن في القدور،/ أما الكروم/ فهي محفوظة ومثلجة/ فلماذا بالله نشعل النار ؟/ وفي المساء/ حينما نسير في جنازة الحياة/ في الأضواء الحمراء والخضراء والصفراء/ نمرح ونمزح ثم ننام في الشق،/ فلماذا بالله نصهر الحديد؟».

وفي إطار الإمبريالية النفسية يصبح الإنسان قادرًا على التقدم للأمام وعلى النجاح وحسب (أليست هي حضارة التقدم والإنجاز ؟) غير قادر على التقهقر والفشل. وبرغم أنها حضارة التقدم فإن الإنسان فيها يجد صعوبة بالغة في التقدم في السن، فهذا يعني الخضوع للزمن والفقدان التدريجي للطاقة، وهذا يمثل نوعًا من الإخفاق. ولذا نجد أنهم يحلمون بالشباب الدائم أطفالاً كانوا أم كهولاً ! كنت أسير مرة في شارع ماديسون (ماديسون أڤنيو) وهو الشارع الذي توجد فيه معظم مكاتب الإعلان الساعة الخامسة، أي ساعة انصراف المكاتب. وفوجئت بمنظر غريب، كل السكرتيرات يشبهن بعضهن

www.scantopdf.eu

البعض، يضعن نفس الكمية من المساحيق على الوجه، ويحاولن ألا يزيد سنهن عن الثلاثين. وكان منظر المتقدمات في السن منهن يبعث على الحزن !

ويمكن القول بأن النظام العالمي الجديد هو عولمة لهذه الإمبريالية النفسية، وتعميم لمفهوم الإنسان الاقتصادي/ الجسماني الذي لا يكترث بالوطن أو بالكرامة، ولا يهمه سوى البيع والشراء والمنفعة واللذة .

وهذا السعار الاستهلاكي ليس مسألة انحطاط خلقي وسلوك فردي واختيار حر، وإنما هو وضع اجتماعي شامل ونموذج ضخم يهيمن على الإنسان من الخارج ويستبطنه المرء دون أن يشعر. وإن نجح المرء في مقاومة هذا الغزو فإن أفراد أسرته قد لا يكونون في مثل صموده. فالمجتمع هو الذي يحدد مقاييس السعادة واللذة، ومهما حاول المرء أن يفلت من الحتميات الاجتماعية فإنه يجد نفسه محاطًا بالمجتمع لا يمكنه الفكاك منه إلا بفعل عنيف، كأن يتحول إلى هيبي زاهد في الدنيا، برغم تمتعه بها. والهيبي يجسد أسطورة الفشل، وهي عكس أسطورة النجاح المهيمنة على العقل الأمريكي. أما المواطن العادي، الذي يعيش حياة «عادية» داخل المجتمع، فهو يقع في شراك الاستهلاكية بكل بساطة، خاصةً وأنه منذ نعومة أظافره قد استبطن الأيديولوجية الاستهلاكية من خلال الدمى والبرامج التليفزيونية المختلفة (تُعدُّ العروس باربي وأصدقاؤها من أهم آليات إشاعة الأيديولوجية الاستهلاكية) .

ولعل القصة التالية التي وقعت لي توضح ما أود قوله : حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة، ظللت أنا وزوجتي في السنوات الأولى نعيش داخل جيتو مستقل، نتبع المعايير التي كانت سائدة في المجتمع المصري في أواخر الخمسينيات، ومن ضمنها أن لحم الدجاج كان يشغل قمة الهرم الذي ينتظم أنواع اللحوم المختلفة. ولذا كان تناول هذا النوع من اللحوم يُعدُّ نوعًا من أنواع الترف بالقياس إلى اللحوم الأخرى (الضاني - العجالي - البتلو - الأسماك). ولا أدري سبب هذا التفضيل، ولعله يعود إلى أن لحم الدجاج كان أغلى من اللحوم الأخرى. وظللنا داخل الجيتو نعيش مع تصورنا المصري أن لحم الدجاج لحم فاخر. ومما ساعد على ذلك أننا لم نلاحظ أن سعر لحم الدجاج في الولايات المتحدة منخفض بالنسبة للحوم الأخرى، لأننا لا ننظر إلى الأسعار أنا وزوجتي إلا نادرًا .

www.scantopdf.eu

المهم، كان هذا هو حالنا نعيش داخل أوهامنا المصرية، إلى أن زارتنا صديقة أمريكية وقالت (بطريقة تنم على الملل) إنها ستذهب إلى المنزل لتطبخ لوبيا بيضاء ودجاجًا لزوجها! فانتابني شيء من الشك وسألتها عن السبب في تعبير الملل هذا. ومن خلال إجابتها أدركت أن لحم الدجاج يُعدُّ أقل أنواع اللحوم جودة، وأنه يوجد في أسفل الهرم، وأنه لهذا السبب أرخص أنواع اللحوم. تعجبت في بادئ الأمر من هذا الترتيب الذي يختلف عن نظيره المصري تمام الاختلاف، ولكنه مع هذا أمسك بتلابيبي ووجدتني لا أتناول لحم الدجاج إلا بسبب الفاقة، أما اللحوم الأخرى فكنا نتناولها عندما تتوافر عندنا الأموال اللازمة لذلك. لقد أصبح مذاق الدجاج «رخيصًا» في فمي، أنا الذي كنت أجده لذيذًا للغاية. كنت أضحك من نفسي ومن تحولي، ولكن دون جدوى، فقد حدَّد لي المجتمع سلم الأولويات في المذاق واستبطنت النموذج الإدراكي، بالرغم مني.

وقد حدث الشيء نفسه مع شركات الطيران. كنت أحب السفر بالطائرة لأنه يحقق لي كثيرًا من الهدوء سواء في المطار أو في الطائرة، إذ لا يمكن لأحد الاتصال بي، وأقرأ الجرائد، وأتناول قدحًا من القهوة، أو أجلس لأتأمل في راحة وسكينة. وكنت أسافر بطبيعة الحال بالدرجة السياحية إلى أن رأيت إعلان إحدى شركات الطيران الذي بدأ يتحدث عن مدى اتساع كراسي الدرجة الأولى، وتظهر صورة راكب ممدد على كرسيه الوثير، مقارنةً براكب الدرجة السياحية، الذي تظهر صورته بعد ذلك وهو يتقلب من الألم في كرسيه، ويلكزه جاره عن غير قصد. منذ تلك اللحظة أصبح السفر بالدرجة السياحية مسألة مؤلمة بالنسبة لي. هذا هو حالي أنا المدرك لما حولي، الواعي به تمام الوعي، فما بالك بالمواطن الأمريكي التلقائي الطيب، الذي تغرقه وسائل الإعلام يوميًا بسلع جديدة؟

أخبرني صديق لا يؤمن تماماً بمسألة الألقاب، أنه ذهب إلى النادي مرة، فكان كل من يقابله يناديه بلقب «يا باشا» (اتفضل «يا باشا» - أهلاً «يا باشا» - صباح الخير «يا باشا») ولكن أحد العاملين حضر وقال: «أي خدمة يا بيه». أخبرني صديقي ضاحكاً بأنه فوجئ بأنه شعر بالضيق من هذا الأخير الذي أنكر عليه لقب الباشوية، إلى أن تنبه إلى نفسه فأدرك أن الفرعنة ليست أمراً كامناً في النفس البشرية، وإنما هي أمر يكتسبه المرء ممن حوله.

www.scantopdf.eu

والسعار الاستهلاكي مرتبط ولا شك بأزمة البيئة التي نعاني نحن كلنا منها في الوقت الحاضر: صيف شديد الحرارة - تلوث - ثقوب الأوزون. وقد شعرت بهذه الأزمة قبل الكثيرين بسبب تجربة شخصية طريفة. فقد قمت أنا وزوجتي «بتقسيم» العمل في المنزل. (كلمة «تقسيم» هنا فيها مبالغة بعض الشيء، فقد فازت هي بنصيب الأسد من الأعمال المنزلية). وكان من نصيبي إخراج صفيحة القمامة يوميًا، ليقوم عمال النظافة في الصباح بجمعها وتفريغها في سيارة القمامة. وقد فرحت في بداية الأمر لهذا العمل الذي تصورته سهلاً. ولكن بدأت الصفائح تزداد مع تزايد القمامة، إلى أن وصلت إلى ثلاث (برغم أننا أسرة مصرية احتفظت ببعض تقاليد التدوير والتدبير)، وكان عليّ بطبيعة الحال أن أحمل هذه الصفائح ثلاث مرات يوميًا (بدلاً من واحدة). وهنا بدأت أعمم من وضعي الخاص وأتساءل عن قمامة الولايات المتحدة كلها. وبدأت أثير مع أصدقائي قضية القمامة والاستهلاكية والبيئة (فالقمامة المتزايدة دليل على الاستهلاك المتصاعد ومؤشر على النهب المتزايد للبيئة وعملية التخلص منها مشكلة في حد ذاتها). فكانوا يفسرون تساؤلاتي هذه بأنه حسد من شخص من العالم الثالث. وكنت أحاول من جانبي أن أبيِّن لهم أن هذا الاستهلاك غير المسئول سيودي بنا جميعًا. وبالفعل ظهرت المشكلة البيئية في السبعينيات، وظهر أن الولايات المتحدة تعد من أكثر الدول اكتظاظًا بالسكان من منظور معدلات الاستهلاك. فإذا كان استهلاك المواطن الأمريكي يعادل استهلاك حوالي ألف مواطن هندي فهذا يعني أن الولايات المتحدة تضم حوالي بليونين وسبعمائة مليون نسمة (٢٧٠ مليون × ١٠٠٠) وأنها أكثر ازدحامًا من الهند. ووجدت أنه لا يمكن إيقاف هذا الاستهلاك على الإطلاق من داخل المنظومة المادية المهيمنة. فالعقد الاجتماعي الذي يستند إليه المجتمع الأمريكي ينطلق من فكرة الفرد المطلق، ومصدر الشرعية للنظام السياسي والاجتماعي هو تحقيق الرفاهية الاستهلاكية للمواطن، والفلسفة السائدة هي البراجماتية التي لا تتساءل عن الكليات والماهيات. وانطلاقًا من كل هذا يكون من العبث مطالبة المواطنين بالحد من الاستهلاك، فباسم من سنطالب المواطن الذي يعيش في حواسه الخمس أن يمتنع عن الاستهلاك: باسم الأجيال المقبلة، أم الأخلاق الحميدة، أم القيم المطلقة؟ «اليوم خمر وغدًا أمر» هذه هي عقلية الاستهلاك المادية، ولا يمكن إيقافها إلا بالخروج منها والبحث عن أساس فلسفي آخر.

www.scantopdf.eu

العلم والتقدم

أذكر في صباي أنني طورت بعض المؤشرات المادية على التقدم من أهمها عدد اللافتات النيون فى دمنهور وعدد السيارات ومدى استخدام البلاستيك، وكلما زاد عدد السيارات وظهرت لافتة نيون جديدة كان قلبى يزداد فرحًا وبهجة. وبرغم سذاجة هذه المؤشرات فإنها لا تختلف كثيرا عن أحد المؤشرات المستخدمة فى الستينيات وهو كمية المبيدات الحشرية المستخدمة. وكان المفروض أن زيادة كمية المبيدات هو مؤشر على زيادة التقدم، ولكن حينما اكتشفت مضار المبيدات غير المقصودة، تم العدول عن هذا المؤشر، بل أصبح استخدام المبيدات مؤشراً على التخلف! وقد حدث شيء مماثل لى. ولعل من أولى الوقائع التى زعزعت ثقتى العمياء فى التقدم المادى، ومؤشراته المفترضة، حديثى مع زميلي في المدرسة (وصديق العمر) الدكتور عطية حامد عن أحلامي لمصر، وذكرت من بينها ميكنة الزراعة. وإذا بي أفاجأ به يقول (وهو أكثر علمًا مني بأمور الزراعة، إذ كان يسكن في أبي المطامير، بينما كانت تجربتي محصورة في دمنهور) إنه لو تم إدخال ميكنة الزراعة في مصر لكانت كارثة، إذ إن البطالة ستتفشى بين الملايين. وإجابته كانت مفاجأة كاملة لي لأن الصحف والمجلات كانت لا تكف في ذلك الوقت عن الحديث عن الميكنة بحُسبانها الحل لكل المشكلات. وإجابة د. عطية كانت في واقع الأمر طرحًا لإشكالية الطبيعة (الشيء/ الآلة) والإنسان، وأن الإنسان هو الغاية النهائية، ولا يصح استخدامه وسيلة. وقد بقي هذا الحوار في ذهني لم يبرحه حتى الآن.

وقد وصلت إلى الولايات المتحدة في وقت كانت تهيمن فيه مدرسة النقد الجديد (بالإنجليزية: نيو كريتيسزم New Criticism) على كثير من أقسام الأدب الإنجليزي. ومدرسة النقد الجديد تركز على قراءة النصوص وتبتعد بقدر الإمكان عن التفسيرات التاريخية والاجتماعية. فالنص الأدبي - حسب تصور دعاة هذه المدرسة - بناء مكتف بذاته يشبه إناء الزهور، يمكن فهمه من الداخل دون حاجة إلى فهم سياقه أو خلفيته التاريخية أو حتى سيرة المؤلف الذاتية أو نواياه. ولذا تأخذ العملية النقدية عند نقاد هذه المدرسة محاولة فك شفرة النص من داخله من خلال ما يسمَّى «القراءة النقدية التفصيلية» (بالإنجليزية: كلوس ريدنج close reading)، وهي قراءة نقدية تركز على علاقات النص الداخلية وتستبعد كثيراً من العناصر التاريخية والاجتماعية والثقافية والنفسية. وكانوا يرون أن داخل كل عمل فني عظيم يوجد إدراك للتناقض (بالإنجليزية: بارادوكس

www.scantopdf.eu

Paradox) الذي يسم الوجود الإنساني (كان بعضهم يرى أن التناقض الأكبر هو صلب المسيح ثم قيامه، ومن موته تولد الحياة، ومن هزيمته يولد الانتصار). وكانوا يرون أن ما يميِّز الظاهرة الإنسانية عن الظاهرة الطبيعية هو التناقض الذي بوسع لغة الشعر التعبير عنه، فهي يمكنها الحديث عن الشيء ونقيضه في الوقت نفسه، على عكس لغة العلم المجردة التي لا يمكنها التعامل إلا مع القوانين العلمية المجردة ومع الشيء أو نقيضه. ومن هنا يصبح الشعر والمجاز مسائل لصيقة بالوجود الإنساني ذاته، ولا يمكن التعبير عن المشاعر الإنسانية إلا من خلالها.

لم أتبنّ رؤية مفكري مدرسة النقد الجديد للنص الأدبي، ولكني مع هذا تأثرت تأثراً عميقًا ببعض مقولاتها النقدية والفلسفية، مثل تمييزهم بين الظاهرة العلمية (الطبيعية المادية) والظاهرة الإنسانية، وشكهم العميق في العلم بحُسبانه نموذجًا قاصراً عن التعبير عما هو إنساني. كما أنني حاولت دائمًا أن أرى النص الأدبي بحُسبانه كيانًا يحتوي على عناصر مركبة عديدة، قد يكون التناقض أحدها، ولكنه ليس بالضرورة أهمها، وأن بنية النص وشكله يماثلان (دون أن يعكسا) بناء اللحظة التاريخية. ومن ثم استفدت كثيراً من منهج قراءة النصوص دون أن أتبنى نموذج العداء للتاريخ الكامن وراءه.

وأذكر عام ١٩٦٥ أن دعاني صديق من أعضاء اليسار الجديد (البروفسير بيزان، وكان فرنسيًا من علماء الطبيعة) لاصطحابه في زيارة لروبرت أوبنهايمر Robert Oppen-heimer، مكتشف القنبلة الذرية، في منزله في برنستون. وأوبنهايمر هو رئيس فريق سان ألامو الذي «نجح» في تسخير الطاقة النووية لإجراء أول انفجار نووي. وقد قدَّم لنا هذا العالم الجليل الشاي، وبعد أن تحدثنا في كل شيء، في اليسار الجديد وفي الرأسمالية الأمريكية، سألته: «ماذا كان شعورك بعد اكتشافك أن مشروعك قد «نجح» وأن موعد إجراء أول انفجار قد أصبح وشيكًا؟» أجاب باقتضاب شديد: «لقد تقيأت»، أي أنه أدرك مدى وحشية النموذج العلمي الموجه لسلوكه في أثناء عمله على القنبلة الذرية، وأدرك أنه نموذج منفصل عن الإنسان وقيمه وغاياته. ودُهشت من إجابته التي ذكَّرتني بما كتبه فرانسوا رابليه: «إذا لم يقترن العلم بالضمير أدى إلى خراب النفس»، كما ذكَّرني بخطيب جامع الحبشي في دمنهور الذي كان يستعيذ بالله في نهاية خطبة الجمعة من علْم لا يُستفاد به. وقد دعمت إجابة أوبنهايمر عن سؤالي من إحساسي باختلاف الإنسانيَ عن الطبيعي وبقصور العلم الطبيعي عن الإحاطة بالإنسان وبمنظوماته القيمية والجمالية

www.scantopdf.eu

وبخطورة انفصال التجريب العلمي عن الأهداف والأغراض الإنسانية. (ومن المعروف أن أوبنهايمر قضى بقية حياته يحارب ضد استخدام القنبلة الذرية).

وبدأ ينتابني شك عميق في بعض المقولات التي أصبحت مطلقات علمانية غيبية مثل الإيمان بالعلم والتقدم والتكنولوجيا. وتعلمت من كتاب كافين رايلي **الغرب والعالم** أن العلم له تاريخ متغير، وأن أهداف العلم البيزنطي والإسلامي تختلف عن أهداف العلم الحديث (على سبيل المثال). كما بدأت أعرف - على سبيل المثال لا الحصر - أن الفكر المادي الذي ظهر في القرن الثامن عشر وتلقي دفعة قوية من الاكتشافات «العلمية» في القرن التاسع عشر كان يستند إلى تصورات علمية خاطئة مثل قانون السببية البسيطة الذي وُلد في أحضان الرؤية النيوتنية (المادية الآلية) للكون. وعالم نيوتن عالم محكم مغلق يتسم بالحتمية الميكانيكية، وتفسير العالم، حسب تصوره، يستند إلى آليات الوجود الفيزيائي للذرة (الجُزيء) وقوانين الحركة. وانطلاقًا من هذا، ظهرت الرؤية العلمية المادية التي نادت بأنه توجد قوانين تحكم عالم الظواهر مستنبطة من الاستقراء القائم على الملاحظة والتجربة، ودعامته الأولى في ذلك مبدأ العلية أو السببية أو الحتمية وأنه لا يمكن الحديث عن تأملات خارج معامل البحث ونتائج التجريب.

وقد ظلت هذه الرؤية مسيطرة تمامًا حتى نهاية القرن التاسع عشر. ومنذ ذلك الوقت، بدأت الضربات توجه إلى هذا النظام المغلق بكل افتراضاته عن الحتمية والموضوعية ومطلقية الفضاء والزمان وإمكانية الملاحظة الموضوعية الخالصة للواقع والسببية الصلبة (أي أن السبب «أ» يؤدي إلى النتيجة «ب» بكل بساطة، مثلما تؤدي الحرارة إلى تمدد الحديد). فقد أدَّت نظرية الكم (الكوانتام) ولا تحدد هايزنبرج ونظرية النسبية إلى إضعاف قيمة كل هذه الافتراضات. خذ على سبيل المثال مبدأ الاشتباه أو عدم التفريق بين الجسيمات الفردية المفحوصة في الميكروفيزياء وزوال فرديتها عنها. فمثلاً إذا كان لدينا جسيمان في مكان واحد، ورغبنا في أن نتتبع سير أحدهما اختلط علينا الأمر بينهما، ولم يعد بمقدورنا تمييز أحدهما عن الآخر.

بل إنني قرأت في مجلة **تايم** أخيراً عن تجربة «علمية» تبين أن جزيئات النشاط الضوئي (الفوتونات) حينما يخضعها الإنسان لتجربة ما، فإنها تعي ما يحدث وتغيِّر سلوكها. وهذا شيء جديد كل الجدة، وهل يمكن التعميم منه على الكون؟ فمن المشكلات التي كان

www.scantopdf.eu

يتصور أن العلوم الإنسانية تواجهها هو أن الإنسان حينما يكون واعيًا أنه موضوع للتجربة فإنه يغيِّر سلوكه، فهل ستواجه العلوم الطبيعية المشكلة نفسها ؟

وقد نسفت النظرية النسبية الحدود القائمة بين الذات والموضوع، فقد أعطت المراقب أهمية كبيرة لأن سرعته أو سكونه يغيِّر في نتائج القياس، والمقاييس التي تُتخذ في قياس المدة والأطوال تتوقف في نهاية الأمر على وجهة نظر الراصد وإطار الإشارة الذي يوجد فيه، مما يضفي على قياسه طابعًا ذاتيًا (كانت نتائج القياس في الفيزياء الكلاسيكية مستقلة عن سرعة المراقب). لكل هذا لم يعد من الممكن أن تحتفظ الفيزياء بموضوعيتها، أي لم يعد الإنسان يرى الطبيعة في ذاتها، فهو يرى الطبيعة الملحوظة .

وقد ظهر أن ثمة وجودًا غير مادي للطاقة الذرية هو الوجود الموجي. والتعامل مع ظاهرة الضوء أثبت أن جزيئات النشاط الضوئي (الفوتونات) تتصرف في مواضع تجريبية بحُسبانها مكونة من جسيمات وحزم ضوئية، وأنها في مواضع تجريبية أخرى تتصرف بحُسبانها مكونة من موجات. (وقد قال أحد علماء الطبيعة متهكمًا : في يوم السبت والاثنين والأربعاء نُعرِّف الضوء بأنه جسيمات وحزم، ثم يصبح موجات بقية أيام الأسبوع) ويسمَّى هذا «مبدأ الازدواجية»، وهو مبدأ موجود أيضًا في الذرات التي تتصرف أحيانًا وكأنها موجات وأحيانًا جسيمات. ولا يمكن لتجربة واحدة أن تبين أن الفوتونات ذرات وموجات في آنٍ واحد، فكل تجربة تكشف طبيعة واحدة، إما ذرات وإما موضوعات .

وبعد أن كان منطق العلم لا يحتوي إلا على قيمتين فحسب هما : الصدق أو الكذب بمعنى أن تكون القضايا إما صادقة وإما كاذبة، أصبح من الممكن الآن تكوين منطق ثلاثي القيمة، فيه قيمة متوسطة هي «اللاتحدد»، وفي هذا المنطق تكون القضايا إما صادقة، وإما كاذبة، وإما غير محددة. كما أنه يمكن القول بأن الواقع الفيزيائي، كما يقول فؤاد كامل في مقال له بعنوان «أزمة العلم الحديث»، يقبل تفسيرين ممكنين، كل منهما يماثل الآخر في صحته، وإن يكن من غير الممكن الجمع بين الاثنين في صورة واحدة، لأن قانون اللاتحدد يجعل من المستحيل القيام بأي تجربة فاصلة تحدد أي التفسيرين هو الصحيح وأيهما الباطل. ويبدو أن مثل هذا المنطق هو الصورة النهائية لفيزياء الكوانتم حتى هذه اللحظة .

وأخيراً، فإن سؤالنا : ما المادة ؟ لا يمكن الإجابة عنه بالتجارب الفيزيائية وحدها وإنما

www.scantopdf.eu

يحتاج إلى تحليل فلسفي للفيزياء. والطبيعة لا تُملي علينا وضعًا واحدًا بعينه، والحقيقة لا تقتصر على لغة واحدة.

ولعل اكتشاف الثقوب السوداء في الكون له دلالة علمية ورمزية في الوقت ذاته. فداخل هذه الثقوب تتحطم قوانين علم الطبيعة والأحياء ويتحطم الزمان والمكان ويتم التهام الضوء (العنصر الثابت في الطبيعة). ويمكننا أن نرى أثر الثقوب السوداء على ما حولها ولكننا لا نعرف كنهها تمامًا. فهي موجودة وأساسية لا يمكن تفسير بعض الظواهر دونها، ولكنها مع هذا غير خاضعة للتحكم الإنساني ولا نفهم كنهها تمامًا. وقد ظهرت أخيرًا نظرية الفوضى (كيوس chaos) وهي ضربة أخرى للعالم المادي المغلق المصمت.

إلى جانب كل هذا أدركت أن كثيرًا مما يسمَّى «القوانين العلمية» هي في واقع الأمر مقولات فلسفية قبلية، يؤمن بها العالم، وعلاقتها بعالم التجربة العلمية إما واهية وإما منعدمة. فعلى سبيل المثال إن قال أحد العلماء إن العالم «خُلق مصادفة» فإنه يؤكد «إيمانه» بتلك الحقيقة أو إخفاقه في التوصل إلى فهم حقيقة أصل الكون. وحين يتحدث عالم آخر عن «المادة ذاتية التحريك» فهو هنا يسمي شيئًا لم يفهم كنهه. وفي كلتا الحالتين، فإن العالمين قد انطلقا من مقولات فلسفية غيبية تسبق عملية التجريب ذاتها.

وقد أخبرني أحد أصدقائي من علماء علم الطبيعة أن الوصول إلى نظرية عامة (بالإنجليزية: جراند يونيفيكيشن ثيري grand unification theory) يتطلب بطبيعة الحال استيعاب كل ما توافر لدينا من معلومات (أو أساسياته). ولكن هذا أصبح أمرًا مستحيلاً في الوقت الحاضر (تضاعفت المعرفة الإنسانية منذ بداية التاريخ حتى عام ١٧٥٠، ثم تضاعفت مرة أخرى من ١٧٥٠ ـ ١٩٠٠، ثم تضاعفت مرة ثالثة في الفترة من ١٩٠٠ ـ ١٩٥٠، ثم أصبحت تتضاعف كل عشر سنوات ابتداءً من ١٩٥٠ - ١٩٩٠، والآن تتضاعف كل خمس سنوات). فأخبرته: «ماذا لو وضعنا كل المعرفة الإنسانية على جهاز كومبيوتر ضخم؟» قال: «ستظل هناك مشكلة استرداد هذه المعلومات». وأخبرني آخر أن هناك إشكاليات في العلم نعرف أنه يمكن حلها «نظريًا»، ولكن يتطلب ذلك أن يعمل الجيل الحالي من آلات الكومبيوتر والجيل الذي يليه لفترة قد تستغرق آلاف السنين، وربما كل ما تبقى من سنوات للنوع الإنساني على وجه الأرض.

إن محدودية العقل البشري من ناحية، وتكدس المعلومات والحقائق العلمية من ناحية

www.scantopdf.eu

أخرى، قد جعلا من العمل الجماعي التعاوني ضرورة لا محيد عنها في مجال البحث العلمي، في الوقت الذي لا يمكن فيه للكشف العلمي إلا أن يكون فرديّا. وهذه هي المعادلة الصعبة: فرد واحد لا يستطيع أن يستوعب نتائج العلوم لكثرتها وتشعبها، وفرد واحد هو الذي ينبغي أن يتوصل إلى كشف علمي أو نظرية واحدة - كنظرية النسبية - لتفسير النتائج التي توصلت إليها العلوم المختلفة.

وبالتالي أصبح من المستحيل الآن وضع نظرية عامة استنادًا إلى المعطيات الطبيعية/ المادية المتوافرة لدينا، كما كان الأمر في الماضي، فنحن لا نعرف بعضها برغم أنها معروفة للآخرين، كما أن البعض الآخر ينتظر الحل. (حين حان الوقت لمناقشة رسالة الدكتوراه الخاصة بابني حيث كان يدرس في إحدى جامعات الولايات المتحدة، أرسل له أحد الممتحنين تهنئته، ومعها صفحات معادلات رياضية لم يفهمها ابني، وطلب من أستاذه المشرف أن يشرحها له، ولكن الأستاذ المشرف نفسه لم يفهمها). وحيث إن الإنسان لايمكنه أن يعيش دون مركز ودون إطار عام (فهو لا يمكنه أن يعيش من لحظة إلى لحظة) فإنه لا يمكنه الوصول إلى مثل هذه النظرية العامة إلا من خلال التأمل والتفكر و«افتراض» وجود مركز و«الإيمان» به.

وقد اتسع عالمنا على مستوى الماكرو (الأجرام - النجوم - الكون) وعلى مستوى المايكرو (الذرة - الجزيء . . . إلخ). واتسع نطاق المعرفة بشكل غير مسبوق. فإذا أضفنا إلى هذا مسألة التخصص الدقيق (وهي أن العالِم الحقيقي هو الذي يعرف مجال تخصصه تمام المعرفة) فإننا تدريجيّا نواجه العالم المتخصص الذي يعرف الكثير عن تخصصه الضيق ويجهل الكثير عن أي شيء آخر (فالعقل الإنساني غير قادر على استيعاب كل شيء). وقد قال أحدهم مازحًا إن التخصص هو أن تزداد معرفة بموضوع تخصصك الضيق، ثم تزداد المعرفة اتساعًا والموضوع ضيقًا إلى أن تعرف كل شيء عن لا شيء!

وقد ذكر الأستاذ محمد سيد أحمد في مقال له **بالأهرام** أن «أخطر إنجازات الإنسان عند نهاية الألفية الثانية، هو تحرره من قيد حجمه في الكون، وبالتالي هو قدرته على تجاوز حجمه الطبيعي في استكشاف أسرار المتناهي الصغر والمتناهي الكبر . . ومعنى ذلك قدرته على التدخل لإعادة صياغة قوانين الطبيعة لأول مرة، حيث يتدخل «الثقافي» لا لإعادة صياغة «الطبيعي» . . ولكن، في عوالم المتناهي الصغر والمتناهي الكبر التي أصبح

www.scantopdf.eu

الإنسان يملك القدرة على ارتيادها، فإنه لا يملك في هذا الارتياد الاستعانة بحواسه الخمس (النظر والسمع واللمس والشم والذوق) . . وأصبح يستعيض عنها بالمعادلة الرياضية استناداً إلى افتراضات قد تصيب وقد تخطئ. . وهكذا أصبح يعتمد أساسًا على أدوات مبهمة، تحمل أكثر من تفسير، وعرضة للالتباس. . وبالتالي فإن ما يحمل الوعد بتحقيق المعجزات للرقي بمصير البشر، يحمل في طياته خطر سوء التفسير، أو الاصطدام بما هو ليس معلومًا، ويكون مصدر انفلات لم يشهد البشر مثيلاً له من قبل، بل قد يعرض نفسه لخطر «الإفناء الذاتي» وصور من الانتحار الجماعي للبشرية ككل «لم تختبر من قبل هي الأخرى». وأن يصدر مثل هذا الكلام من الأستاذ محمد سيد أحمد أمر يجب أن يُؤخذ على محمل الجد .

وقد أسقط العلم الحديث تدريجيًا فكرة اتساع رقعة العلوم وتراجع رقعة المجهول (وهي فكرة ساذجة حدت بأحد «العلماء» المتفائلين في القرن التاسع عشر إلى التنبؤ بأنه في خلال ثلاثين عامًا سيعرف الإنسان كل شيء، وبالتالي لا لزوم للأخلاق أو الله أو الدين). ولكن بعد مائة عام من التجارب العلمية، اكتشف الإنسان أنه كلما اكتشف وسيطر على شيء ما ظهرت له آلاف الأشياء الجديدة التي لا يعرفها ولا يمكنه السيطرة عليها، أي أنه كلما ازداد معرفة ازداد جهلاً. من ذلك تجربتنا مع الذرة، هذا الشيء الذي يتحرك دون قانون والذي يصعب رصده، وكلما رصدناه اكتشفنا عناصر جديدة فيه تحيرنا، ثم حطمناه لنؤسس الفردوس الأرضي. ونحن الآن في حيرة من أمرنا بخصوص التخلص من العادم النووي، وانتهى بنا الأمر إلى أنه قد يدمرنا ويدمر كرتنا الأرضية معنا. وها نحن أولاء نمسك بكرة اللهب، أي العادم النووي والأسلحة النووية التي يمكنها تدمير العالم عشرات المرات .

وإذا كان التحكم في الطبيعة هو وهم العلم الأكبر، فإن ما يحدث هو عكس ذلك، فالأمر يمتد من عالم الذرة ليشمل بعض «الاكتشافات» التكنولوجية التي نستخدمها في حياتنا اليومية. فيُقال على سبيل المثال إن الأغذية التي تحتوي على مكونات مُهندسة أو مُعدلة وراثيًا تضعف جهاز المناعة (كما ثبت من كثير من التجارب العلمية) ولذا فهم يطلقون عليها «أغذية فرانكنشتاين». وقد طُرد أحد العلماء الإنجليز لأنه راح يؤكد هذه المقولة، وقد تظاهر بعض زملائه تأييداً لرأيه. وهذا لا يختلف كثيراً عما حدث لأحد أصدقائي في الولايات المتحدة، إذ كان يُجري بعض التجارب على أفران الميكروويف

www.scantopdf.eu

ووجد أنها تسبب أضراراً جسيمة للإنسان، وقبل أن يتوصل لنتائج نهائية بخصوص موضوع بحثه، سحبت منه الميزانية بحجة توفير الاعتمادات. ونفس القول ينطبق على شاشات الكومبيوتر والميكروفيلم التي لا نعرف حتى الآن أثرها على عيون الإنسان وجسده.

وقد طرح أحد العلماء عدة أسئلة عن أمور بسيطة، ولكنها تبين مدى حدود المعرفة الإنسانية : لماذا ينفرد البشر بين كل الفقريات الثديية باستخدام الأطراف اليمنى غالبًا دون اليسرى ؟ لماذا تتغيَّر حالة نباتات الظل المنزلية بتغيُّر أمزجة أصحابها ونفسياتهم ؟ ولماذا تطير أسراب الطيور على شكل الرقم ٨ ؟ كيف تنجح حيوانات صغيرة كثيرة (أسماك وطيور) في الارتحال عبر آلاف الأميال نحو هدف بعينه، جيلاً بعد جيل، فتصل إلى هدفها بدقة، برغم أنها لم تكن قد رأته أو ذهبت إليه من قبل، ودون خرائط ولا بوصلات؟ وكيف تنجح حيوانات أليفة، لم تتعود على الهجرة، في السفر وحيدة آلافًا من الأميال، بحثًا عن أصحابها الذين هجروها، حتى تعثر عليهم ؟ الإجابة عن هذه الأسئلة تعتمد أساسًا على القول بأن عالمنا يحتوي على الآلاف من العناصر والقوانين التي لم يحلم بها من اكتشف قوانين الديناميكا الحرارية، التي جمعت قوانين الوجود المادي والحركة في إطار واحد في محاولة أولية لوضع تفسير واحد وشامل للكون.

إن عدم التحكم أصبح سمة أساسية في عصرنا، وكلما زادت ميكنته والسيطرة عليه علميّا، أي تقدمه، قلت إمكانية التحكم فيه. ويتبدى هذا في أمور كثيرة مثل مشكلات البيئة والفشل في التخلص من النفايات وتزايد الأمراض النفسية. ولعل عدم التحكم يظهر بطريقة كوميدية في هذين المثالين البسيطين : تحول اسمي في الولايات المتحدة من عبدالوهاب Abdelwahab إلى عبد الوها Abdelwaha لأن الكومبيوتر لم يكن بوسعه أن يجد مكانًا للحرف الأخير. وقد اقترحت عليّ مرة إحدى الموظفات أن أسمي نفسي إلم Elm وكفى، فهو اسم أنجلو ساكسوني وقصير ! يمكن للكومبيوتر أن يتعامل معه بكفاءة. وكانت لدي أخيراً مشكلة مع مجلة **نيوزويك**، إذ فوجئت بأنهم أوقفوا اشتراكي فجأة، وبعد أن شكوت لهم من الوضع أرسلوا لي خطابًا يرحبون فيه برغبتي في الاشتراك. فكتبت لهم قائلاً إن خطابهم لم يكن ردّا على خطابي، فأرسلوا لي خطابًا نمطيا آخر يقولون فيه إنهم يأسفون لأن اشتراكي انتهى، فأرسلت خطابًا ثالثًا أنبههم إلى موضوع رسالتي وشكواي، فتسلمت في نهاية الأمر ردّا على خطابي يقولون فيه إنه على

www.scantopdf.eu

ما يبدو حدث خطأ ما وأنهم سيرسلون لي بأعداد المجلة، وطلبوا مني أن أهمل ما قد يصلني من خطابات أخرى. إذ يبدو أن الكومبيوتر سيستمر في مطاردتي بالرسائل النمطية والتي لا يمكنهم إيقافها ! وهذا قمة عدم التحكم، وإن كان في أمر تافه مثل إرسال الرسائل، فما بالكم في مجالات أخرى مثل الاستنساخ والذرة والمعالجة الوراثية للنباتات!

وهناك أخيراً مشكلة التجريب العلمي. فكثير من العلماء (من الذين حققوا اكتشافات في حقل الهندسة الوراثية) يقفون ضد إجراء التجارب في هذا المجال خوفًا من عواقبها الوخيمة بعد انفصال النزعة التجريبية عن النزعة العقلية والأخلاقية والإنسانية، بحيث أصبح التجريب نهاية في حد ذاته، بغض النظر عن نتائجه التي قد تودي بالإنسان ! وقد قال أحدهم: إن الأخطاء في التجارب العلمية في الماضي، كأن يحدث انفجار أو ما شابه، كانت تتم داخل دورة الطبيعة لا تتحدى قوانينها، ولهذا فإن دورة الطبيعة قادرة على معالجة مثل هذا الخلل. فإن تلوثت منطقة ما، فإنه يمكن أن تترك بضع سنوات لتقوم العوامل الطبيعية بإصلاح ما أفسدت يد الإنسان. بل إن التلوث الإشعاعي قد يستمر لآلاف السنين، ولكنه مع هذا يظل داخل الزمان ودورة الطبيعة. أما تجارب الهندسة الوراثية، فهي أمر مختلف عن التهجين القديم في أنها تتجاهل تمامًا حدود البيولوجيا، إذ يمكن إضافة جينات من الفيروسات أو البكتريا أو الحيوانات في الشفرة الجينية لأنواع النباتات التقليدية. هذه التجارب قد تأتي بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها ؛ فهي مخلوقات تقع خارج نطاق حلقة التطور الطبيعية. وقد ظهر أخيراً مصطلح «التلوث الجيني» (بالإنجليزية: جنتك بوليوشن genetic pollution)، وهو انتقال الجينات التي تم إدخالها على أحد النباتات (بقصد جعلها أكثر إنتاجية وأكثر مقاومة للمناخ) إلى نبات آخر (أعشاب ضارة على سبيل المثال)، مما يجعل القضاء عليها صعبًا أو مستحيلاً.

وقد وصفت خوف الإنسان الغربي من التجريب المتحرر من القيمة والغاية من خلال وصفي لبعض الصور المجازية والأساطير الأساسية التي هيمنت على وجدانه. وأولى هذه الأساطير هي أسطورة بروميثيوس الذي سرق النار من الآلهة وأعطاها للإنسان (بهدف الاستنارة بطبيعة الحال، وهذه هي الأسطورة العلمانية الكبرى). ثم تلتها أسطورة فاوستوس الذي باع روحه للشيطان في سبيل المعرفة الكاملة التي تمكنه من التحكم في

www.scantopdf.eu

الواقع والزمان (أو هكذا كان الظن). ومع بداية القرن الثامن عشر، تظهر أسطورة فرانكشتاين، هذا الكائن القبيح الذي خلقه عالم «مستنير» يؤمن بالعلم وبمقدراته ليسخره في خدمته (المركزية الإنسانية). ولكن المخلوق يقتل خالقه بعد قليل وينطلق حرّا ليعيث في الأرض فساداً وفي الناس قتلاً، أي أن ثمرة العلم الإنساني هي قتل الإنسان، ونتيجة العلم الإنساني لا إنسانية، ففرانكشتاين إنسان طبيعي آلي يتحرك في إطار قوانين الطبيعة الآلية. ثم تظهر بعد ذلك أساطير مثل دكتور چيكل ومستر هايد وغيرهما لتدل على خوف الإنسان على ذاته الإنسانية المتعينة من عقله المجرد، الذي يتحرك في إطار القوانين العلمية والمعادلات الرياضية اللا إنسانية. وهكذا، بعد أن سرق بروميثيوس كرة النار من الآلهة بثقة بالغة لينير للإنسان طريقه وعالمه، وقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل بها بعد ذلك. وبدلاً من الاستفادة من النار، بدأت تحرق أصابعه، إذ رأى ثقوب الأوزون والتلوث وتآكل الأسرة واجتثاث أشجار الغابات المطيرة الاستوائية وازدياد غاز ثاني أكسيد الكربون، فاكتشف أنه لا يساعد الإنسان وينير طريقه، بل على العكس وجد أنه يساهم في هلاكه وحرقه وتصفيته. (يقال إن أحدهم دخل خلسة في أحد المنازل في تشرنوبيل، وسرق بعض النقود. وبعد أن تم تداولها ظهر أنها تثقب جيوب من يحملها بسبب أنها ملوثة بالإشعاع).

وقد أثبت التقدم أن تكلفته عالية، وأنه لم يشف كثيراً من أمراض الإنسان الروحية والنفسية، بل فاقمها. والتقدم، حسب ما تعلمناه، هو تطبيق النموذج الغربي في التنمية والاستهلاك. وهو نموذج مبني على غزو الطبيعة والسطو عليها (٢٠٪ من سكان العالم من أهل الغرب يستهلكون ٨٠٪ من مصادرها الطبيعية). والآن، ماذا لو «تقدمت» الصين والهند حسب المقولات الغربية؟ ألا يعني هذا بليون سيارة جديدة تسير في الطرقات، يخرج عادمها وتلوث جو الكرة الأرضية وتحرق الأوكسچين، خاصةً إذا ما «تقدمت» البرازيل هي الأخرى، وبدأت في اجتثاث الغابات المطيرة الاستوائية (لتؤسس المصانع والطرقات وتحقق «التقدم المنشود» على الطريقة الغربية، فهذا حقها القومي)، فإنها بذلك تكون قد اجتثت مصدر ثلث الأوكسچين في العالم. إذا كانت فكرة التقدم الغربية تستند إلى لا محدودية الموارد الطبيعية، فإن الممارسة أثبتت عكس ذلك، فهناك معادن آخذة في الاختفاء، وهناك أنواع من الحيوانات والنباتات تنقرض سنويّا، وهناك مشكلة النفايات الآخذة في التزايد بشكل مخيف (يقال إنه في غضون عدة أعوام، لو استمر التقدم على ما

www.scantopdf.eu

هو عليه، فإننا سنحتاج لست كواكب في حجم الكرة الأرضية كمصدر للمواد الخام وكوكبين آخرين للتخلص من نفايات الاستهلاك الوحشي المرتبط بالتقدم). وبطبيعة الحال، هناك النفايات النووية، التي لم نعرف طريقة أكيدة للتخلص منها بعد. إن التقدم الذي كان من المفروض فيه أن يحقق سعادة الإنسان الأرضية أصبح يهدد وجوده على هذا الكوكب.

وهناك سؤال أطرحه دائمًا على نفسي وعلى الآخرين: هل جهاز الإنسان العصبي قادر على استيعاب كل هذه الأحاسيس والأفكار والمعلومات التي تُرسل له يوميّا من بيئته الاجتماعية التي يزداد إيقاعها سرعة ووحشية ؟ وهو سؤال يجب أن نتوقف قليلاً لنسأله. وهل من قبيل المصادفة أن الجلطة الدماغية على مستوى العالم العربي والعالم أجمع آخذة في التزايد في السنوات الأخيرة ؟ كما يمكن أن أتساءل عن نوعية الإنسان الذي سيكون الكومبيوتر هو العنصر الأساسي في حياته (يقال إنه في القريب العاجل سيمكن للإنسان أن يتحكم في كثير من عناصر بيئته من خلال الكومبيوتر: طهو طعامه - فتح الباب وإغلاقه - درجة حرارة منزله - طعام قطته... إلخ). هل يكون إنسانًا ذا خيال خصب قادر على التأمل، له ذاكرة تاريخية قوية، أو أن الكومبيوتر مع وهم التحكم سيجعل من الخيال مسألة «قديمة» والتأمل مسألة مستحيلة، والذاكرة التاريخية مسألة قد عفا عليها الزمن، فتراكم الخبرة ليست مسألة مهمة ؟ هل يكون هذا الإنسان مثل إنسان اليوتوبيات التكنولوجية الذي يتحكم في كل شيء ويتم التحكم فيه ؟

بل يمكن أن نسأل عن التقدم ذاته، وهل يؤدي بالضرورة إلى السعادة، ونتساءل مع مالكولم إكس الذي قال إن الدولة كي تتعامل مع الأفراد لابد أن تحولهم إلى أرقام وحالة مدرجة في الكتب، وإن هذه الدولة قد تستطيع أن ترسل إنسانًا إلى الفضاء الخارجي، ولكنها لا تعرف كيف تتعامل مع البشر. وبالفعل نجد أن الثورة العلمية قد نجحت في تطوير السلاح بشكل غير مسبوق في تاريخ البشرية. ولعل عجز الإنسان حتى الآن عن الحرب ضد الإنفلوانزا دليل على توجه العلم غير الإنساني وعلى الحدود التي يفرضها علينا وجودنا الإنساني.

وقد أشرت في مقدمة كتاب **الفردوس الأرضي** إلى أن جوهر الحضارة الغربية هو الإيمان بمفهوم «التقدم» السريع والدائم والحتمي، إلى أن أصبح التقدم العلمي هدفًا في حد ذاته. وأن «منطق التقدم الدائم وبأي ثمن هو المنطق السائد في العالم الغربي بل في

www.scantopdf.eu

العالم بأسره. ولكن يبدو أن مشكلة البيئة في المجتمعات الصناعية قد بدأت في التفاقم، ولأول مرة في تاريخ التقدم في الغرب يدخل عنصر كيفي عليها، وبدأ المفكرون، بل المواطنون العاديون، يتحدثون عن «تكاليف» التقدم وعن تلوث البيئة. وهل مجرد «إنتاج» سلعة ما هو «تقدم» أو أن التقدم والتخلف يقاسان بمقاييس تقع خارج نطاق الأشياء والكم، وأنه لا يمكن استخلاص هذه المقاييس إلا من ظاهرة الإنسان نفسها ومن بيئته التاريخية نفسها؟ وإذا كان الحديث عن تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية) أصبح أمراً شائعًا في الغرب، فإن الحديث عن تلوث الإنسان (الطبيعة البشرية) سيصبح هو الآخر أمراً مطروحًا عما قريب لا محالة... والمجتمعات الاستهلاكية التي تظن أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان والتي تُعرِّف هذه الرغبات بشكل كمي، مسقطة احتياجاته الروحية من الحُسبان، أقول هذه المجتمعات تتجاهل ازدواجية [أي ثنائية] الإنسان وتسبب البؤس للبشر. هكذا كان خطابي آنذاك، برغم أنني كنت أصنِّف نفسي حينذاك علمانيًا بل ماديًا، لكن يبدو أنني كنت من البداية علمانيّا جزئيّا، أرى ضرورة فصل الدين عن الدولة وحسب، لا فصل الواقع الإنساني بأسره عن القيم الأخلاقية والمطلقات (كما يفعل دعاة العلمانية الشاملة الذين يطالبون بتطبيق القانون الطبيعي على كل من الإنسان والطبيعة، فهي شكل من أشكال وحدة الوجود المادية، كما سأبيِّن فيما بعد). ولذا أطالب الآن بفتح ملفات «ثمن التقدم» ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه، وأن ننظر للتقدم المادي في إطار ما يحدث من «تخلف إنساني».

كل هذا جعلني أتحفظ بعض الشيء بخصوص مقولات أصبحت مطلقة بالنسبة للبعض مثل التقدم التكنولوجي والتجريب العلمي. وهذا لا يعني أنني رفضت المعرفة العلمية رفضًا كاملاً (كما يفعل بعض غلاة السلفيين) ولم أقبلها قبولاً كاملاً بحُسبانها المعرفة الوحيدة الممكنة (كما يفعل بعض غلاة العلمانيين، إذا أردنا استخدام المصطلح الذي صكه الصديق الأستاذ فهمي هويدي). كل ما في الأمر أن قبولي له أصبح مشروطًا وغير مطلق وداخل حدود.

الروحي والمادي

ومن التطورات الفكرية المهمة التي خضتها وقامت بتقويض الرؤية المادية، أنني بدأت ألاحظ أن التناقض بين «الروحي» و«المادي» ليس واضحًا تمامًا في بعض الكتابات الأدبية والفلسفية الغربية (وخصوصًا التي توصف بأنها «صوفية»). فالروحي (أو المثالي) في

www.scantopdf.eu

مثل هذه النصوص يمكن أن يكون ماديّا، والمادي يمكن أن يكون روحيّا (أو مثاليّا). وتعود بدايات هذه الملاحظة إلى طفولتي، إذ كنت قد لاحظت العلاقة الحميمة بين والدي التاجر الكبير وشيخه، شيخ الطريقة الحصافية في دمنهور (كان اسم الشهرة لوالدي هو الحاج حصافي تيمنًا به، وسُمِّيت أنا عبد الوهاب تيمنًا باسم الشيخ عبد الوهاب الحصافي). كان والدي، الشخصية الفاوستية الجبارة المؤمن بالتراكم الرأسمالي، والذي كان يقضي معظم وقته في البيع والشراء وإبرام الصفقات، يتجاوز العقلية التعاقدية ويتحول إلى حمل وديع في حضرة شيخه، وينفق عليه وعلى حاشيته بسخاء، ويقيم الولائم احتفالاً بمقدمه. وحيث إنني كنت أحاول تفسير كل شيء، فإنني لم أجد تفسيراً لهذه العلاقة ولا هذا التحول في سلوك أبي من الرأسمالية إلى الصوفية وبالعكس.

وقد وجدت شيئًا مماثلاً في كتابات المتصوف السويدي عمانويل سويدنبورج Emma-nuel Swedenborg (الذي تأثر به الشاعر وليام بليك). وكانت كنيسته التي أسسها كنيسة غريبة، فهي كنيسة متصوفة تدعو للحرية المطلقة التي تصل إلى درجة الترخيصية. ولكن فكر سويدنبورج الصوفي ارتبط بالثورة البورجوازية في السويد. ونفس الظاهرة توجد في شعر بليك، فقد ارتبط شعره بالثورة الفرنسية والصناعية ولكنه في الوقت ذاته كان من المؤمنين بتعاليم سويدنبورج ثم طوَّر منظومة صوفية أسطورية غنوصية. ولا يختلف هذا كثيراً عن التصوف الحلولي سواء في الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو عن النزعات المشيحانية أو المهدوية

وفي أثناء دراستي للأدب الأمريكي، لاحظت أن الكاتب الأمريكي رالف وولدو إمرسون Ralph Waldo Emerson، فيلسوف المدرسة الترانسندنتالية والروح الكلية (أوفرسول Oversoul)، الذي كان ينتمي للكنيسة الموحدانية (بالإنجليزية : يونيتريان Unitarian) والذي كان يتغنى بأعمال سويدنبورج وبوذا وكونفوشيوس وجلال الدين الرومي، هو ذاته الفيلسوف الأثير لدى الرأسماليين الأمريكيين العمليين الماديين. (وقد تطور تداخل المادي والروحي المقدس وغير المقدس والذاتي والموضوعي في الكنيسة الموحدانية لدرجة أن شعائر الصلاة في هذه الكنيسة تتغيَّر من يوم ليوم حسب هوى أعضاء الكنيسة ورغباتهم. فهي في يوم قراءة بعض القصائد، وفي يوم آخر قد يتحدث أحد المتعبدين عن مشاعره الداخلية. وفي مرة قامت إحدى راقصات الستريبتيز striptease [أي راقصة تقوم بنزع ملابسها قطعة قطعة في أثناء رقصها] بالتعبير عن مشاعرها «الدينية

www.scantopdf.eu

والروحية» . . . إلخ، عن طريق أداء إحدى رقصاتها في الكنيسة، ولم يعترض راعي الكنيسة عما حدث واكتفى بالقول إنها طريقة غير تقليدية للتعبير عن الإيمان الديني !). ومن الشائع في الولايات المتحدة أن يقول أحدهم إن تجربة زيارته لمتحف ما أو مطعم ما أو عرض مسرحي أو غنائي ما (بل وتجربة جنسية ما) كانت تجربة «روحية» .

وكانت مكتبة إمرسون تضم كثيراً من الكتب عن الإسلام، ولكنه لم يكن يشير إليها إلا نادراً، ولا يقتبس إلا المقطوعات الصوفية منها. وعلى العكس من هذا، نجد أن كتاباته زاخرة بإشارات إلى الديانات الآسيوية (وفيما بعد لاحظت انتشار التراث الصوفي الحلولي [القبالاه] بين أعضاء الجماعات اليهودية وفي الوقت ذاته اشتغالهم بالتجارة).

ولذا بدأت أتساءل: هل ثنائية الروح والمادة (والمقدس وغير المقدس والذاتي والموضوعي) في مثل هذا الخطاب إذن ثنائية زائفة ؟ هل من يستخدمون هذا الخطاب قد يستخدمون كلمتي «مادة» و«روح»، ولكنهم في واقع الأمر لا يميِّزون بينهما، ومن هنا فهم يدورون في إطار واحدية لا تعرف الثنائيات، وأن عالمهم مكون من جوهر واحد يسميه البعض «الإله» أو «الروح» ويسميه البعض الآخر «الطبيعة» أو «المادة» أو حتى «الذات»؟ وهل الاختلاف بين الفريق الأول (المادي) والفريق الثاني (الروحي) ليس اختلافًا في البنية وإنما في التسمية وحسب ؟ هل هذا تعبير عن الميتافيزيقا الحلولية (روحية كانت أو مادية) حين يحل الإله في الطبيعة ويصبح جزءًا لا يتجزأ منها ؟ وهل هذه الميتافيزيقا الحلولية هي ميتافيزيقا من لاميتافيزيقا، أو ميتافيزيقا مادية بلا أعباء أخلاقية ؟! وهل نحن نحتاج، إذن، لمقولات تحليلية جديدة لفهم الاختلاف بين الواحدية المادية والواحدية الروحية ولفهم الوحدة النهائية بينهما، الكامنة خلف الثنائية الظاهرة ؟ هل هناك نمط عام قائم ونموذج كامن وراء هذا الإيمان الراسخ بالبوذية والكونفوشية والعبادات الآسيوية والتصوف المتطرف من جهة، والفردية والليبرالية المتطرفة والرأسمالية والبراجماتية من جهة أخرى؟ (وهكذا يعود الدين مرة أخرى كمقولة تحليلية). ومن أولى المحاضرات العامة التي ألقيتها في الولايات المتحدة محاضرة في جامعة فيرلي ديكنسون Fairleigh Dickinson في نيوجرسي كانت بعنوان «فاوستوس متخفيًا في زي بوذا»، حاولت أن أبيِّن فيها أن هنري ديفيد ثورو حينما خاض تجربته «الصوفية» وانسحب إلى

www.scantopdf.eu

وولدن، كان متأثراً بالتراث الشرقي الذي ينحو نحو إنكار الذات، ولكن تأثره كان سطحيّا، فقد كان يحمل ذاتًا فاوستية تبتلع الدنيا، وأنه لم يكن متصوفًا بمعنى الزهد وإنما بمعنى أنه يحب أن يصل إلى جوهر الأشياء ليهيمن عليها. وهذه الأطروحة لا تختلف جوهريّا عن أطروحة ماكس فيبر الخاصة بعلاقة الرأسمالية الرشيدة بالبروتستانتية، والتي لم أكن قد قرأت عنها بعد.

وبدأت أتلمس طريقي نحو نموذج الحلولية (الذي سأشرحه بالتفصيل فيما بعد)، فالديانات الآسيوية ورؤية هيجل Hegel والدعوات المشيحانية (التي تَعدُ المؤمنين بالفردوس الأرضي عما قريب) كلها رؤى واحدية لا يوجد فيها مجال للأحلام المفارقة للمادة بشكل جذري، فتتحد الروح بالمادة والمقدَّس بالزمني، ويتوقف الجدل والتاريخ ويصبح حديث الروح هو ذاته حديث المادة، وحديث المادة هو ذاته حديث الروح، ويؤدي التمركز حول الذات إلى الذوبان في الموضوع بحيث لا يوجد فارق بين الإنسان المركب والطبيعة البسيطة ! وهذا هو النموذج الكامن وراء الرأسمالية الاستهلاكية والإمبريالية. وكل الفلسفات الفاشية فلسفات مادية فردوسية حلولية تعلن نهاية التاريخ الآن وهنا (وقد أدركت تدريجيّا أن إسرائيل تنضوي تحت نفس النمط). وكانت المسرحية الموسيقية «شعْر» (التي سبق الإشارة إليها) تتحدث عن الفعل الجنسي أو أي شيء يحقق اللذة للمرء بحُسبانه تجربة روحية !

وهنا بدأت أدرك مخاطر الهيجلية بحُسبانها رؤية واحدية مغلقة إذ سيتحد العقل الكلي (في نهاية الأمر والزمان والتاريخ) بالطبيعة، فتصبح الطبيعة فكراً والفكر طبيعة، والمادة روحًا والروح مادة، وينغلق الجدل وتُلغى الثنائيات. فهو نسق لا تدافع فيه، برغم كل ادعاءاته «الجدلية». وبالتدريج، أدركت أنني حينما أتحدث عن نهاية التاريخ فإنني أتحدث في واقع الأمر عن بعض النظم الفلسفية المادية (التي تدَّعي الروحية أو التي تستخدم ديباجات روحية للتعبير عن المادي) والتي تحلم دائمًا بتشييد الفردوس في الأرض، اليوتوبيا التكنولوجية، في لحظة ينتهي فيها التاريخ ويُعلَن انتهاء الجدل والمعاناة والتدافع ثم انتهاء الإنسان نفسه - أي أن نهاية التاريخ هي انتصار المادة وسد المسافة بين الطبيعة والإنسان وتصفيته ككيان مستقل متجاوز للنظام الطبيعي. وقد اتضح كثير من هذه الأفكار فيما بعد، بعد صياغة نموذج الحلولية ووحدة الوجود.

www.scantopdf.eu

وهكذا، اختلط التصوف والمادية، واللاعقلانية والعلم والتكنولوجيا، والدين والهوية والاقتصاد والجنس ورؤية الإنسان للكون، وتداخلت الأمور ولم يعد العالم واحديّا ماديّا بسيطًا، يضم مقولات مستقلة لها حدود واضحة، وبناءً فوقيّا يُردُّ إلى بناء تحتي (أساسي) يُردُّ بدوره في نهاية الأمر إلى العلاقات الاقتصادية. ونفضت عن نفسي وهم الموضوعية الفوتوغرافية وتصور أن العقل كالمرآة يعكس الواقع، وتبنيت نموذجًا توليديّا في رؤيتي للواقع (كما سأبيِّن فيما بعد). وهكذا انتقلت من سذاجة المادية واختزاليتها إلى تركيبية الظاهرة الإنسانية. وكنت أحاول دائمًا أن أصل إلى إطار تصوري عام (نموذج كلي) يضم كل هذه الموضوعات والأطروحات.

بدايات الانتقال

لم يتم الانتقال من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية، ولم تحل النماذج التفسيرية المركبة (التي تذهب إلى أن هناك قانونين: واحداً للإنسان والآخر للمادة) محل النماذج التفسيرية المادية البسيطة (التي ترى أن هناك قانونًا ماديّا واحداً يسري على كلٍّ من المادة والإنسان) دفعة واحدة، بل كانت عملية طويلة شاقة استمرت أكثر من ربع قرن. فالفلسفة المادية فلسفة مريحة تختزل الواقع وتختزل الوجود الإنساني في قوانين المادة، ولذا فهي قادرة على تفسير كل شيء وعلى تزويد الإنسان بأجوبة سريعة. (كنت أقول ساخراً - فيما بعد - إن إحدى مزايا الفلسفة المادية أنها قادرة على تحويل الإنسان في لحظات إلى مثقف قادر على الإجابة عن كل الأسئلة الكبرى وتفسير كل شيء والإفتاء في كل شيء من خلال صيغ جاهزة بسيطة). وبرغم إحساسي بقصور هذه الفلسفة، وبرغم التناقضات الصارخة بين النموذج المهيمن من جهة وتجربتي وسلوكي وإحساسي بما حولي من جهة أخرى، وبرغم محاولتي التملص بعض الشيء من المقولات المادية المصمتة فإنني حاولت في الوقت ذاته أن أمكث داخل حدود الفلسفة المادية (فإسقاط النموذج المهيمن وإحلال آخر محله ليس مسألة سهلة أو هينة)، ولذا بدأت أبحث عن مقولات زمنية (مادية) تتسم في الوقت ذاته بقدر من الثبات والتجاوز في عالم الصيرورة المادية تصبح هي مرجعيتي النهائية ومصدر القيمة والغاية والاتجاه. باختصار شديد، حاولت أن أنقذ مقولة الإنسان الحر المستقل من السقوط في حمأة الطبيعة/ المادة المتغيرة الحتمية، على أن أبقى داخل حدود المادة، ويالها من مفارقة.

www.scantopdf.eu

ويبدو أن هذه ظاهرة متكررة في تاريخ الفكر الإنساني، وقد سميتها ظاهرة «الإله الخفي»، وهو مفهوم يعني أن الإنسان قد يؤمن بشكل واعٍ بنموذج مادي، ويظن أنه استبطنه تمامًا حتى أصبح جزءًا لا يتجزأ من رؤيته ووجوده. ولكن هذا الإنسان مع هذا، في ظروف معينة، تفصح أقواله وأفعاله بشكل غير مباشر وغير واع عن وجود شيء ما في أعماق أعماقه يتناقض مع الإطار المادي الواحدي الذي تبناه. وبرغم هذا فإن مثل هذا الإنسان قد لا يتجه بالضرورة نحو اختيار منظومة أخلاقية بديلة، ويمكننا القول بأن الإله الخفي هو في واقع الأمر البحث غير الواعي للإنسان الطبيعي/ المادي عن المقدس في عالم الطبيعة/ المادة ذلك العالم الذي لا قداسة له ولا محرمات فيه ولا حرمات.

ويتضح الإله الخفي في بعض العبارات المتواترة في الفكر الغربي الحديث. فهناك دائمًا حديث عن «التجاوز من خلال الطبيعة/ المادة» (بالإنجليزية: ترانسندانس ثرو نيتشر transcendence through nature)، بمعنى أن الإنسان يوجد داخل المادة ولكنه لا يذعن لها ولا يرفضها، فهو يتطلع لأن يتجاوزها (وصولاً إلى المقدس)، وهي محاولة للحفاظ على استقلالية الإنسان عن الطبيعة وعلى قداسته وحريته ومقدرته على الاختيار والتجاوز (العنصر الرباني) دون التخلي عن الإطار المرجعي المادي النهائي.

ويتضح الإله الخفي بشكل أكبر في عبارة «النزعة الطبيعية المتجاوزة أو الخارقة للطبيعة» (بالإنجليزية: سوبر ناتشورال ناتشورالیزم supernatural naturalism)، والتي وردت في كثير من الكتابات التي تصف الحركة الرومانسية، وهي عنوان كتاب للناقد الأمريكي إبرامز. كما قال أحد النقاد إن مدرسة فرانكفورت تؤمن بـ «الإنسانية الميتافيزيقية» (بالإنجليزية: ميتافيزيكال هيومانيزم metaphysical humanism). ففي كل المصطلحات السابقة يوجد مكون مادي (خلال المادة - الطبيعة - الإنسانية) ومكون متجاوز للمادة (تجاوز - تجاوز الطبيعة أو الخارق لها - الميتافيزيقية) الذي يمكن أن نعرِّفه بأنه المقدس، مما يعني وجود ثنائية تتجاوز الواحدية المادية برغم كل المحاولات لمحاصرتها في إطار مادي محض.

كنت أدور في نفس النمط حينما بدأت بحثي عن مقولات ثابتة متجاوزة في عالم المادة، ولذا حاولت أنا أيضًا أن أؤكد استقلال الإنسان وأحتفظ به في الوقت نفسه داخل المُعطَى المادي، ولذا بدلاً من التحدث عن «العنصر الرباني» في الإنسان (كما فعلت فيما

www.scantopdf.eu

بعد)، كنت أتحدث عن «العنصر الكوني» الذي كنت أعرِّفه حينذاك بأنه «العنصر الثابت نوعًا» في الإنسان والطبيعة وبالتالي فهو غير تاريخي غير مادي (برغم ماديته الواضحة). وكلمة «كوني» كلمة مبهمة، فالعناصر الكونية توجد داخل عالم المادة الذي يتسم بالحركة ولكنها تتجاوزه نظراً لثباتها النسبي، فهي غير خاضعة لقوانين التاريخ والزمان والصراع الطبقي وعلاقات الإنتاج والتغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية، أي أنها غير خاضعة لقوانين المادة، ومن ثم فكلمة «تاريخي» في هذا النص تعني «مادي» (كل هذا تعبير عن النموذجين المادي [الظاهر] والإنساني [الكامن] اللَّذين تحكما في وجداني في أثناء فترة التحول). وكما بيَّنت في موسوعة ١٩٧٥ :

«العنصر الكوني في أي بنية تاريخية هو عنصر لا يخضع للقوانين التاريخية بل يتحداها ويمدها بالحياة. وتحت هذا العنصر، تندرج الرغبة الجنسية بالمعنى البيولوجي وكل الحاجات البيولوجية والبيئة الجغرافية (خاصةً في جانبها الذي لا يتأثر كثيراً بالتدخل الإنساني) والمشاعر الإنسانية الأساسية مثل الخوف من الظلام والموت».

وتتضح نفس المحاولة نحو توسيع نطاق استخدام المصطلحات الماركسية القديمة مع البقاء داخل النسق المادي في بعض المصطلحات النظرية التي طورتها في موسوعة ١٩٧٥ . كنت أشعر أن ثنائية البناء الفوقي/ التحتي هي في واقع الأمر إثنينية تتسم بقدر كبير من التبسيط والاختزالية وتُصفَّى في نهاية الأمر برد الأول للثاني، كما أنها تؤدي إلى سقوط كل شيء في قبضة المادة والصيرورة والحركة والواحدية، وبالتالي لا تبقى أي ثوابت، وتختفي ظاهرة الإنسان ككيان مستقل عن عالم الطبيعة/ المادة المتغير. وانتهى بي الأمر إلى أن نَحَتُّ مصطلحًا شبه ماركسي، ولكنه كان - في تصوري - يتجاوز الثنائية الماركسية التبسيطية الاختزالية. فأشرت إلى العنصر الكوني بحُسبانه - كما أسلفت - جزءاً من البنية التاريخية يتسم بالثبات النسبي، ولكنه في ذات الوقت منفصل عنها (أي أنه يعكس ثنائية الإنسان والمادة الكامنة في وجداني)، ولذا فهو - حسب تصوري آنذاك - يشكل الأساس التحتي للبناء التحتي (ولذا سميته «البناء تحت التحتي»). كما أنه يعبر عن نفسه على قمة البناء الفوقي (ولذا سميته «البناء فوق الفوقي»).

وقد أكدت أن «العنصر الكوني» هو الحد الأدنى المشترك بين البشر وأن تكرار العناصر الكونية وثباتها هو في نهاية الأمر أساس إنسانيتنا المشتركة ومصدر مقدرتنا على تجاوز الطبيعي/ المادي. ثم أضفت قائلاً :

www.scantopdf.eu

«ووجود العنصر الكوني في البنية التاريخية هو مصدر تجددها. والتداخل بين الكوني والتاريخي هو أساس التقدم والحركة، فالإنسان الفرد موجود داخل الدائرة التاريخية ومستوعب فيها، وهذا الاستيعاب إذا كان تامّا وكاملاً فإن الإنسان يفقد الرغبة في الثورة [التجاوز في مصطلحي الحالي]، ولكنه لأنه داخل البنية التاريخية وفي الوقت نفسه على صلة بعناصر كونية غير تاريخية، فإنه لا يُستوعب تمامًا [في البنية التاريخية] وإنما يحتفظ بالقدرة على الانسحاب داخل ذاته وعلى إنشاء صلة مباشرة مع الكون، وعن طريق هذه العملية يعيد صياغة نفسه ويكتسب مقومات الحياة التي تجعله لا يقنع بما حوله بل يطرح رؤى جديدة. ولنلاحظ أن العنصر الكوني هو مصدر الثورية [أي القدرة على التجاوز] إن ظل متفاعلاً مع العنصر التاريخي، ولكنه لو استقل فإن الإنسان يصبح «الإنسان الفرد» ضيق الحدود، ولكنه في الوقت نفسه «الإنسان الكوني» الذي لا تحده حدود [السوبرمان في مصطلحي الحالي]، وهذا هو جوهر الاستقطاب الرأسمالي إذ يذهب الإنسان البورجوازي إلى الطبيعة أو إلى السوق، فهو فرد غير اجتماعي، عالم في حد ذاته، مغلق تمامًا لا يربطه رابط بالآخرين، ولكنه عالم لا تحده حدود، يتحد بالطبيعة إن شاء، ويستولي على فائض القيمة دون أي قيود، وينتج ما يشاء من سلع ويبيعها بالسعر الذي يراه. ولكن الشيء نفسه ينطبق على العنصر التاريخي، فإذا لم يتفاعل العنصر التاريخي مع العنصر الكوني، فإن الإنسان يصبح «الإنسان البيروقراطي» [«السبمان»، دون الإنسان في مصطلحي الحالي] المجدب الذي فقد الحلم والذي يقنع من الحياة بقرارات اللجان والخطط الخمسية والسبعية، ويبتهج بتوجيه من السلطة ويحزن إن طُلب منه ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ثم حاولت أن أُؤسس نظامًا أخلاقيّا استنادًا لهذا العنصر الكوني (غير المادي):

«ولعل تأكيد العنصر الكوني في البنية التاريخية يكتسب أهمية خاصة عن ذي قبل، فنحن في عصر التكنولوجيا والتجريب، وباسم «التقدم» التاريخي والعلمي بدأ الإنسان يستهلك موارده الطبيعية بسرعة فائقة وغير رشيدة، وهي سرعة لا تمتد إلى الخارج وإنما إلى داخل الإنسان نفسه، إذ بدأ الإنسان يفقد ذاته وبدأ يجرب فيها المخدرات والشذوذ الجنسي، ولا يمكن الوقوف ضد هذا الاتجاه إلا من منظور كوني/ تاريخي في الوقت ذاته. فنحن لا نملك أساسًا فلسفيّا لنقد التجريبية والاستهلاكية في المجتمعات الغربية من منظور تاريخي وحسب، فهي مجتمعات «منتجة»، كما أن الشذوذ الجنسي توافق عليه الأغلبية

www.scantopdf.eu

العظمى ولا تمانع فيه بتاتًا. ولا يبقى أمام الإنسان الثوري إلا العودة للطبيعة الكونية (البشرية وغير البشرية). فالسعار الاستهلاكي . . . . سيؤدي بنا إلى التهلكة: بيئة ملوثة، عالم نتنافس فيه على المواد الخام، كون أقرع لا خضرة فيه، أنهار تحمل الأحماض القاتلة بدلاً من المياه الصافية، هواء يحمل كميات محترمة من الكربون مونوكسيد. وحينما تقرأ جريدتك اليومية في الصباح، فلتتذكر أيها الإنسان الاستهلاكي الأشجار التي قطعتها الفأس الصناعية العلمية لتزودك بكم هائل من الأخبار، أنت في نهاية الأمر في غنى عنها، فلقد سمعت معظمها في النشرة الإخبارية. أما الإنسان التجريبي فسيؤدي إلى خلق أنماط بشرية لا هي بالذكر ولا هي بالأنثى، وبشر في حالة غيبوبة كاملة مستمتعين بالشذوذ والغيبوبة. من منظور كوني يمكننا أن نشير إلى أثر الاستهلاك على المجتمع والإنسان. إن التقدم العلمي سيؤدي إلى ورطة كونية، لأنه تقدم لا يأخذ في الحُسبان العنصر الكوني (حدًا أدنى من الاتزان والتفاهم مع الطبيعة).

«ولعل هذا الاتجاه هو ذاته الذي سيؤدي إلى تكاتف البشر في مواجهة الطبيعة ليرشدوا الاقتصاد الإنساني ووسائل الإنتاج في العالم، وإلا قضى الإنسان على نفسه وعلى بيئته. ونفس الشيء ينطبق على محاولات التجريب في الإنسان، فلا يمكننا الوقوف ضد الهلوسة والشذوذ إلا بالعودة إلى العناصر الثابتة في النفس البشرية، وهي العناصر تحت التحتية وفوق الفوقية. ومن الواضح أنه عبر التاريخ قد ترسخت مسألة أن الإنسان الواعي خير من الإنسان الذي يفقد رشده، وأن العلاقة الجنسية المثلى هي العلاقة بين الرجل والمرأة وليست بين فردين من نفس الجنس. وبهذه الطريقة يتقاطع الكوني مع التاريخي، وتنتج حركة حلزونية متطورة وحية وليست حركة دائرية آسنة وميتة.

وكنت واعيًا تمامًا بتناقض موقفي (الكوني بحُسبانه عنصرا ثابتًا يوجد داخل عالم المادة المتغير)، ومع هذا كنت أرى هذا التناقض تكاملاً، فكنت أقول: «واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا (مستخدمًا المادية الجدلية)، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا (منطلقًا من القرآن والسُّنة)». كما كنت أصنِّف نفسي ساخرًا بأنني ماركسي سني، أو ماركسي بشرطة.

وهذا البحث عن مقولة ثابتة متجاوزة في عالم الصيرورة المادية عبَّر عن نفسه في الإيمان بالتاريخ. ولكن كوْن الإنسان كائنًا تاريخيًا، كان يعني - بالنسبة لي حينذاك -

www.scantopdf.eu

استقلاله عن القوانين الطبيعية ووعيه بذاته كخالق الحضارة ومبدع لها، ومن هنا كلمة «تاريخي» في هذه النصوص تعني «يمكن رده لعالم الإنسان ولا يمكن رده لعالم الطبيعة/ المادة» (ومن هنا اهتمامي المبكر بإشكالية نهاية التاريخ بحُسبانها نهاية الإنسان). هذا الاهتمام بالتاريخ ترجم نفسه إلى ضرورة تأكيد الهوية القومية (والخصوصية القومية) بحُسبانها تتسم بقدر من الثبات والتجاوز. وللتعبير عن هذه الهوية بدأت في تغيير بعض معالم حياتي. فكنت، على سبيل المثال، أرتدي جلبابًا ريفيًا في الحفلات التي تُقام لتوديعي في الولايات المتحدة حين حصلت على الدكتوراه، إعلانًا عن أن عودتي ليست مجرد عودة جسدية وإنما عودة روحية. (لم تكن ابنتي التي وُلدت في الولايات المتحدة قد رأت الجلباب المصري من قبل، ولذا نبهتني مرة إلى أن جلبابي يلامس الأرض واستخدمت كلمة «جاون gown» أي «قميص نوم» بدلاً من جلباب، فضحكت وعرفت أنني فشلت في أول دروس الخصوصية القومية الذي لقنته لابنتي).

ولعل عدائي للصهيونية ينبع من نفس المصدر، فهي أيديولوجية معادية للتاريخ وبالتالي للإنسان والقيم، ولذا تبنيت القضية الفلسطينية التي تحولت إلى نقطة الثبات والتجاوز بالنسبة لي، فهي قضية الحق فيها واضح غير مبهم. فالفلسطينيون طُردوا من ديارهم دون وجه حق، وكل ما يطلبونه هو العودة إليها، هذه حقائق أساسية ثابتة، ذات مضمون أخلاقي واضح لا يمكن التفاوض بشأنها، الحلال فيها بيِّن، والحرام بيِّن، ولا يمكن للإنسان أن يرفضها إلا من منظور داروينى مادي شرس. ثم اتسعت القضية الفلسطينية لتصبح رمزًا للتاريخ الإنساني بأسره بحُسبان أن التاريخ كيان مركب لا يُردُّ إلى الطبيعة/ المادة.

وقد عبَّر كل هذا عن نفسه في الكلمة التي كتبتها في أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ ونشرها الأهرام بعنوان «كلمة عربية في زمن الأباطيل»:

«لا، لم نصنع الأساطير ولا المعجزات، وإنما تحركنا مع تاريخنا العربي وتحرك معنا، دفعناه إلى الأمام ودفعنا، خلقناه وهو يهبنا الحياة.

«لا، لم نصنع الأساطير وإنما عشنا واقعنا بكل حقائقه وإمكاناته، فلم تسكرنا الرؤى ولم يبعث الواقع في أنفسنا القنوط، وحملنا الراية الفرحة الحزينة وعبرنا.

«في زمن الكذب والأباطيل والإحصاءات الملفقة والعلاقات العامة والآلة التي تنتظر

www.scantopdf.eu

من البشر الإذعان، تعبر أيها الإنسان دهاليز الخوف لتعلن أنك لا تزال في مركز الكون. وحينما أسقطت الآلة الحديدية «المتفوقة» النيران على القرى والأطفال والأشجار في الجزائر، وحينما زمجرت الآلة الفاتكة «الكفء» في سماوات فيتنام الزرقاء وفوق غاباتها المورقة الخضراء، لم تذعن أيها الإنسان وإنما انطلقت وعبرت وأمليت إرادتك.

«وها أنت ذا في سوريا وفي مصر وفي أنحاء شرقنا العربي تعبر الحاجز مرة أخرى لتؤكد أنك لن تستسلم للأشياء والأصنام حتى ولو أخذت شكل نابالم حارق أو فانتوم قاتل أو أموال يهودية صهيونية لا تُعَدُ ولا تحصى أو إمدادات أمريكية لا تنتهي أو جيش إسرائيلي «لا يقهر».

«في مركز الكون فلتقف أيها الإنسان العربي ولتغرس راية العروبة والحق في أعلى القمم».

وعلى الرغم من إيماني العميق بما كنت أقول في ذلك الوقت، فإنني كعادتي استغرقت في التأمل وبدأ الشك يزحف إلى نفسي. فالدراسة الموضوعية للتاريخ (والهوية القومية)، تبين أنه هو الآخر مجرد حركة، ومن هنا يطرح السؤال نفسه: هل هذه الحركة لها غاية؟ أو أنها حركة مادية صرفة لا غاية لها؟ فإذا أخذنا بالاحتمال الأول، بمعنى أنها حركة لها غاية، فإن السؤال بخصوص مصدر هذه الغاية يطرح نفسه، بما أن المادة لا تعرف لا الغاية ولا القيم. ولذا فالإيمان بـ «حتمية التاريخ» و«حتمية انتصار الطبقة العاملة» و«حتمية تحرير فلسطين»، وما شابه من حتميات هو في واقع الأمر إيمان بغائيات مادية ونوع من أنواع الميتافيزيقا المتخفية. (أسميها الآن «الميتافيزيقا القذرة» لأنها تنكر هويتها كميتافيزيقا وتطرح نفسها على أنها «علْم» بل «وعلْم طبيعي» له قوانينه المادية الموضوعية! هذا على عكس «الميتافيزيقا النظيفة»، فهي ميتافيزيقا ظاهرة واضحة، لا تخجل من طرح نفسها على أنها ميتافيزيقا ولا تتطفل على أي شيء ولا تتخفى وراء أي مسميات أخرى).

وقد حدثت لي هذه الواقعة التي يتبدى من خلالها بدايات الانتقال واختلاط النماذج المهيمنة عليّ، وكيف كنت أقف على الحدود بين الشك والإيمان: قرأت إعلانًا في أحد المطارات يقول «كأنك تمتلك خط طيران As if you own an air line». وقرأت تفاصيل الإعلان فوجدت أنه يمكن للمرء أن يدفع ١٩٩ دولارًا فقط لاغير ويسافر أينما يريد على طائرات شركة إيسترن لمدة ثلاثة أسابيع. فلم أصدق الإعلان في بداية الأمر،

www.scantopdf.eu

وأخبرت مكتب السياحة الذي أتعامل معه، فلم يصدق الموظف المختص هو الآخر الإعلان، ولكنه أخبرني بأنه على استعداد أن يقطع لي التذكرة إن حددت له المسار (فتحديد المسار سيستغرق منه وقتًا طويلاً). وبالفعل أعطاني الكتاب الخاص بمواعيد الطائرات وأعددت رحلة تأخذني إلى دالاس، في ولاية تكساس، ومنها إلى ولاية كاليفورنيا (لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو) ثم إلى ولاية فلوريدا فبورتوريكو والمكسيك. ففوجئ مكتب السياحة بأن الكمبيوتر قد قبل التذكرة، بل وتصادف أن يوم قطع التذكرة كان هو آخر يوم يُسمح فيه بذلك. وبالفعل قمنا أنا وزوجتي بالرحلة، وقابلنا طفلينا في ولاية فلوريدا حيث قضينا بعض الوقت معًا. ثم عادا إلى نيو جرسي، واستمرت رحلتنا إلى مدينة سان خوان في بورتوريكو. وكنت قد أعلنت قبلها أن رحلتي ستكون خارج الزمان والتاريخ، أي أنها لا علاقة لها بالثبات أو بأي نوع من أنواع الميتافيزيقا الواضحة أو الخفية، فهي ستكون حياة دنيوية خالصة، تمكث على السطح المادي اللامع المريح وحسب، ولا علاقة لها بالأعماق، ومن ثم لا علاقة لها بالقيم المطلقة أو بالفقراء أو بالجهاد أو بالشهداء (كانت مظاهرات الأكفان قد بدأت في إيران، فكنت أسمع عنها وأهرب منها، بحُسباني سائحًا نماذجيًا يقف خارج التاريخ لا علاقة له بالسياسة أو الأخلاق!).

وقد نزلنا في فندق يُسمَّى El convento، أي الدير، وكان ديرًا للراهبات حُوِّل إلى فندق. وفي المساء في أثناء عودتي من رحلتي اليومية سمعت صوت غناء الفلامنكو الذي أعشقه (بسبب ما فيه من نبل وحزن) فتوقفت وقلت لزوجتي هيا بنا. فدخلنا المرقص (وكان في الماضي كنيسة الدير). أما مكان المذبح فأصبح مسرحًا يقف فيه راقص الفلامنكو وبجواره الراقصات. وقد تضايقت من عدم الاحترام للدين، ومع هذا انتشيت بالغناء والرقص بشكل غير عادي (عرفت فيما بعد أن راقص الفلامنكو هذا من أشهر الراقصين في العالم، وأنه يقدم أولى حفلات الموسم في سان خوان). وعند انتهاء الحفل، وفي طريقنا إلى غرفتنا، توقفت على سلم الفندق وقد أحسست فجأة بالزمان وبالتاريخ وعالم القيم والحدود، وقلت لزوجتي: «هذه النشوة التي أشعر بها تفوق الوصف، وقد عبرت خطًا لا يصح أن يعبره البشر، ولذا فستعاقبني الآلهة» (لم أكن ساعتها قد ولجت عتبات الإيمان بعد). وبالفعل حينما ذهبت إلى غرفتي دق جرس التليفون، فقلت: اللهم اجعله خيرًا وأرجو ألا يكون قد حدث شيء لابنتنا وابننا.

www.scantopdf.eu

وبالفعل كانت المكالمة من أصدقائنا المصريين الذين كانوا في منزلنا مع طفلينا. وقالوا إن الأطفال بخير، أما ما عدا ذلك فقد سُرق، فقد جاءت سيارة نقل وحملت كل ما نملك من متاع الدنيا (وكما سأبيِّن فيما بعد كانت هذه سرقة سياسية تهدف إلى إفقادنا الاتزان).

وبرغم اقتحام الزمن لنا فقد قررنا، بإرادة نيتشوية، أن نستمر في رحلتنا، وذهبنا إلى المكسيك حيث رأينا أعمال الفنان المكسيكي ريڤيرا، الذي كان يرسم على حوائط مباني الفقراء، فذهبنا إلى مبنى المنطقة التعليمية في أحد الأقسام الفقيرة لمدينة مكسيكو لنشاهد رسومه الرائعة التي غطت حوائطها، تمامًا مثل رسوم الأزتيك Aztec والمايا Maya على أهراماتهم. فمصادره الإبداعية لم تكن غربية وحسب، وإنما كانت محلية تراثية أيضًا. وقد قضينا يومًا في ضاحية سوتشيميلكو Xochimilco بجوار مدينة مكسيكو، وهي ضاحية غريبة مكونة من قنوات صغيرة تستأجر فيها زورقًا لتقضي فيه بضع ساعات وتشتري الورد من الباعة. وقد شاركتنا زورقنا أسرة يهودية سفاردية. وبعد قليل ظهر قارب آخر يحمل عازفين للموسيقى. فاشترى لنا رب الأسرة السفاردية أغنية تحية لنا، فقمت أنا الآخر بشراء أغنية تحية لهم. وكانت تجربة فريدة حقّا في عالم لا يوجد فيه من السلع غير الورد والأغاني. وتذكرت عالم التراحم الرائع الذي عشته في طفولتي، وتذكرت نيو جرسي التعاقدية التي سأعود إليها بعد أيام، حيث سرقت معظم ممتلكاتي أنا وزوجتي.

وحينما عدت من الولايات المتحدة إلى مجتمع الانفتاح في مصر عام ١٩٧٩، طرحت فكرة المادية والقيمة مرة أخرى نفسها عليّ بإلحاح، خصوصًا أنني درست الإبادة النازية لليهود وغيرهم من الأقليات، ووجدت أنه في داخل إطار النموذج المادي والنسبية المطلقة التي ترى أن كل الأمور مادية ومن ثم متساوية، وأن آراء أي إنسان، مهما بلغت من ذاتية أو موضوعية، ومهما بلغت من خساسة أو نبل، صحيحة، لا تختلف عن آراء أي إنسان آخر، فالإنسان مرجعية ذاته، يرى ما يرى. فهو قد يقرر، على سبيل المثال، أن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق أمر غير مشروع يوم السبت، أما يوم الثلاثاء فقد يرى غير ذلك، وهو في كلتا الحالتين على حق وعلى صواب! أقول إنه داخل إطار مثل هذه المادية والنسبية المطلقة، لا يمكن دمغ التجربة النازية (أو الصهيونية أو أية تجربة إمبريالية) أورفضها أو حتى محاكمتها بحُسبانها خطأً أو أمرًا يتنافى مع الأخلاق. لأنه لا يمكن «الحكم» على شيء ولا يمكن التمييز بين الخير والشر مع غياب المعيارية، فإصدار حكم

www.scantopdf.eu

على شيء ما خارجنا يتطلب وجود أرضية فلسفية تحوي درجة من الإطلاق متجاوزة لقوانين المادة والحركة، يمكن من خلالها تطوير معايير وموازين فلسفية وأخلاقية، تجعل بوسعنا الحكم والتمييز .

واستمرت الأسئلة بخصوص النموذج المادي والنسبية المطلقة تهاجمني بلا هوادة . فمن منظور مادي نفعي، هل يمكن أن نأخذ «الآخرين» في الحُسبان ؟ أليست الأنانية تعبيراً عن عناصر مادية صلبة، فلم ننكرها إذن ؟ أليس البحث عن اللذة الجسدية أمراً ماديّا (ينتمي إلى البناء التحتي)، فلم نتنكر لها أحيانًا، ونعليها أحيانًا أخرى ؟ أليس الإنسان الطبيعي، الذي يتبع دوافعه (الاقتصادية) وغرائزه (الجنسية)، أقرب إلى الحالة البشرية منا، نحن الذين لا نزال نعيش داخل إطار الحضارة والمجتمع والأسرة، ونلتزم بمقاييس غير المقاييس الطبيعية ؟ على أي أساس يمكن أن نحكم على الأشياء ؟ كيف نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ؟ وما المعروف وما المنكر ؟ هل هناك معروف وهل هناك منكر ؟ وحينما يسقط كل شيء في قبضة الصيرورة، يصبح كل شيء مباحًا .

وكنت أُلاحظ أن بعض الناس أشرار دونما سبب، الشر فيهم عميق متأصل، لا يمكن تفسيره من خلال البيئة أو العناصر الوراثية (خضت تجربة عائلية خاصة جدّا، تبيِّن هذا الجانب في النفس البشرية وتركت في نفسي جرحًا غائراً، ولكنني لا يمكنني أن أتناولها لأنها مسألة خاصة جدّا، وقد اختار الله شخصيتها الرئيسية إلى جواره، رحمه الله). كما كنت ألاحظ أن معظم البشر برغم ما فيهم من شرور يحوون قدراً كبيراً من الخير (ولعل هذا استعداد نفسي لدي) مما طرح السؤال علي : كيف نفسر هذا الخير ؟ هل الإنسان الطبيعي قادر على إتيان أفعال الخير؟ ثم بدأت أطرح السؤال على نفسي وبإلحاح غريب : لم أفعل الخير وأتحاشى الشر؟ هل هذا هو أثر البيئة فيّ وحسب ؛ عملية تربية اجتماعية لا أكثر ولا أقل ؟ وإذا كان الأمر كذلك - فلم أتمسك إذن بالأخلاقيات ؟ لم لا أعلن نفسي إلهًا - إنسان نيتشه الكامل الذي يشكل عالمه الأخلاقي الخاص به ولا يحكم على نفسه إلا بمعاييره هو ؟ وبدأت الأسئلة تتسع وتتعمق وبدأت أتساءل : لمَ نتحدث عن المعنى ؟ لمَ نتحدث عن الاغتراب ؟ لمَ نتحدث عن الإنسان كقيمة مطلقة ؟ لمَ نتحدث عن الأخلاق ؟ بل لِمَ نتحدث عن الجمال ؟

وقد عمَّق من شكوكي بخصوص النسبية والمادية قراءاتي لكتاب إرفينج بابيت Irving

www.scantopdf.eu

Babbit روسو والرومانتيكية. وبابيت مؤلف رجعي، ولكن كتابه كان هجومًا لاذعًا على الرؤية الطبيعية/ المادية التي سماها «رومانتيكية». وبرغم أن المؤلف نفسه لم يكن مؤمنًا بالله، فإنه كان يرى استحالة أن يعيش الإنسان داخل نفسه (أو داخل العالم الطبيعي) دون أي حدود أو قيم. وكانت كتابات تي. إي. هلم T. E. Hulme (وهو ناقد مهم ولكنه مات شابًا في الحرب العالمية الأولى) تنحو نفس المنحى وتهاجم ما سماه «الرؤية الرومانتيكية» التي تري الإنسان بحُسبانه كائنًا لا حدود له يعيش خارج التراث والتقاليد والقيم. وبرغم إعجابي الشديد بالرؤية الرومانتيكية، وبرغم اختلاف وجهة نظري عنهما، فإن هذين الناقدين نبَّهاني إلى خطورة المادية والنسبية واستحالة أن يعيش الإنسان في عالمه المادي المتحرك دون مركز ودون قيم ودون مرجعية.

ولاحقتني الأسئلة بشكل يكاد يكون مرضيًا وكاد يقضي علي. كانت الأسئلة تطاردني وتنهكني، خاصةً حينما آتي بفعل فاضل، يكلفني الكثير. إذ كان عليّ كل مرة أن أتخذ قرارًا وجوديًا، ليس له أي أساس في النموذج المادي المهيمن: أن أفعل الخير وأتحاشى الشر وأدفع الثمن. وهذا أمر مُرهِق حقًا أن يفكر المرء بتوتر شديد في كل موقف يواجهه، ويوازن الأمور ويحكم عليها من منظوري نموذجين متناقضين: واحد مادي والآخر إنساني، ثم يقرر وجوديًا، ودون سبب واضح، أن يختار الثاني دون الأول. وقد استمر بحثي المحموم لمدة ربع قرن قبل أن أصل إلى ما وصلت إليه من اقتناعات إيمانية.

آلام الانتقال

كانت المحاضرات التي ألقيها على الطالبات في كلية البنات في جوهرها حواراً مع ذاتي بصوت عال، ومحاولة للوصول إلى أجوبة عن الأسئلة التي تلاحقني. وقد قمت بتدريس الشعر الرومانتيكي والڤيكتوري، وهو يناقش نفس المشكلات الفلسفية التي واجهتها ويحاول الإجابة عن نفس الأسئلة التي طرحتها. ماذا يفعل ا لإنسان في عالم تهيمن عليه النماذج المادية؟ وأذكر بالذات تدريس قصيدة «الملاح القديم» لكوليردج، وهي قصة ملاح يتسم بسذاجة الماديين وتجردهم ونفعيتهم، يواجه العالم بهذه الرؤية البسيطة فيحاول توظيفه والتحكم الكامل فيه. فالعالم - في تصوره - تحكمه سببية مادية بسيطة مجرد سطح مادي لاعمق له ولا باطن. فيصرع طائر القطرس الأبيض رمز الجماعة

www.scantopdf.eu

الإنسانية والمحبة، بل رمز الإله ؛ ويوافقه على فعلته كل رفقائه. وهنا يواجه الجميع ما يستحقونه : عالمًا ماديًا تعاقديًا بلا إله، لا رحمة فيه ولا محبة، فتصبح الحياة خرابًا ويبابًا وتتوقف السفينة عن الإبحار، بل تتعفن المياه نفسها. ثم يدفع المذنبون ثمن خطيئتهم فيُعاقب البحارة بالموت، أما الملاح القديم فيُعاقب «بالحياة في الموت». وبالتدريج يكتشف الملاح أن عالم المادة وحسابات المكسب والخسارة لا تنفع كثيراً في عالم الإنسان، فيتحول عالمه من مادة محضة إلى عالم تسري فيه الروح. فيدرك جمال أصغر المخلوقات البحرية وأكثرها قبحًا ويباركها، أي أنه بدأ يدرك القيمة المطلقة للأشياء. فتذهب اللعنة وتحل البركة، وتعود القداسة وتدب الحياة من حوله مرة أخرى لأنه أثبت مقدرته على الحب وعلى الإحساس بالجمال. ويفقد الملاح القديم الرغبة في السيطرة والتحكم ويرحب بعالم لا يمسكه بقبضته، لأنه يحوي من الأشياء غير المرئية أكثر من الأشياء المرئية (كما تقول مقدمة القصيدة)، ويعود الملاح للجماعة الإنسانية بعد طول غربة وعزلة وانفصال. ولكنه مع هذا يُصاب من آونة لأخرى بنوبة تشبه الكابوس لا يخرجه منها سوى أن يقص قصته على أحد الأفراد الذين لم يتخطوا بعد مرحلة البراءة والذين لا يستطيعون أن يصلوا إلى المعنى العميق للحياة والطبيعة. هذه القصيدة تركت فيّ أثرًا عميقًا وجعلتني أتوجه لأبحث عن غير المنظور.

وبدأت أحدث الطالبات عن الخطاب الإمبريالي : خطاب التحكم في الآخر والهيمنة عليه وتوظيف معرفتنا به لتحقيق مزيد من التحكم فيه (فالمعرفة، كما يقول فرانسيس بيكون، هي القوة). وفي مقابل هذا الخطاب الإمبريالي كنت أحدثهن عن خطاب المحبين، حيث يؤدي تزايد معرفة الآخر إلى مزيد من التعاطف والتواصل معه، ومن ثم تتراخى قبضة الإنسان ويصيبه الضعف والخور.

وكانت لقصائد وليام وردزورث هي الأخرى أعمق الأثر في نفسي، ففي قصيدته المعنونة «لندن عام ١٨٠٢» يهاجم الشاعر القيم النفعية التي سادت في وطنه. فالبورجوازية الشرهة التي ركَّزت كل اهتمامها على الإنتاج وعلى البيع والشراء أحلت الكم محل الكيف حتى أصبح أكثر الناس ثراءً هو أفضلهم. ويستخدم الشاعر أسطورة الطبيعة الطليقة البريئة («يجب أن ننساب متلألئين كجدول في ضوء الشمس المشرقة») ليبيِّن مدى خساسة نمط الحياة البورجوازية النفعي وما تؤدي إليه من تلوث مادي ومعنوي (الأمر الذي يذكرني إلى حدٍّ ما بالساحل الشمالي الذي تحول إلى غابات من الأسفلت

www.scantopdf.eu

والأسمنت وبالتلوث القاتل في القاهرة). وفي قصيدة «ما أكثر ما تستغرقنا الدنيا» يقف الشاعر أمام الطبيعة ويبيِّن أن غالبية الناس غارقون حتى الآذان في البيع والشراء وفي تافه التفاصيل، ولذلك فهم غير قادرين على الاستجابة الخلاقة للطبيعة (والطبيعة بالنسبة له ليست المادة، وإنما هي المكان الذي يحقق فيه الإنسان التكامل ولا تهاجمه التفاصيل). ثم يسترجع الشاعر في مخيلته أيام الوثنية البدائية ويقول إنه يفضل أن يكون وثنيّا، حواسه متيقظة، بدلاً من أن يقف إنسانًا بليداً؛ بلا إحساس ولا خيال ولا عاطفة، إنسان المجتمع الصناعي البورجوازي. إن البحر بالنسبة للوثني لم يكن مجرد مسطح شاسع من المياه وإنما كان مكانًا يزخر بالآلهة وأنصاف الآلهة مثل بروتيوس، رجل البحر العجوز في الأساطير الإغريقية، الذي اعتاد أن يرعى قطعانه ظهراً بالقرب من الشاطئ، ومثل ترايتون، إله البحر، الذي كان يُصوَّر حاملاً صدفة يستخدمها كبوق يُطلق منه أصواتًا جميلة مخيفة تثير البحر أحيانًا، وتجعله هادئًا أحيانًا أخرى.

كما كانت قصائد وردزورث الأكثر طولاً تشكل جزءاً من حواري مع نفسي. ففي قصيدة «تنترن آبي Tintern Abbey» يعود الشاعر إلى ذاته المتكاملة بعودته إلى الطبيعة (فلا يتوحد بها) ويلفه ذلك الإحساس الذي يسري في صميم الكون (دون أن يذوب فيه). ويستعرض تاريخ حياته في مراحلها المختلفة: الطفولة حينما كان جزءاً من الطبيعة، والشباب حينما كان يستجيب للطبيعة بحواسه دون تأمل، وأخيراً الرجولة حين يسمع «موسيقى الإنسانية الهادئة الحزينة لا خشنة ولا صاخبة/ وإن كانت قادرة على تطهير النفس وتهذيبها». وهو نفس الموضوع الأساسي الكامن في قصيدته المعنونة «أنشودة الخلود» حيث يحتفي «بالإيمان الذي ينظر من خلال الموت، وفي السنين التي تجلب معها النظرة الفلسفية».

كنت أقرأ للطالبات أشعار بليك وشللي وكيتس وأحاور ذاتي من خلال هذه الأشعار. ولكن أشعار كيتس بالذات كانت من أهم آليات الحوار. ولعل انشغال كيتس بقضية الحدود والتركيبية الإنسانية استحوذ على اهتمامي إلى درجة كبيرة. ففي قصيدة «أغنية إلى الحزن» نجد أن ثمة تقبلاً عميقًا للوضع الإنساني، فالفرح الأصيل ثمرة رؤية عميقة، ولكن الرؤية العميقة الحقة لابد أن تحيط بكل جوانب الواقع. ولذا تبدأ القصيدة برفض الرموز التقليدية للحزن: «لا تصنع مسبحتك من ثمرات أشجار المدافن،/ ولا تدع الخنفساء،

www.scantopdf.eu

ولا حشرة الموت تمثل لك/ سيكي [النفس البشرية] النائحة، ولا تدع البومة المنتفشة الريش/ تشاركك أحزانك».

فمثل هذه الطريقة في الحزن سطحية «تغرق عذاب الروح الساهر اليقظ».

أين إذن نجد الحزن العميق؟ يرى الشاعر أنه لا يمكن أن تجده إلا في الفرح العميق ذاته. فكلاهما جزء لا يتجزأ من الواقع المركب. ومن يريد أن يُجرِّب الحزن فعليه أن يغذي ناظريه على مظاهر الجمال، التي ستبعث في نفسه الفرح والحزن في الوقت ذاته: الفرح لوجود مظاهر الجمال والحزن لأنها زائلة لا محالة. لذا «أتخم حزنك بوردة صباح [زائلة]/ أو بقوس قزح على وجه الرمال المالحة [يظهر للحظات عابرة ثم يختفي]/ أو بخصوبة الثمار المستديرة [التي لابد أن تُستهلك أو تتعفن]/ أو إذا أظهرت حبيبتك فيضاً من غضب/ فلتحبس يدها الرَّخْصة، ولتدعها تهيج غاضبة/ ولتنهل عميقًا عميقًا من عينيها الفريدتين. [فمصيرها هو الموت لا محالة].

(العبارات بين الأقواس المربعة ليست جزءاً من القصيدة وإنما أضفتها لتوضيح المعنى الذي يرمي إليه الشاعر).

إن ربة الحزن تقطن مع ربة الجمال وليس مع البوم أو في الظلمة أو بجوار أشجار السرو أو مع مظاهر الحزن التقليدية. «نعم في معبد السرور ذاته/ يوجد محراب ربة الحزن المحجبة المهيب/ ولكن لا يراه إلا من يستطيع لسانه المتقد/ أن يعتصر كرمة الفرح على مشربه الرفيع/ ستذوق روحه كآبة عظمتها/ وتصبح معلقة بين غنائمها القاتمة».

وتقبل كيتس لحدود الحياة الإنسانية يصل إلى قمته في قصيدة «إلى الخريف» حيث نجد أن كل شيء مثقل بالثمار، مترع بالخصب، فياض بالرحيق. لقد بلغت الوفرة ذروتها حتى إن الخريف يجلس متكاسلاً في عدم اكتراث «فيترك صف السنابل التالي بكل أزهاره المتعانقة» فقد وجد الكفاية فيما حصد. وتتساقط قطرات العصير الأخيرة ببطء شديد حتى ليظن المرء أن الفردوس لن يزول أبدًا. ثم يتذكر الشاعر الربيع بأنغامه المرحة فيبدأ في التحليق، ولكنه يتذكر كذلك أن الفردوس والواقع قد امتزجا، فيسكت تساؤلاته عن الربيع ليسمع موسيقى الخريف حتى ولو كانت حزينة، ويرضى بما يرى حتى ولو كان زائلاً.

www.scantopdf.eu

كان شعر كيتس يشجيني، ولكنه كان يجعلني أسأل إن كانت حدود الإنسان بالفعل هي واقعه المادي، فهل هذا يعني أن حدوده هي حدود هذا الواقع، وأن فضاءه هو الفضاء الطبيعي/ المادي، وأنه لا يمكنه تجاوزه ؟ في «أغنية إلى وعاء إغريقي» يتمزق الشاعر بين التجاوز والتقبل الذي يتحول في قصيدة «إلى الخريف» إلى نوع من أنواع الحلول، حيث يصبح الخريف مكتفيًا بذاته ومرجعية ذاته، فهل يكفي الواقع دون تجاوز فعلاً ؟ أو أن في هذا نهاية الإنسان ؟

وتزداد الأزمة اتساعًا في الشعر الفيكتوري. فشعر ألفريد لورد تنيسون Tennyson Lord يتناول وبشكل واضح نفس القضايا التي واجهتني كمثقف يبحث عن مركز في العالم. ويجب ألا ننسى أن تنيسون كان يعيش في عصر داروين الذي حاول أن يربط بين الإنسان والطبيعة، والذي حاول أن يبيِّن أن حياة الإنسان لا تختلف كثيراً عن حياة الحيوان. ولذا يتساءل تنيسون عما إذا كان الإنسان «الذي يكلله الجلال، وتشع من عيونه الرغبة البهية/ الإنسان الذي أنشد المزامير تحت السماوات الممطرة»، هل يتحول حقّا إلى مجرد مادة وكأنه «رمال في الصحراء تذروها الرياح» ؟ إن التساؤل هنا ديني/ إنساني في الوقت نفسه، فوجود الماوراء (الغيب) مرتبط بوجود الإنسان. فهل الإنسان مجرد جسد ورغبات كمية محدودة، أو أنه كلٌّ مركّب يعلو على المادة البسيطة ؟ هل الإنسان مجرد عنصر من العناصر الطبيعية الأخرى، أو أنه يقف في وسط هذا الكون وفى مركزه: سيد الكون وأشرف المخلوقات ؟ وعلى المستوى الأخلاقي يكون التساؤل: هل هناك مجال للقيم الأخلاقية والروحية بالمعنى العام، أو أنه يجب على الإنسان أن يخضع لقانون العرض والطلب؟

ونفس هذه التساؤلات تأخذ شكلاً آخر في قصائد تنيسون عن الموت وعن وضع الفنان في المجتمع الحديث. ففي قصيدة «سيدة جزيرة شالوت» تعيش هذه السيدة في عزلة عن المجتمع، في برجها وجزيرتها، في كمالها وحركتها المتكررة التي لا نهاية لها. تركز كل طاقتها على نسجها الخلاق إلى درجة يختفي معها الزمان والمكان وتصبح وعيًا ثابتًا مطلقًا منعزلاً عن كل ما يحيط بها. ولكنها، وهي رمز الفن الخالص، في سكونها وتكاملها هذا، تقتحمها الحياة. إذ تظهر بغتة الصورة الخارقة للسير لانسلوت، رمز الحياة والسوق والرغبة والصراع، على مرآتها الزرقاء. حينئذ تحول سيدة جزيرة شالوت ناظريها عن نسيجها وتنظر إلى «مدينة» كاملوت، بكل ما فيها من حسنات ومساوئ وخير وشر،

www.scantopdf.eu

فتتحطم المرآة التي تنظر فيها ويطير النسيج وتترك البرج والجزيرة لتموت صريعة هواها للفارس ورغبتها العارمة في الحياة. أما الفارس، فلا يعير الأمر كبير اهتمام، ويستمر فيما هو فيه. فالفن الخالص النبيل - كما يبدو - ليس له مكان في عالم الحياة العادية، عالم العرض والطلب.

ومن القصائد الأخرى التي كنت أحب تدريسها، والحوار مع ذاتي من خلالها، قصيدة ماثيو أرنولد Matthew Arnold «**على شاطئ دوفر**»، وهي قصيدة المفروض فيها أنها قصيدة حب ولكنها تصبح، في النهاية، مرثية للإنسان في العصر الحديث. تبدأ القصيدة بوصف بارد محايد للبحر في ليلة مقمرة. ثم نعرف أن هذا البحر يذكِّر الشاعر بنغمة الحزن السرمدية التي استمع لها الكاتب المسرحي الإغريقي سوفوكليس Sophocles في الزمان الغابر. ويترسخ في وجداننا إحساس الشاعر بعزلته ووحدته. ثم يطلق الشاعر العنان لأحزانه فيقول: «فيما مضى كان بحر الإيمان/ هو الآخر ممتلئًا، محيطًا بشواطئ الأرض/ مثل ثنايا حزام مشرق مطوي/ ولكنني الآن لا أسمع سوى هديره الطويل الحزين/ عند انحساره وانسحابه مع أنفاس/ رياح الليل إلى حواف العالم المقفرة الشاسعة/ وإلى الحجارة العارية الصماء».

لقد انتقلنا من امتلاء الإيمان إلى الفراغ المخيم على عصرنا الحديث الذي لا معنى له. وفي المقطع الأخير من القصيدة، نجد أغرب دعوة للحب عرفها الشعر، إذ يطلب الشاعر من حبيبته أن تكون وفية في حبها له. وألا تدع هذا الحب يذوي ويضمر «لأن العالم الذي يمتد أمامنا/ وكأنه أرض الأحلام/ متنوع جميل جديد/ ليس فيه، في الواقع، فرح ولا حب ولا نور/ ولا يقين ولا سلام ولا بلسم يخفف من حدة الآلام»، أي أنه يورد لها الأسباب الفلسفية (المجردة) التي تدعوها إلى حبه، كما لو كان من المحتم علينا أن نبحث عن مبررات للحب والوفاء في عالمنا المسطح السخيف. ثم نطل مع المحبين من النافذة لنرى أننا نعيش في سهل مظلم، تعصف بنا نداءات متضاربة بالإقدام والإدبار مثل جيشين جهولين ملتحمين في الظلام الحالك. إن هذا هو عالم داروين الصراعي، عالم مادي، خال من الروح والمعنى (مثل عالم «الملاح القديم» بعد أن قتل طائر القطرس) ولم يبق سوى أن يطلب الشاعر من حبيبته أن تحبه للأسباب عاليه! (وقد كتبت دراسات عن كل هذه القصائد نشرت كمقالات متفرقة، وأنوي بإذن الله أن أضيف لها بعض قصائد أخرى أضمها كلها في كتاب عنوانه «دراسات في ظهور وضمور المثل الرومانتيكي الأعلى»

www.scantopdf.eu

وتتجلى من خلال كل قصيدة لحظة تاريخية محددة. وحين توضع القصائد الواحدة تلو الأخرى، فإن هذا يؤدي إلى الإحساس بالتتالي التاريخي).

واستمرت الأسئلة المحمومة تحيط بي، حينما درَّست مادة الحضارة وركزت على مفكري القرن التاسع عشر في إنجلترا. وكانوا كلهم يواجهون نفس المشكلات التي واجهها الشعراء الرومانتيكيون والڤيكتوريون: كيف يمكن أن نعيش في عالم مادي تمامًا بلا مرجعية متجاوزة؟ كانت كتابات جون ستيورات ميل John Stuart Mill الأخيرة بالذات تستهويني، فاقتناعات فيلسوف النفعية والليبرالية أخذت تهتز بشدة في أواخر حياته، وكان يردد: «خير لي أن أكون سقراطًا ساخطًا من أن أكون خنزيراً راضيًا». فكنت أسأل بدوري: «الخنزير يعيش في عالم الحواس والمادة، ولذا لا تهاجمه أي شكوك أو تساؤلات، ولا يسأل عن أي أخلاقيات أو مطلقات. ولكن ماذا عن سقراط؟ لماذا هو ساخط ويتحدث دائمًا عن المطلقات وعن المعنى؟ ولماذا نفضله على الخنزير الراضي؟ ما الأساس الفلسفي الذي نستند إليه في عملية التفضيل هذه؟ هل ثمة ميتافيزيقا خفية يحاول ميل من خلالها أن يصل إلى أساس التفضيل». وكانت إجابته: «سقراط يعرف طرفي القضية، أما الخنزير فلا يعرف سوى طرف واحد». أي أن الخنزير خنزير لأنه كذلك دون اختيار، أما سقراط فقد شاء ألا يكون خنزيراً. حرية الإرادة هي إذن المدخل لعملية التفضيل، هي الميتافيزيقا الخفية، هي النقطة التي يعبِّر الإله الخفي عن نفسه من خلالها، إذ يطرح السؤال نفسه: إن كانت الأمور مادية محضة، فما مصدر حرية الإرادة هذه؟ أوليس أقر للعين أن يكون الإنسان خنزيراً راضيًا في عالم الصيرورة المادية؟ وكانت بعض طالباتي الذكيات في كلية البنات يُلاحظن أنني، في أثناء محاضراتي، كنت لا أتحدث لهن وإنما مع نفسي.

ومن أكثر الوقائع دلالة في حياتي في مرحلة الانتقال هذه إحدى المحاضرات التي ألقيتها عن قصيدة أندرو مارڤيل Andrew Marvel «إلى صديقته المتمنعة To His Coy Mistress» (كُتبت في القرن السابع عشر)، وهي قصيدة أجمع النقاد على أنها محاولة ناجحة من جانب الشاعر في أن يغوي حبيبته بطريقة منطقية مقنعة. فيخبرها في الجزء الأول من القصيدة بأنها يحق لها أن تتمنع ما شاء لها التمنع إن كانا يعيشان في الأزلية، خارج حدود الزمان والمكان. ولكنه في الجزء الثاني من القصيدة يخبرها بأنه في واقع الأمر يسمع عربة الزمان المجنحة تسرع بجواره، ثم يقول ساخراً إن القبر مكان ولا شك

www.scantopdf.eu

جميل، يتمتع فيه المرء بالخصوصية، ولكن لا يمكن للأحبة أن يتعانقوا فيه. وفي الجزء الثالث يخبرها بأن النتيجة المنطقية لهذه المقدمات أنهما لن يمكنهما إيقاف الزمان ولا تجاوز حدوده، ولكنهما مع هذا يمكنهما هزيمته عن طريق عناقهما [الجنسي].

هذه هي القراءة السائدة للقصيدة، وكنت أنوي تدريسها لطالباتي بهذه الطريقة، ولكنني فجأة رأيت وراء الإغواء والانتصار قصة مغايرة تمامًا، ترويها الصور التي يستخدمها الشاعر. فتوقفت في منتصف المحاضرة، وأخبرت الطالبات بأنني لن يمكنني الاستمرار في المحاضرة وأن عليهن أن يحضرن في اليوم التالي لأستأنف شرح القصيدة. وذهبت إلى المنزل، وبدأت أقرأ الجزء الأخير من القصيدة قراءة مغايرة تمامًا. فهي لم تعد قصيدة إغواء وانتصار وإنكار لمقدرة الإنسان على التجاوز، وإنما وجدت أن هناك عناصر من الاشمئزاز توجد على المستوى الكامن في القصيدة. ففي أهم أبيات القصيدة في الجزء الثالث يطلب الشاعر من حبيبته المتمنعة أن يلعبا معًا، وهما لا يزال أمامهما متسع من الوقت، ولكنه يشبِّه نفسه وحبيبته «بالطيور الجارحة الوالهة». ثم يطلب منها أن ينتزعا لذتهما انتزاعًا من «بوابات الزمن الحديدية» بدلاً من الذبول بين «مخالبه المشققة القوية». وهكذا تحل لغة الحرب محل لغة الحب، وبدلاً من خطاب المحبين يظهر الخطاب الإمبريالي. ونكتشف أن الشاعر صاحب الانتصار الساحق الماحق يكتشف أنه إنسان مفترس فيملؤه الاشمئزاز من نفسه ومن عملية الافتراس التي لا علاقة لها بالحب أو الوصال. (وهو في هذا لا يختلف عن أوبنهايمر الذي «تقيأ» حينما اكتشف نجاحه الساحق الماحق).

وفي النهاية كتبت كتاب **الفردوس الأرضي** (الذي بدأته عام ١٩٧١ وانتهيت منه عام ١٩٧٩) الذي أودعت فيه كل تساؤلاتي. فهاجمت منطق التقدم الدائم وتسليع الإنسان. ولكن الأهم من هذا - في سياق هذه الرحلة الفكرية - أن الكتاب مليء بالإشارات ذات النكهة الدينية، فعلى سبيل المثال حينما كتبت عن الهيبي اختتمت المقال بهذه العبارة: «حقّا إن الصمت هو قدس الأقداس للمنتشي الذي يفقد عقله، أما آدم فقد كان عليه أن يتعلم الأسماء كلها كي يصبح إنسانًا سويّا تخر له الملائكة ساجدين».

وبدأت الفصل الذي أقارن فيه بين المفكر الصهيوني نورمان بودورتز Norman Podhoretz والزعيم المسلم الأسود مالكولم إكس بهذه العبارة: «حينما تغمض عينيك

www.scantopdf.eu

فإنك تبصر لأن الإنسان له بصر وبصيرة، عين حسية [مادية] ترى الأشياء وأخرى [روحية] تخترق السطح لتصل إلى البنية الكامنة وطبيعة الوجود. ولأننا لا نقنع من الأشياء بسطحها ولا نرضى بالواقع كما هو، فإننا دائمًا نحلم. ويضيق نطاق الحلم ويتسع، ويرتفع ويهبط ولكنه في ضيقه واتساعه وارتفاعه وهبوطه يعكس ما في داخلنا ويُجسِّد هويتنا». وحديثي عن البصيرة والحلم هو في واقع الأمر حديث عن نموذجين : نموذج الطبيعة/ المادة المصمت ونموذج ثنائية المادة والروح التي تسم حياة الإنسان الإنسان .

وتناولت في الكتاب لحظة الإشراق والكشف الكبرى في حياة بودورتز، كما يصفها هو : «أنا متيقن من أن النقود شيء مهم، وهذا اكتشاف لم يصل إليه إنسان من قبل (كما يضيف متهكمًا) »ولا شك في أنه من الأفضل أن أكون ثريّا على أن أكون فقيراً. أعرف أن القوة شيء مرغوب فيه، فمن الأفضل أن تعطي أوامر من أن تتلقاها. أعرف أن الشهرة شيء لذيذ دون تحفظ، فمن الأفضل أن تكون معروفًا على أن تكون مغموراً». وهكذا يسيطر الخطاب الإمبريالي تماماً وتتعالى الصلوات لربة النجاح في صوت مليء بالتقوى ومفعم بالورع، وولعه بالنجاح والشهرة يصل إلى أبعاد لا يمكن تخيلها. فبينما هو في الجيش يكتب مقالاً لمجلة كومنتاري، وحينما يصبح المقال موضوعًا حادّا للنقاش، يثير الأمر الغبطة في قلبه لا لأن المقال جيد (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)، ولا لأنه مقال قد حقق عن طريقه ربحًا (تجارة يصيبها أو امرأة ينكحها)، وإنما لأن المقال جعل منه موضوعًا للحديث، وهذا هو المهم أن يظل هو السلعة الرابحة والشيء المطلوب. لم يعد بودورتز مرتديًا قناع البلاستيك للدعاية، بل أصبح هو نفسه الرجل/ الإعلان/ البلاستيك - الإنسان السلعة ولا حول ولا قوة إلا بالله» .

وختمت الفصل عن بودورتز بهذا السؤال : «هل من الممكن أن يكون النجاح مقياسًا دقيقًا إلى حدٍّ ما لمقدرتنا الداخلية في عالم الحضارة الأمريكية ؟»، وهو سؤال يطرحه بودورتز نفسه، ولكنه سؤال خطابي إلى حدٍّ كبير، فهو يؤمن بأن النجاح [الخارجي] هو بالفعل مقياس للقدرات الداخلية. فأعلق على هذه الإجابة بقولي : «إذا كانت الإجابة بالإيجاب تكون الإمبريالية النفسية الأمريكية قد قضت قضاءً مبرمًا على الإنسان الأمريكي وحولته إلى شيء يُقاس. ولكن السؤال في نهاية الأمر، ما النجاح الذي عنه تبحث ؟ ما الآلام والآمال ؟ هجرة لله ولرسوله أم هجرة تجارية للحصول على الأشياء

www.scantopdf.eu

ومزيد من الأشياء ؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يمكن أن يسأله البشر كبشر بالنسبة لقضية النجاح .

«فإن لم يسألوه كانوا كالحيوان الأعجم الذي لا روح له، أو مثل بودورتز الذي تعبَّد في محراب ربة النجاح المادي والأشياء والنقود والشهرة، أو كالجبل الأصم الذي لا يستطيع أن يحمل الرسالة التي عرضها الله عليه ويقف وسط الطبيعة مساويًا لها، ليس فيه ما يميزه [منها]» .

في مقابل كل هذا أطرح **سيرة مالكولم إكس الذاتية**، التي نتعلم منها أن : «الإنسان في مقدوره أن يحقق . . البقاء [و] الاستمرار لأنه يحلم دائمًا بعالم من البراءة الأولى وبذا يحتفظ بقدر من النقاء الروحي حتى بعد أن يصبح أكثر الساخرين مرارة. والإسلام بالنسبة لمالكولم هو حلم البراءة هذا، فلقد زوده بإطار مثالي حرره من افتراضات وأخلاقيات مجتمعه العرقية [على عكس بودورتز الذي كان يتعبَّد في محراب ربة النجاح المادية الأمريكية] .

«ويمكن رؤية بناء السيرة الذاتية ككل على أنه تجسيد لتطور مالكولم من كونه إنسانًا ماديًا لا روح له ولا ضمير، إلى إنسان قادر على اكتشاف «نزعات مثالية» في نفسه. تبدأ السيرة بإشارة إلى أم مالكولم إكس الحامل كرمز واضح الدلالة على الخصوبة والحياة الجديدة والإمكانية الإنسانية التي تريد أن تولد. وإلى جوار الأم الحامل يقف أبو مالكولم وهو واعظ ينتمي لشكل بدائي من القومية السوداء في أمريكا، أي أنه هو الآخر رمز لميلاد قومي جديد. [كان مالكولم يتذكر جيدًا موعظة أبيه المفضلة التي حملها في قلبه طيلة حياته : «ها هو ذا القطار الأسود الصغير قادم، ومن الأفضل لك أن تكون جاهزًا له». كما كان يتذكر ذلك الزنجي الذي كان يسمع أغنية عن أحد الطيور المختلفة وكان يدخن سيجارة مخدرات فقفز من شرفة الطابق الثاني في محاولة يائسة للطيران والتجاوز، فسقط وكسرت رجلاه ! وكما يقول مالكولم نفسه في موضع آخر إنه استطاع أن يحلق في السماء مثل الفتى إيكاروس (الذي حاول الطيران بأجنحة شمع) ولكن بأجنحة وهبها الله إياه عن طريق عقيدة الإسلام] .

«ولكننا في السطر الثاني من السيرة [نجد] إشارة إلى أعضاء جماعة الكو كلوكس كلان [ku klux klan] العنصرية الإرهابية الممتطين صهوات جيادهم، والذين أحاطوا بمنزل

www.scantopdf.eu

مالكولم في الليل وسخروا من أبيه - [كما أن هناك إشارات لمحاولة أمريكا البيضاء أن تحوله إلى عصفور كناري أليف أو حتى إلى بغل جميل أو حيوان أليف أو كلب بودل وردي أو إلى شيء طفيلي أو نسر مفترس]؛ أي أنه منذ البداية تحاصر قوى الشر إمكانات الخير وتحاول إجهاضها والقضاء عليها. وبالرغم من ذلك كله فإن مالكولم لم يتخل ولو للحظة عن براءته، لأنه أدرك أنه قد صار طائراً مفترسًا لا بسبب شرٍّ كامن فيه وإنما بسبب وجوده في عالم الرجل الأبيض المادي المبني على التنافس الذي يلتهم فيه الإنسان أخاه الإنسان. ولكن بقاء مالكولم وكتابته لسيرته الذاتية يقومان شاهدين على أن الإنسان، برفضه بيع روحه لشيطان العنصرية والمادية، وبإيمانه بتفوق ما هو ممكن على ما هو قائم بالفعل، يستطيع تحقيق الخلاص.

«إن تلك السيرة الذاتية هي حقًا ترتيلة تمجيد لروح الإنسان، القادرة على التحمل، بل على الانتصار».

ثم أختتم كتاب **الفردوس الأرضي** بهذه الكلمة الختامية المعنونة "التاريخ والفردوس في القلب»:

«في المرة الأولى، ذهبت إلى الولايات المتحدة مع زوجتي. وحينما عدنا عام ١٩٦٩ مع ابنتنا، كانت أمي تنتظرني في الميناء وكان معها إخوتي وأخوات زوجتي وأبناء عمومتي. أما أبي فكان غائبًا لأن الله كان قد توفاه، فزرت قبره في دمنهور وقرأت على روحه الفاتحة، عل الله يسكنه فسيح جناته.

«وفي المرة الثانية، ذهبت بمفردي وعند عودتي كانت زوجتي وطفلانا وأخواتها ينتظرونني في المطار، وليلتها عدنا للمنزل وشربنا الشاي ولم أنم. وكانت هذه إحدى المرات النادرة في حياتي التي سمعت فيها صوت المؤذن عند الفجر».

وقد سألني صديقي الناشر الأستاذ عبد الوهاب الكيالي - رحمه الله - عن معنى هذه الكلمة الختامية، فلم أجد ساعتها جوابًا لسؤاله، ولكنني مع هذا أصررت على بقائها. وأعرف الآن أنني كنت أودع الشك، «فالتاريخ والفردوس في القلب» غير التاريخ المادي وغير الفردوس الأرضي، فهما متجاوزان لعالم المادة. وتصور الكلمة الختامية عالم التراحم وعالم الموت المفعم بالمعنى (في مقابل عالم التعاقد واللامعنى). وتنتهي الكلمة بسماعي صوت المؤذن عند الفجر. أسمع صوته ولكني لا أقيم الصلاة، فلم يكن قد حان

www.scantopdf.eu

وقتها بعد بالنسبة لي، ولم أكن قد انتقلت بعد من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان. كنت أقف على العتبات أتأمل وأتفكر بلا توقف ولا هوادة، وكان عليّ أن أنتظر بضع سنوات أخرى قبل أن أقيم الصلاة.

وحينما فعلت، كنت أفعل ذلك في بداية الأمر لأعطي ابني حرية الاختيار بين الشك والإيمان (فقد قرأت أن الشاعر وليام بتلر ييتس William Butler Yeats كان ساخطًا على أبيه الملحد لأنه حرمه من المقدرة على الإيمان وجعله بديلاً غير مطروح. ولذلك حينما بدأ يشعر بالحاجة إلى الإيمان بشيء يتجاوز عالم المادة، وهو شعور إنساني فطري، غرق في الغيبيات مثل تحضير الأرواح، وانتهى به الأمر إلى أن أسس عالمًا أسطوريًا كاملاً يشبه الدين في كثير من الوجوه). كنا نؤدي صلاة الجمعة معًا، ولكن في جامع أثري فندرس المسجد وقيمته المعمارية والحضارية بعد الصلاة، ونأخذ معنا كتبًا إرشادية (بالإنجليزية : جايد بوكس guide books)، وكأنني كنت أريد أن أكون مصليًا وسائحًا في الوقت ذاته. إلى أن أقمت الصلاة في أوائل الثمانينيات خالصةً لوجه الله، وأصبح اهتمامي المعماري جزءاً من إيماني وليس مسوغًا له.

الإيمان ومقولة الإنسان

لعل العنصر الحاسم في انتقالي من عالم المادية الضيق إلى عالم أكثر رحابة، هو تبلور النموذج الكامن في وجداني وتحوله إلى النموذج الحاكم. وكما أسلفت، يذهب هذا النموذج إلى أن الإنسان كائن حر يصنع التاريخ ؛ جزء من الطبيعة ومستقل عنها لا يمكن أن يُردَّ لها، كائن له منتجاته الحضارية التي تمنحه خصوصيته القومية، والتي تحوله من كائن طبيعي إلى كائن حضاري. إنه الإنسان الإنسان (عكس الإنسان الطبيعي/ المادي). وكما أسلفت، بذلت محاولات شتى في إبقاء هذا النموذج داخل إطار مادي. فتحدثت عن الكوني والتاريخي وتقاطعهما لينتجا حركة حلزونية حية. ولكن الحركة الحلزونية، حركة لها غاية، وليست دائرية (كما بينت)، ومن هنا فمحاولة الاستناد إلى الإنسان ككيان ثابت مطلق (العنصر الكوني غير الطبيعي داخله) هي محاولتي الأخيرة ألا «أسقط» في الميتافيزيقا. ولكن ما حدث هو العكس تمامًا إذ فتح الإنسان الباب على مصراعيه للميتافيزيقا، أي الإيمان بوجود شيء في عالم الطبيعة ولكنه لا يُردُّ بأكمله إليها. وبذا

www.scantopdf.eu

أصبح عالمنا يحتوي على المحدود (المادي) واللامحدود (الذي لا يمكننا الإحاطة به حتى ونحن ندرك تبدياته) . وإذا كان اكتشافي للشر في النفس الإنسانية ومحاولة تفسيرها قد قادني بعيدا عن الإيمان، فإن اكتشافي للخير في النفس الإنسانية عاد بي إلى عالم الإنسانية والإيمان.

إن الإنسان داخل الطبيعة أصبح هو علامة الثبات في عالم المادة المتحرك، وعلامة الانقطاع في عالم المادة المتصل، وعلامة التركيب في عالم الاختزالية المادية أي أن الإنسان متجاوز لقوانين الطبيعة المادية. ثمة مسافة تفصل بينه وبين الطبيعة وثمة ثنائية أساسية هنا تحتاج لتفسير، ثنائية المادة وما هو ليس بمادة، الطبيعة وما هو ليس بطبيعة، ثنائية غير الإنساني والإنساني. ولتفسير هذه الثنائية كان لابد من افتراض ثنائية أخرى، ثنائية عالم الصيرورة ونقطة ما تقع خارجه: نقطة ثابتة منزهة متجاوزة، هي نفسها ضمان ثبات الإنسان وانفصاله عن الطبيعة، هذه النقطة هي الإله. فكأنه لا يمكن تفسير ظاهرة الإنسان المستقل عن الطبيعة إلا بوجود الخالق عز وجل، المفارق للطبيعة/ المادة. لهذا أرى أنه حينما أعلن نيتشه موت الإله فإنه كان يعلن، في واقع الأمر، موت الإنسان، وأنه إذا مات الإله، على حد قوله، فإن الإنسان يعيش في عالم مادي طبيعي، شيء مصمت، ويتحول هو نفسه إلى كائن طبيعي مادي يقف «شيئًا» بين الأشياء، أي أنه هو الآخر يموت (وهذا ما عبَّرت عنه الآية الكريمة بقولها: نسوا الله فأنساهم أنفسهم (الحشر ١٩) .

وهكذا، بدلاً من الوصول إلى الإنسان من خلال الله، وصلت إلى الله من خلال الإنسان، ولا يزال هذا هو أساس إيماني الديني، وهو ما أسميه «الإنسانية الإسلامية» التي تنطلق من رفض الواحدية المادية وتصر على ثنائية الإنسان والطبيعة/ المادة، وتصعد منها إلى ثنائية الخالق والمخلوق وكل الثنائيات الأخرى مثل ثنائية الأرض والسماء - الجسد والروح - الحلال والحرام - المقدس والمدنس. ولم يحدث التحول الكامل من الرؤية المادية الواحدية إلى الرؤية المادية/ الروحية والثنائية إلا في أوائل الثمانينيات، أي أن عملية مقاومة الإيمان من جانبي دامت ما يزيد على ربع قرن. وبالتدريج تحول الإيمان إلى رؤية شاملة للكون، وإطار للإجابة عن كل التساؤلات .

وقد وصفت الإنسان في الموسوعة بالكلمات التالية: [إن إنسانية الإنسان تعبِّر عن نفسها] من خلال مظاهر عديدة من بينها النشاط الحضاري للإنسان (الاجتماع الإنساني - الحس الخلقي - الحس الجمالي - الحس الديني).

www.scantopdf.eu

«فالإنسان كائن صاحب إرادة حرة برغم الحدود الطبيعية والتاريخية التي تَحدُّه. وهو كائن واع بذاته وبالكون، قادر على تجاوز ذاته الطبيعية/ المادية وعالم الطبيعة/ المادة. وهو عاقل قادر على استخدام عقله، ولذا فهو قادر على إعادة صياغة نفسه وبيئته حسب رؤيته. والحرية قائمة في نسيج الوجود البشري ذاته، فالإنسان له تاريخ يروي تجاوزه لذاته (وتعثره وفشله في محاولاته)، وهو تعبير عن إثباته لحريته وفعله في الزمان والمكان. والإنسان كائن قادر على تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعي/ المادي الذي يحكم جسده واحتياجاته المادية وغرائزه، وهو قادر على الالتزام بها وقادر أيضًا على خرقها، وهو الكائن الوحيد الذي طوَّر نسقًا من المعاني الداخلية والرموز التي يدرك من خلالها الواقع. وهو النوع الذي له ذاكرة قوية ونظام رمزي أصبحا جزءًا أساسيًا من كيانه حتى إنه يمكن القول بأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يستجيب مباشرةً للمثيرات وإنما يستجيب لإدراكه لهذه المثيرات وما يُسقطه عليها من رموز وذكريات.

«والإنسان هو النوع الوحيد الذي يتميَّز كل فرد فيه بخصوصيات لا يمكن محوها أو تجاهلها. فالأفراد ليسوا نسخًا متطابقة يمكن صبها في قوالب جاهزة وإخضاعها جميعًا لنفس القوالب التفسيرية، فكل فرد وجود غير مكتمل، مشروع يتحقق في المستقبل واستمرار للماضي، ولذا فإن زمن الإنسان هو زمن العقل والإبداع والتغيير والمأساة والملهاة والسقوط، وهو المجال الذي يرتكب فيه الإنسان الخطيئة والذنوب، وهو أيضًا المجال الذي يمكنه فيه التوبة والعودة، وهو المجال الذي يُعبِّر فيه عن نبله وخساسته وطهره وبهيميته. فالزمان الإنساني ليس مثل الزمان الحيواني أو الطبيعي/ المادي الخاضع لدورات الطبيعة الرتيبة، زمان التكرار والدوائر التي لا تنتهي و«العود الأبدي». ولكل هذا، فإن ممارسات الإنسان ليست انعكاسًا بسيطًا أو مركبًا لقوانين الطبيعة/ المادة، فهو مختلف كيفيًا وجوهريًا عنها، فهو ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب ولا يمكن اختزاله إلى بُعد واحد من أبعاده أو إلى وظيفة واحدة من وظائفه البيولوجية أو حتى إلى كل هذه الوظائف.

«ومن المظاهر الأخرى لهذا الجانب أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يطرح تساؤلات عما يُسمَّى «العلل الأولى» (من أين جئنا؟ وأين سينتهي بنا المطاف؟ وما الهدف من وجودنا؟). وهو لا يكتفي أبدًا بما هو كائن وبما هو مُعطًى ولا يرضى بسطح الأشياء؛ فهو دائب النظر والتدبر والبحث، يغوص وراء الظواهر ليصل للمعاني الكلية الكامنة

www.scantopdf.eu

وراءها والتي ينسبها إليها، وهو الكائن الوحيد الذي يبحث عن الغرض من وجوده في الكون. وهذه كلها تساؤلات تجد أصلها في البنية النفسية والعقلية للكائن البشري (النزعة الربانية)، ولذا سُمِّي الإنسان «الحيوان الميتافيزيقي».

«ولا تُوجَد أعضاء تشريحية أو غدد أو أحماض أمينية تشكل الأساس المادي لهذا الجانب الروحي أو الرباني في وجود الإنسان وسلوكه. ولهذا، فهو يشكل ثغرة معرفية كبرى في النسق الطبيعي/ المادي. وهو ليس جزءًا لا يتجزأ من الطبيعة وإنما هو جزء يتجزأ منها، يوجد فيها ويعيش عليها ويتصل بها وينفصل عنها. قد يقترب منها ويشاركها بعض السمات، ولكنه لا يُردُّ في كليته إليها بأي حال، فهو دائمًا قادر على تجاوزها، وهو لهذا مركز الكون وسيد المخلوقات. وهو، لهذا كله، لا يمكن رصده من خلال النماذج المُستمَدة من العلوم الطبيعية».

وهكذا أصبح الإنسان في منظومتي كائنًا يعيش في عالم الطبيعة/ المادة ولكنه يحوي داخله عناصر غير طبيعية، أي متجاوزة للطبيعة يتسم بثنائية الروح والمادة، ومن ثم فإنه تتنازعه نزعتان: نزعة للعودة إلى الطبيعة/ المادية (أسميها النزعة الجنينية)، وأخرى للإحساس بالاستقلال عنها وتجاوزها (أسميها النزعة الربانية، وهي مصطلحات سأوضحها فيما بعد).

وإذا كان الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تجاوز ذاته الطبيعية، فهو أيضًا الكائن الوحيد القادر على الارتداد عنها. ولذا نجد أن الخير والشر ظاهرتان إنسانيتان لا علاقة لهما بعالم الحيوان. (ومع هذا يمكن أن أذكر مثلاً لبعض القردة التي ارتدت عن «قرديتها». ففي الجبال في أبها، في المملكة العربية السعودية، كانت مجموعة من القردة تعيش على هيئة جماعة متماسكة، فبقاء القرد/ الفرد داخل الجماعة أمر أساسي لبقائه. وكانت هذه المجموعة تعيش بجوار متنزه عام، ومع توافر بواقي الطعام التي يتركها المتنزهون البشر بدأت القردة تحصل على طعامها بسهولة ويسر، فانحل البناء الاجتماعي، وانقسم مجتمع القرود إلى أسر نووية (أي أنه تم تحديثها) تعيش مستقلة الواحدة عن الأخرى، وبدأت تصاب بالأنانية والبدانة والكسل!).

وقد ولَّدت من مفهوم «الطبيعة البشرية» مفهوم «الإنسانية المشتركة» التي أضعها في مقابل مفهوم «الإنسانية الواحدة». والذي يفترض أن الناس كيان واحد وإنسانية واحدة

www.scantopdf.eu

خاضعة لبرنامج بيولوجي ووراثي واحد عام، على عكس الإنسانية المشتركة، التي تؤمن بأن ثمة إمكانية وطاقة إنسانية كامنة لا يمكن رصدها أو ردها إلى قوانين مادية. هذه الطاقة لا يمكنها أن تتحقق في فرد بعينه أو شعب بعينه أو في جنس بعينه، وإنما تتحقق بدرجات متفاوتة حسب اختلاف الزمان والمكان والظروف ومن خلال جهد إنساني (وربما لا تتحقق على الإطلاق، فالإنسان - كما أسلفنا - يكاد يكون هو الكائن الوحيد القادر على الانحراف عن طبيعته بسبب حريته)، ولذا فإن ما يتحقق لن يكون أشكالاً حضارية عامة، وإنما أشكال حضارية متنوعة بتنوع الظروف والجهد الإنساني. فتَحقُّق جزء يعني عدم تحقق الأجزاء الأخرى التي تحققت من خلال شعوب أخرى، وتحت ظروف وملابسات مختلفة، ومن خلال درجات من الجهد الإنساني الذي يزيد وينقص من شعب لآخر ومن جماعة لأخرى). ومما يزيد التنوع أن الإنسان قادر على إعادة صياغة ذاته وبيئته حسب وعيه الحر وحسب ما يتوصل إليه من معرفة من خلال تجاربه. هذه الأشكال الحضارية تفصل الإنسان عن الطبيعة/ المادة وتؤكد إنسانيتنا المشتركة (فهي تعبير عن الإمكانية الإنسانية) دون أن تلغى الخصوصيات الحضارية المختلفة.

ولا شك في أن الانتقال المتواصل من بلد إلى بلد جعل من العسير عليّ الاختزال والسقوط في التعميم السهل، ولكن الأهم من هذا أن هذه التجربة ساعدتني على الوصول إلى سمات إنسانية مشتركة، جوهر إنساني ما، فوراء التحولات التاريخية والاجتماعية، يوجد دائمًا الإنسان الذي يحب ويكره.

هذه هي رحلة الانتقال والعودة، رحلة طويلة وشاقة، نتيجة تأمل طويل في الذات الإنسانية وفي الكون، واقتناع بفشل النموذج المادي في تفسير ظاهرة الإنسان، وإدراك لأهمية البعد الديني في حياة الإنسان. وقد ساعدتني دراستي للأدب الرومانتيكي والمراجعات الغربية لكثير من المقولات السائدة وكتابات ماكس فيبر (خاصةً عن الدين) على إنجاز الرحلة. ولعلها من المفارقات التي قد تثير الدهشة أن رحلة الانتقال والعودة أمر قد بدأ هناك وليس هنا. ولكن كان هناك بعض المفكرين الإسلاميين مثل مالك بن نبي وسيد حسين نصر وفضل عبد الرحمن الذين قرأت كتاباتهم وساعدتني على فهم الإسلام بطريقة جديدة تجيب عن كثير من تساؤلاتي. وإلى جانب كل هذا، كان هناك في نهاية الأمر المخزون الضخم داخلي من التراث الديني الإسلامي وتجربتي مع المجتمع التقليدي في دمنهور في طفولتي وصباي. ففي سن الثالثة عشرة، كنت قد قرأت القرآن عدة مرات

www.scantopdf.eu

وعرفت الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وكنت كذلك قد قرأت كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق، ولذا كنت أعرف الفروق الدقيقة بين المذاهب الأربعة في كثير من الأمور. وكنت أعرف كذلك الكثير من قصص السيرة والخلفاء والصحابة، كما كان لي معرفة بتاريخ المسلمين. وقد تراسلت بعض الوقت مع الأستاذ سعيد رمضان (رحمه الله) الذي كان كريمًا معي فكان يرد على رسائلي. وقد عدت لقراءة القرآن مرة أخرى، والكتب التي تتناول التراث الإسلامي، بما في ذلك الفلسفة الإسلامية، وللتأمل في التراحم والأسرة الممتدة، أي أنني عدت إلى ما أعرف.

ومن الأمور التي تستحق الذكر أن الدكتور أنور عبد الملك (الذي قطن في عمارتي بعض الوقت) كان كثيراً ما يتحدث عن الإسلام الحضاري، ويؤكد أنه لا يمكن فهم البعد الحضاري للإسلام إلا بالذهاب إلى جنوب شرقي آسيا، بحيث يرى المرء بنفسه الفرق بين المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية. وكان لهذا أعمق الأثر فيّ، وفتّح عيوني على الجوانب الحضارية في الإسلام وهي أمور كنت أحس بها دون أن أدركها بشكل واضح.

وهذا لا يختلف كثيراً عن دراستي لأدب وفنون العصور الوسطى وبخاصة تشوسر في **حكايات كانتربري**، فقد عمّق من إحساسي الديني (برغم أنه أدب مسيحي) وإحساسي بتركيبية الوضع الإنساني، ولا أنسى تعليق الأستاذ كيلوج على الشر في إحدى شخصيات تشوسر حين اقتبس كلمات القديس أوغسطين St. Augustine : «**وأنت لن تحب الرذيلة بسبب الرجل، ولن تكره الرجل بسبب الرذيلة، بل فلتحب الرجل ولتكره الرذيلة**». وهي لا تختلف كثيراً عن قول عليّ بن أبي طالب : «**لا يُعرف الحق بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحق**». كما أنني أُعجب كثيراً بالموسيقى الكنسية ومعمار الكاتدرائيات الكاثوليكية، وأحرص على زيارتها والتأمل فيها بحُسبانها تعبيراً متميزاً عن تجربة دينية عميقة.

وقد تعرفت إلى الحاخام يوسف بيخر Youssef Becher في أثناء إقامتي في الولايات المتحدة، وهو حاخام أرثوذكسي أمريكي من أصل شرق أوربي، كان معادياً تماماً للصهيونية من منظور ديني يهودي، وكان يُكرس جل وقته للحرب ضد الصهيونية بحُسبانه يهودياً مؤمناً وبحُسبانها حركة كفر وهرطقة. وكان لا يكف عن الحركة والتضحية من أجل قضيته. رتبت له مرة لقاء مع أحد المسئولين العرب لمناقشة أمر مهم للغاية، وتصادف أن وقع الاجتماع في أحد الأعياد اليهودية التي كان عليه أن يرتدي فيها زيّاً أقل

www.scantopdf.eu

ما يوصف به أنه كان غريبًا. ولكن نظرًا لأهمية الاجتماع، ونظرًا لأنه لا يساوم في شئون دينه، ارتدى الحاخام بيخر زيه هذا وسار في طرقات مانهاتن، قمة الحداثة، وحضر الاجتماع وعاد إلى منزله. أهديته كتابي **أرض الوعد**: «إلى يوسف بيخر، محب صهيون». وأميِّز في الكتاب بين الحب الديني لصهيون، وهي رغبة روحية تعبِّر عن نفسها في الرغبة في تجاوز العالم المادي من جهة (وأنا كمسلم ليس عندي أي مشكلة مع مثل هذا التطلع الديني)، والشهوة الاستيطانية، أي الرغبة الصهيونية في الاستيلاء المادي على فلسطين من جهة أخرى، التي مازلت أقف ضدها بكل ما أوتيت من قوة، انطلاقًا من أنها قمة رفضي للظلم والتفاوت بين البشر.

أذكر كل هذه التفاصيل لأبيِّن تنوع مصادر تجربتي الدينية. فبرغم أنني تبنيت الإسلام في نهاية الأمر، رؤية للحياة وأيديولوجية ومرشدًا للسلوك، فإن المسار الذي قادني إليه كان متنوعًا ومركبًا ومختلفًا عن المسار العادي. ولا شك في أن هذا قد ترك أثره على رؤيتي الدينية وعلى سلوكي تجاه الآخرين ممن هم ليسوا من أبناء ملتي واعتقادي.

وأنا أذهب إلى أن الرقعة المشتركة بين الأديان، في المجال الأخلاقي، واسعة. ولذا أرى أنه يجب التوصل إلى عقد اجتماعي يستند إلى هذه الرقعة المشتركة، على أن نناقش الخلافات العقائدية (وهي خلافات حقيقية عادةً لا يفهمها البشر العاديون برغم معاركهم الدائمة بشأنها) في أقسام العقائد ومدارس اللاهوت. والنقاش هناك سيكون نقاشًا علميًا هادئًا، ولن يتحول إلى مذابح لا عقلانية، لا تفيد أحدًا سوى أعداء الله والإنسان والأخلاق. (ومما يستحق الذكر أن هذه هي الطريقة المصرية في التعامل مع الدين، فحتى عهد قريب كانت تسود المجتمع معايير أخلاقية عامة بخصوص العيب والمباح، والحشمة والتبرج، و«الأصول» وما هو خارج عنها، معايير يتقبلها الجميع، ويسلك في إطارها، دون أن يتحدث أحد قط في العقائد).

وقد بقيت مدة من الوقت مؤمنًا بالله وبالإسلام، ولكن إيماني بالإسلام لم يكن له أي أساس فكري وفلسفي واضح في ذهني (وأنا لا أقبل شيئًا إلا إذا كان له أساس فلسفي). وقد حيرني هذا السؤال بعض الوقت: لم الإسلام وليس أي دين آخر؟ وحيث إنني أحب أن أكون نزيهًا - قدر طاقتي - في الأمور الفكرية، فقد كنت أذكر لأصدقائي أنه لا يوجد سبب واضح، إلى أن تبلورت قضية الحلولية في ذهني، وضرورة وجود مسافة بين

www.scantopdf.eu

الخالق والمخلوق، وقد وجدت أن الإسلام هو أكثر العقائد ابتعادًا عن الحلولية وعن توحد الخالق بمخلوقاته (وحدة الوجود)، أي أن التوحيد في إطار الإسلام - في تصوري - هو أكثر أشكال التوحيد رقيًا وتساميًا .

هذا لا يعني رفضًا للآخر، إذ يظل مفهوم التدافع مفهومًا أساسيًا، وهو مفهوم إسلامي يعني الاختلاف بل والصراع، ولكنهما اختلاف وصراع رقيقان، مثل تدافع السيل، حين تلاطم بعض مياهه بعضًا، ولكن هذا التلاطم لا يوقف التدفق، بل هو جزء منه .

يضاف إلى هذا ما أسميه «النسبية الإسلامية» وهي الإيمان بأن الله هو وحده الثابت الذي لا يتحوَّل وما عدا ذلك فمتغيِّر، وهو وحده الذي يحيط بكل شيء﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (الإسراء: ٨٥) -﴿ وفوق كل ذى علم عليم﴾ (يوسف: ٧٦). أما نحن البشر فلا نعرف إلا جزءًا من الحقيقة. ويحضرني في هذا ذلك النحوي الذي قضى حياته بحثًا عن معاني كلمة واحدة، وحينما جاءه الزائر الأخير قال قولته الأخيرة: «أموت وفي نفسي شيء من حتى». والنسبية الإسلامية التي أدعو إليها لا تؤدي إلى العدمية، فهي نسبية داخل إطار ولا تمتد إلى المرجعية النهائية ولا تؤدي إلى تعددية مفرطة في المعاني والمراكز، بحيث يصبح العالم بلا معنى وبلا مركز .

ومفهوم الله الرحيم العادل من المفاهيم المركزية في تصوري، وهو ليس إله العرب أو المسلمين أو قوم أو عرْق دون الأقوام والأعراق الأخرى، بل هو رب العالمين أجمعين، يشملهم جميعًا بعدَله ورحمته. ولعل كل هذه العناصر توسِّع من آفاق إيماني الديني، وتجعل للآخر مكانًا في عالمي برغم إيماني بالإسلام أو ربما بسببه. إذ إن الإسلام من أكثر العقائد تسامحًا وقبولاً للآخر، برغم أنه يحدد الحدود ويضع الفواصل .

ويمكنني القول: إن إيماني أساسًا إيمان عقلاني (بل يمكن أن يوصف بأنه جاف)، فأنا لا أشعر بأي شيء يشبه شعور المتصوفين وما يسمَّى بالروحانيات، ولا أنفعل دينيًا إلا نادرًا. ومن تلك اللحظات النادرة التي انفعلت فيها، زيارتي للكعبة لأول مرة. كنت أسمع عن بعض المسلمين ممن يشفهم الوجد ويقعون في غرام الكعبة، ولا يشفيهم من وجدهم هذا أن يقوموا بزيارتها مرةً أخرى. وأعترف بأنني مارست شيئًا من هذا القبيل بعد زيارتي للكعبة. ومع هذا تظل تجربتي الدينية عقلانية في جوهرها.

www.scantopdf.eu